في الجانب المظلم

ليلة لن تنساها أبداً!!

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي









الطبعة (13)


فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

في الجانب المظلم

عبد الوهاب السيد الرفاعي

تنويه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول: أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

كيف بدأ كل شيء؟!

فعلا.. كيف بدأ كل شيء؟!.. سؤال ما زلت أطرحه على نفسي بين حين وآخر دون أن أجد له إجابة واضحة.: أحيانا أرى أن البداية الحقيقية هي التجربة الرهيبة التي عشت أحداثها قبل بضعة أسابيع وقلبت كياني رأسا على عقب.. بل وغيَّرت حياتي تماما.. وأحيانا أخرى أرى أن البداية ربما تعود إلى ذلك الموقع الإلكتروني الذي وجدته بالصدفة البحتة قبل عشرة أيام تقريبا وأنا أبحر في عالم الإنترنت.. إنه موقع تستطيع من خلاله أن ترسل أي إعلان أو رسالة إلى أكثر من عشرة آلاف بريد إلكتروني من بلد واحد.. لذا فقد اخترت دولة (الكويت) من قائمة الدول الموجودة في الموقع.. وأرسلت رسالة إلكترونية إلى آلاف العناوين البريدية في (الكويت) أقول فيها:

((هل عشت تجربة غريبة من قبل؟!.. هل تشعر أنك تحمل أسرارا هائلة تثقل كاهلك؟!.. سأستمع إليك وأعطيك الإحساس بالأمان.. فقط أرجوك أن ترد على هذه الرسالة حتى يتم تحديد موعد للقاء)).

لا أعلم لماذا فعلت هذا!!.. ربما رغبة في العبث.. ربما هي الوحدة التي جعلتني أتصرف بغرابة.. فإن لم تُقتل الوحدة بشيء.. قتلتك!!.. لماذا استخدمت تلك الكلمات تحديدا في رسالتي العشوائية؟!.. ربما لأنني أردت أن أعرف إن كان هناك من عاش تجربة أو قصة شبيهة بالتي عشتها!!..

المهم أن هذا كان نص الرسالة التي أرسلتها في لحظة جنون ونسيت كل ما يتعلق بشأنها بعد ساعات قليلة.. قبل أن أفاجيء بعدها بيومين بوجود مائتي رسالة على الأقل في صندوق بريدي الإلكتروني!!.. معظمها كانت بطبيعة الحال من شباب متحمسين جدا يظنون أن الأمر يتعلق بمعاكسة فتاة!!.. نعم.. إنني فتاة.. المعذرة.. لقد نسيت أن أخبركم بهذا.. وعنوان بريدي الإلكتروني يحمل اسمي الأول.. لذا كان الأمر مغريا على ما يبدو لهؤلاء الشباب.

ظللت خلال الأيام الثلاثة التالية أقرأ رسائلهم التي لم يخرج فحواها عن كلام العشق والغرام والرغبة في التعارف.. فأضحك بسبب بلاهة وغباء الشباب دون أن أرد عليهم بالطبع.. إلى أن استوقفتني هاتان الرسالتان!!.. رسالتان حملتا الكثير والكثير جدا من المعاني.. الرسالة الأولى كتبت بأسلوب راق أنيق من شاب في مقتبل العمر -كما وصف نفسه-ويقول أنه قد عاش ورأى ما لم يره أحد.. أما الثانية فكانت من رجل في عمر والدي كما عرفت فيما بعد.. وتحدث فيها عن سر هائل يثقل كاهله منذ سنوات طويلة، ولم يفكر أبدا في البوح به لأحد!!.. لكنه بعد أن قرأ رسالتي.. رأى أن لا ضرر هناك من الحديث عن تجربته حتى وإن لم أصدقه واتهمته بالكذب!!.

لقد شعرت من الرسالتين أن صاحبيهما لديهما ما يقولانه وأن كلامهما لا يمكن أن يصدر إلا عن أناس غير عاديين.. أو هذا ما بدا لي على الأقل!!.. لذا فقد أخذت الأمر مأخذ الجد ورحت أتواصل مع هذين الشخصين خلال الأيام القليلة التي تلت.. حتى أحسست برغبة عارمة في لقائهما!!.. نعم.. إنها فكرة مجنونة واتتني فجأة وأصبحت تلح على عقلي دون توقف!!.. والواقع أنه لا يوجد مبرر لجنونك لو كنت لا تستطيع أن تستمتع به.. أليس كذلك؟!.

لذا وجدت نفسي أطلب من هذين الشخصين -من خلال البريد الإلكتروني أيضا- تحديد موعداً للقاء.. أين؟!.. في منزلي بالطبع.. ألم أقل لكم إنها واحدة من تلك اللحظات التي نتصرف فيها

بجنون؟!..

تسألونني عن أهلي؟!.. وكيف سيوافق والدي وأشقائي على أمر كهذا؟!.. صدقوني ستجدون إجابة لكل تساؤلاتكم.، كل ثغرة في كلامي ستجدون الرد عليها.. أرجوكم أن تتابعوا معي لتعرفوا التفاصيل!!.

اتفقت مع هذين الشخصين -بعد أن أرسلت لهما العنوان -على أن يقوما بزيارتي في بيتي الكائن في منطقة (مشرف) مساء الخميس دون أن أتوقع منهما الحضور في واقع الأمر.. لكني رغم ذلك استعددت جيدا للقائهما.. ففي اليوم الموعود.. قمت بتنظيف صالة البيت وإعدادها للأمسية المجهولة التفاصيل والتي سيشوبها الغموض دون شك.. هذا إذا حضر الضيفان المجهولان أو أحدهما على الأقل!!..

كما قمت بشراء بعض المأكولات الخفيفة من فطائر ومعجنات من أجل تلك الأمسية.. كيف تصرفت بهذا البرود واللامبالاة وكأنني أستقبل مجموعة من صديقاتي؟!.. لماذا استبعدت أن يكون أحد الضيفين قاتلا أو مجرماً مثلا؟!.. ربما لأنني أخبرتهم أنه سيكون هناك ضيوف آخرون من أفراد عائلتي.. ولأنني كنت واثقة من أن رسائل كالتي تلقيتها لا يمكن أن يكون أصحابها أناسا سيئين.. وربما بسبب شعوري بأنني أصبحت فتاة قوية لا تخشى شيئا بعد تجربتي التي عشتها منذ أسابيع قليلة.

ارتديت ثيابا رياضية مريحة.. فالأناقة هي آخر ما أفكر به في لقاء كهذا.، ثم جلست أنتظر قدوم الضيفين بترقب وبشيء من القلق؛ كوني أقود نفسي إلى مغامرة لا أعرف أبعادها.. إلى أن جاءت الساعة الموعودة أخيرا.. الثامنة مساء.. لم أنتظر بعدها طويلا.. إذ وصل الضيفان على فترتين متقاربتين وخلال نصف ساعة تقريبا!!.. أحدهما كان شابا في الثانية والعشرين من العمر كما عرفت منه فيما بعد واسمه (خالد سليمان ال...).. وهو قصير القامة نسبيا.. هزيل الجسد.. يسيطر على ملامحه الشعور بالخوف وعدم الاستقرار.. لقد بدا هذا واضحا من نظراته الحائرة والخجل الشديد الذي ينم عن ضعف أصيل في الشخصية!!.

أما الضيف الآخر فكان اسمه (سالم).. رجل عجوز بعمر والدي.. فقد بدا لي وكأنه في منتصف الخمسين من العمر.. لكنه بدا أيضا بصحة جيدة للغاية.. الغريب أنه جاء إلى منزلي بسيارة تاكسي دون أن أعرف السبب وراء ذلك!!.. فمن النادر جدا ألا يمتلك كويتيا في هذا العمر سيارة!!.

كنت في استقبال كل منهما عند باب البيت الداخلي.. ولا أنسى بالطبع نظرات إعجابهما بأناقة الفيلا، حيث الحديقة الداخلية الجميلة والفوانيس الصغيرة الموجودة على أطرافها.. كل هذا أعطاهما انطباعا وكأنهما في واحدة من حدائق (فيينا).

كان التعارف بيننا خجولا جدا كوننا نرى بعضنا لأول مرة.. بل وزاد خجل الضيفين عندما علما أنني أعيش وحيدة تماما في هذا البيت رغم أنني فتاة في سن المراهقة!!.. لم يقولا شيئا عن هذا.. ولكن أعينهما طرحت تساؤلات عديدة عن كيفية وجود فتاة وحيدة مثلي في هذا البيت.. وعن جرأتي بدعوة ضيفين لا أعرف عنهما شيئا على الإطلاق!!.. فكانت أعينهما تبحث عن صور عائلية في الصالة قد تكشف لهما شيئا عن حياتي.. لكنهما لم يعثرا على شيء!!.. إنني بمثابة اللغز بالنسبة إليهما.. والواقع أن هذا صحيحا إلى حد بعيد!!.

تركت الضيفين في غرفة المعيشة لأذهب إلى المطبخ وأحضر لهما بعض الفطائر والمعجنات الخفيفة التي اشتريتها لهذه الأمسية.. وعند عودتي.. وجدت أن الجليد يذوب شيئا فشيئا بين

(خالد) والسيد (سالم).. فقد كانا يتحدثان حول بعض المواضيع العامة.. لكنهما توقفا عن ذلك عندما جئت إليهما بالمأكولات.. ونظرا إلي بامتنان وقالا ما يقوله أي ضيف:

-لم يكن هناك داع لكل هذا.. تكفي استضافتنا في منزلك..

تنحنحت وقلت بشيء من الحرج:

-هذا أقل ما يمكن تقديمه لكما نظير قبولكما دعوتي.. بالمناسبة.. اسمي (لينا).. لقد نسيت أن أعرفكما بنفسي.. أرجوكما تقبلا اعتذاري..

ابتسم كل منهما وقالا ما يقوله أي ضيف أيضا من عبارات المجاملة التي لا تخفى على أحد.. ثم جلست معهما في غرفة المعيشة حيث مد كل منهما يده بخجل إلى ما قدمته لهما من مأكولات.. وساد الصمت بعدها لفترة قصيرة.. فرحت أفكر بشيء أقوله.. شيء أقوله.. و.. بما إننا في أمسية من أمسيات شهر يوليو.. فلا يوجد أفضل من الحديث عن الطقس الحار في (الكويت).. وهو الموضوع الذي يتحدث بشأنه أي اثنان أو أكثر يلتقون ببعضهم لأول مرة.. وهذا ما حدث بالفعل قبل أن أغير دفة الحديث فجأة لأقول:

-ربما تعتقدان أنني تصرفت بحماقة واستهتار كوني دعوت إلى منزلي شخصين لا أعرف عنهما شيئا.. لكني شعرت برغبة عارمة بالاستمرار في تلك الحماقة.. ولا أعرف السبب!!.

سكت لأرى تأثير كلامي عليهما.. قبل أن يرد السيد (سالم) بطيبة بالغة:

-لا عليك يا بنيتي.. لست الوحيدة التي تتصرف بغرابة في بعض الأحيان.. جميع الناس يفعلون ذلك طوال الوقت.. وإلا.. ما هو تفسيرك لوجودي هنا مع (خالد).. أليس كذلك يا بني؟!..

نظر إلينا (خالد) بخجل.. قبل أن يقول متلعثما:

-لقد ترددت كثيرا قبل المجيء إلى هنا.. لكني شعرت من خلال الرسائل الإلكترونية التي تبادلتها معك بأنني أخاطب فتاة وحيدة رأت الكثير من الأهوال.. ورغم أنك ذكرت لي أن بعض أقاربك سيكونون هنا.. إلا أنني لم أصدق ذلك!!.. لا أدري لماذا.. فقد توقعت أنك تعيشين وحيدة.. ولم أخطيء في ظني كما هو واضح!!.

رددت عليهما بشيء من الاطمئنان:

-صدقاني.. لم أكن لأدعوكما لزيارتي لولا الوحدة القاسية التي أعاني منها.. إن حياتي بالغة الغرابة.. خاصة وأنني عشت مؤخرا تجربة رهيبة لا تصدق.. وشعرت بحاجة عارمة لأن يستمع إلي أحد.. أعرف جيدا أنني كنت أقوم بمغامرة غير محسوبة بدعوتي لرجلين غريبين إلى منزلي وإخبارهما بأهم أسرار حياتي على الإطلاق.. ولكن.. بعد أيام من التواصل بيننا عبر البريد الإلكتروني.. شعرت أنكما شخصان محل ثقة.. وآمل أن تكونا كذلك.. المعذرة.. فهذا لقاؤنا الأول.. ولا أعرف شيئا عنكما.

رد (خالد) بابتسامة حزينة وهو يمسك بفطيرة صغيرة من المعجنات التي قدمتها له:

-تقولين إنك عشت تجربة رهيبة؟!.. ماذا عساي أن أقول؟!.. أنا الذي رأيت ما لا يصدقه عقل.. لو حكيت لك بعضا مما رأيته في حياتي القصيرة لاتهمتني بالجنون.

وضع السيد (سالم) ساقا فوق ساق وهو يقول باهتمام:

-من المؤكد أن كل منا يظن أنه رأى ما لم يره الآخرين.. لذا أعتقد أن على كل منا أن يحكي حكايته مهما بدت غرابتها وبغض النظر عن تصديقنا من عدمه.. ألا توافقاني الرأي؟!.. ثم.. ألسنا هنا لهذا السبب؟!..

رد (خالد) بلهجة مهذبة:

-أرجو المعذرة.. لكني لن أكون أول المتحدثين.. فالتجربة التي تعرضت لها لا تصدق.. وأخشى أن تتهماني بالكذب.. ربما تود أنت البدء بسرد قصتك يا سيد (سالم) كونك أكبرنا سنا.

رد بابتسامة أبوية:

-المعذرة يا ولدي.. أفضل أن أترك المجال لكما أولا وسأكون آخر المتحدثين..

قلت لهما بسرعة لأنهي هذا الجدل:

-حسنا.. سأبدأ أنا بسرد قصتي حتى أشعركما بالألفة وببعض الثقة بالنفس.. خاصة وأنكما ضيفان في منزلي.. ما رأيكما؟!..

أومأ (خالد) برأسه مبتسما.. في حين قال السيد (سالم):

-هذا أفضل يا بنيتي.. وسأكون كلي آذان مصغية.. تفضلي!!..

سكت الاثنان ونظرا إلي كي أبدأ الحديث..

و.. هكذا عزيزي القارئ.. لدينا في هذا الكتاب قصة واحدة تتفرع بدورها إلى ثلاث قصص.. سأبدأ أنا.. ثم (خالد).. وأخيرا السيد (سالم).. ستشعرون بكلماتنا وهمساتنا، وربما ستسمعون أنفاسنا اللاهثة ونحن نسرد لكم الأحداث والتجارب الغريبة التي مررنا بها.. ستعيشون معنا (ديكاميرون) ([1]) حقيقي حدث في الباب المجاور كما يقولون.. كناية عن حدوثه بمكان قريب منكم.. في (الكويت) نفسها.. لذا فأنا أدعوكم إلى الانضمام إلينا في هذه الأمسية التي تنذر بالكثير من الغموض والتشويق!!!.

ولكن.. أرجوكم أن تلتزموا الهدوء.. وأن تعطوا القصص التي ستقرأونها حقها من التركيز التام وحسن الاستماع.. كما أرجوكم الآن أن تعيروني اهتمامكم كاملا كوني أول من سيروي قصته في هذه الأمسية.. ولكن علي أن أنذركم أولا.. فقصتي غامضة وموحشة إلى أبعد الحدود.. وأحداثها شائكة تحتاج إلى تركيز شديد!!.. هل قصتي قابلة للتصديق؟!.. لا أعلم.. والواقع أنني أتمنى ألا تصدقوني!!.. بل أرجوكم لا تصدقوني.. وحتى تتجنبوا الإغماء من هول الأحداث.. كرروا معي في أعماقكم: إنها مجرد قصة.. إنها مجرد قصة!!.. نعم.. إنها قصة مشوهة للغاية -إن صح التعبير- وأعتقد أن القارئ لا يمكن أن يستمتع بها ما لم يتشوه هو الآخر.. فهذه القصة تلمس الجذوة الحقيقية الملتهبة للغموض وربما لعالم ما وراء الطبيعة.. هل تعرفون عالم ما وراء الطبيعة؟!.. ستعرفونه بعد أن تقرأوا قصتي.. أعدكم بهذا.

القصة الأولى:

أيام مع الخوف

تحكيها: ل.ي.ن.ا

إنني فتاة في الثامنة عشر من العمر.. أختلف تماما عن أي فتاة أخرى.. فحياتي لا معنى لها إطلاقا.. والسبب هو أنني لقيطة!!!.. مهلا.. إن قصتي لا علاقة لها أبدا بذلك المسلسل التلفزيوني الذي حمل اسم (اللقيطة).. كما أنني أرجوكم ألا تديروا ظهوركم لي أو تنظروا إلي باشمئزاز.. إذ لا ذنب لي في ما اقترفه والداي اللذان لا أعرف عنهما شيئا بطبيعة الحال!!.. فقد وجدني أحدهم بالقرب من باب أحد مساجد منطقة (الفيحاء) في سبتمبر عام 1989 وأنا لم أبلغ الشهر الأول بعد.. فأخذني إلى دور الرعاية الاجتماعية التي تديرها الدولة لمن هم في مثل حالتي.. حيث يطلقون علينا هناك اسم: (أبناء الحكومة).. كون الحكومة هي المسؤول الأول عنا وهي التي تعيلنا.

إنني أفتح عيني يوميا على واقع لا أريده.. وأشعر دائما بأنني غريبة عن هذا العالم.. بل إنني واثقة أنه عند موتي.. سأموت في كوكب مجهول.. كوكب اسمه (الأرض)!!!.. فمعاناتي عظيمة ولا يمكن أن تشعروا بها أبدا!!.. ربما لم أشعر بها أنا نفسي في سنوات عمري الأولى!!.. ولكن الواقع المرير يكشف عن نفسه شيئا فشيئا!!.. خاصة في مرحلة الخروج إلى ما وراء أسوار دور الرعاية الاجتماعية وعند الاحتكاك بالناس لأول مرة.. إذ يركض كل طفل في نهاية اليوم في مرحلة رياض الأطفال نحو أمه التي تتلقفه بشوق ومحبة وحنان!!.. بينما كنت بالمقابل أكاد أن أسقط على الارض وقدماي تهرولان باضطراب ناحية الحافلة التي ستقلني وقد كتب عليها (وزارة الشؤون - دور الرعاية الاجتماعية) !!.. أما في المراحل الدراسية المتقدمة.. فما زلت أذكر جيدا كيف كنت أنسل خافضة رأسي بخجل في نهاية اليوم الدراسي.. حين تصل الحافلة ذاتها كي تقلني إلى حيث يعيشون من هم مثلي.. بلا أم ولا أب!!.

كنت أعرف جيدا الحياة الطبيعية للأسرة.. وأعرف كيف تعيش الأسر من خلال المسلسلات العربية والأجنبية.. فأشاهد التلفاز وأتحسر على حالي.. وأتذكر أنني لم أعرف في حياتي معنى ضمة صدر من أم أو أب حنون!!.. ليسيطر علي الشعور بالنقمة وكراهية المجتمع!!!.

أما في مكان سكني في دور الرعاية الاجتماعية.. فلم أكن أملك حتى الأصدقاء.. ورغم وجود عدد لا بأس به من الفتيات ممن هم على شاكلتي.. إلا أنني كنت منزوية تماما عن الجميع!!.. فالصداقة بالنسبة لي هي أن تجد الشخص الذي تقرر بكامل إرادتك الحرة أن تقسم حياتك على اثنين من أجله!!.. وأنا لم أجد أبدا ذلك الشخص.. كان لدي -بالمقابل- صديق واحد فقط.. الصمت!!.. فهو الصديق الوحيد الذي لا يخونك أبدا.. بل إن الصمت كان يتحول إلى عزلة يشوبها الخوف من المشرفين المسئولين عنا في دور الرعاية الاجتماعية.. فما زالت قسوة معظمهم عالقة في ذهني!!.. إذ لا يمكن أبدا أن أنسى ما كان يفعله ذلك المشرف اللعين مع أحد الأطفال وأمام عيني المذعورتين.. حين اعتدى عليه بالضرب المبرح.. ثم قام بوضع قلم بين أصابع الطفل ليضغط على أصابعه حتى يتأوه ويتألم!!!.. إنه أسلوب حقير قذر دون شك.. لكن من يهتم ومن يسأل؟!.. بل أذكر أن هناك فتاة لقيطة كانت تعاني من اختلال عقلي.. وكان يتخذها بعض المشرفين كمادة للسخرية والمزاح!!.. تخيلوا هذا!!.

وحتى المشرفات اللواتي يتولين أمورنا في فترة الطفولة غير مؤهلات أصلا.. وكثير منهن لم يتممن أكثر من المرحلة المتوسطة!!.. بل إن نصف الموظفات لا ينتظمن بساعات العمل.. والبقية يقضين الوقت في شرب الشاي والقهوة وقراءة الجرائد.. وتدخين الشيشة!!.. نعم.. لا تستغربوا من هذا.. فذلك ما يحدث بالفعل!!.. فلا حنان.. ولا حب.. ولا طريقة حسنة في التعامل.. لذا فقد كانت الخشونة والإهانات هي اللغة التي يخاطبوننا فيها!!.. فكيف برأيكم سيشب اللقيط بعد كل هذا؟!.. بعض اللقيطات يبدأن بتدخين السجائر منذ سن الرابعة عشرة!!.. وبعضهن ينتهي بهن الأمر في ملف القضايا الأخلاقية!!..

أما الزواج فهو مستحيل بالطبع.. فحتى الشباب اللقطاء لا يثقون باللقيطات.. دعكم من أن الشباب أنفسهم ينجرفون أحيانا كثيرة إلى عالم المخدرات أو الخمر!!.. وبالطبع فإن الجانب الدراسي منحدر إلى حد مخيف هو الآخر.. سوى بعض الحالات النادرة جدا التي نجد فيها لقيطا يحمل شهادة الدكتوراه مثلا أو الهندسة ([2]).

كان البعض منا يتساءل.. من نخاطب؟!.. إلى من نشكو؟!.. جهات الاختصاص؟!.. لا نعرف ما هي جهات الاختصاص!!.. مجلس الأمة؟ ؟!.. إنني لا أستطيع أن أفرق بين مجلس الأمة ومجلس الوزراء.. فالاثنين حكومة!!!!.. ولا يوجد من يمثل الشعب.. الفئة المغلوبة على أمرها من الشعب.. فالكروش تتمدد يوما بعد يوم وتصبح جبالا.. ووحدهم الشرفاء الخائفون على هذا البلد في حالة انكماش!!.

وكوني لقيطة لا يعني أبدا أن مشكلتي هي فقط عدم وجود أب أو أم بالنسبة لي.. فمشاكلي كثيرة جدا قد لا يتخيلها أحد منكم.. ربما أبسطها هو عدم وجود صور لي في طفولتي!!.. فصور الطفولة تخبرك أهم الأشياء عنك.. تخبرك أنك كنت موجودا في الماضي في تلك الأيام السعيدة.. وأن هناك من كان يهتم لأمرك بصورة كافية كي يلتقط لك صورا في أوضاع مختلفة عند أفضل محلات التصوير.. حتى ترى تلك الصور حين تكبر.. وتعرف كيف كان والديك يهتمان بك.. من المرجح أن أمرا كهذا يبدو تافها بالنسبة لكم ولا معنى له..

لكنه بالنسبة لي شيئا أدفع عمري كله للحصول عليه!!.. ولا تسألوني لماذا لم يلتقط لي المسئولون على تربيتي أي صور في طفولتي.. فالجواب واضح: لا أحد يأخذ صورا لأشياء يكرهها ويريد نسيانها!!.

إن حياتي هي في الواقع حقل ألغام أعبره وحدي كل يوم.. وعندما يأتي الليل وأتدثر تحت اللحاف.. تنفجر كل الألغام دموعا في عيني!!.. ولا أسمع سوى صوت دقات قلبي.. وأشعر ببرودة شديدة لا يدفئني فيها سوى حرارة دموعي وهي تنسل على خدي وأنا تحت اللحاف.. فأحتضن دميتي المسكينة وأشعر بأنني أصرخ بكل قوتي.. إلا أن جدران نفسي مبطنة عازلة للصوت!!.. فلا يسمع صرخاتي سواي.. ولا يرى دموعي سوى دميتي.. ولا يتبقى لي بعد كل هذا سوى شيء واحد.. الوحدة.. ذلك الكائن الذي يأكل منك!!.. يأكل من حلمك.. من حبك.. من عمرك..

كل هذا يجعلني أذوب بكل كياني في عالم أحلام اليقظة!!.. فأعيش قصة حب وهمية مع فتى الأحلام.. أعيشها كل ليلة تحت اللحاف.. فأبكي وأنا أتحدث إليه في خيالي.. أدعوه أن يأتي وينقذني من هذا العالم القاسي الذي أعيش فيه دون أي قريب.. من هو فتى الأحلام؟ ؟!.. لا أعرف!!.. أنني أحلم به وحسب.. نعم.. إنها أحلام وردية.. وتعلمون طبعا أن الأحلام الوردية ليست سوى فقاقيع صابون نصنعها بأنفسنا.. جميلة لطيفة تعكس ألوانا شتى.. لكنها لا تلبث أن تتلاشى

لنصطدم مرة أخرى بالواقع.. والواقع هو الذي أعيشه كل يوم.. منذ الاستيقاظ من النوم وحتى العودة إلى الفراش!!.. حيث أعود مجددا إلى عالم الأحلام الوردية.. وهكذا!!.

طالما دعوت ربي أن يجعلني طائرا صغيرا كي أستطيع أن أطير وأهرب من هذا العالم.. وطالما حلمت بفقدان خاصيتي المادية والسفر بين الكواكب والنجوم ورؤية روعة الكون وكشف أسراره.. أو العثور على سفينة فضائية أركبها وحدي لأجوب الكون بحثا عن السكينة مبتعدة عن الواقع المرير الذي يقسو علي أيما قسوة!!.. قد تقولون أن كلامي هذا لا يحدث إلا في عالم ألف ليلة وليلة.. أقول لكم: نعم.. أنا من عالم ألف ليلة وليلة.. أريد أن يأتي (الشاطر حسن) أو (علي بابا) ويخطفني على حصان أبيض ويطير بي!!.. هذه أحلامي وهي كل ما أملك لأنني -في واقع الأمر-لا أعتقد أنني سأجد فتى الأحلام يوما.

وحتى لو تزوجت أفضل الرجال وأطيبهم.. فلا شك أنه سيجد صعوبة شديدة في التعامل معي كفتاة لقيطة!!.. تصوروا لو أنني أجلس مع زوجي.. ويدور بيننا حديث ودي.. أليس من الطبيعي أن يقول لي (يا بنت الحلال) ؟!.. إن هذه الجملة كفيلة بأن تجعل كل حياتي تقف أمامي مرة واحدة بحقيقتها المؤلمة.

وعلى كل حال.. هناك نصيحة أقولها لكل فتاة.. وليست للقيطات فحسب: لا تتزوجي أحدا لأنه فرش لك الأرض وردا أو أغرقك في العطور.. لأن الورد سوف يذبل.. والعطور سوف تتلاشى!!.. والموسيقى سوف تصبح صدى.. تذكري أنك تعيشين في الشرق.. حيث المرأة التي تلتفت فيه فاسدة.. وإن ابتسمت فهي منحرفة.. وإن مشت في الطريق فهي عاهرة.. بينما خطيئة الولد قد تجعل منه رجلا في عيني أبيه!!.

تقولون أن بعض الرجال صادقين؟!.. أقول: وكيف تعرفون هذا؟!.. كيف تميزون الصادق منهم؟!.. أي رجل يستطيع أن يكون صادقا.. كل ما عليه هو أن يرفع حاجبيه ويسبل عينيه.. ويبكي عندما يتحدث إليكن عبر الهاتف!!.

نسيت أن أخبركم بأنني طالبة في كلية الهندسة.. متفوقة جدا في دراستي لأنني أعرف تماما -منذ طفولتي-أن شهادتي هي الصديق الوحيد الذي أستطيع أن أثق به دون شك.. لذا فطموحي الدراسي لا حدود له إطلاقا.

أذهب يوميا إلى الكلية حيث أنظر إلى جميع الناس وأحسدهم على الحياة التي يعيشونها.. كل منهم لديه من ينتظره عندما يعود إلى البيت.. فكنت أنظر إلى الجميع وأتخيل نفسي جهاز كمبيوتر وأقول: رجاء الانتظار.. جاري تحميل الحسد... تم الحسد 100%!!.. نعم.. أحسد الناس كل دقيقة على النعمة التي لا يشعرون بوجودها أبدا!!.. نعمة معرفة أهلك ووالديك.. لذا فقد اخترت حياة العزلة في الجامعة.. ولم يعرف أحد بالطبع أنني لقيطة.. فهو سر تقوم إدارة الجامعة بعمل جيد للحفاظ عليه.. وأقوم أنا أيضا بالحفاظ عليه فلا أبوح به لأحد على الإطلاق.. والسبب هو نظرة المجتمع العربي عموما لفتاة وحيدة لقيطة مثلي.. لذا فأنا أعامل الناس جميعا كما يجب أن نعامل الوحوش.. أي أنني أتجنب تماما أن أثبت عيني في أعينهم أو أن أنظر إليهم!!.. إن تثبيت العينين بالنسبة لوحوش الغابة علامة عدائية لا شك فيها.. ومن الوارد أن تهاجمك في أي لحظة.. هذه هي نظرتي للناس.. وحوش من الممكن أن تهاجمني في أي لحظة.

وهكذا أمضي وقتي في المحاضرات.. لأعود بعدها إلى سكن دور الرعاية الاجتماعية حيث أعيش.. فلا أفعل شيئا سوى الدراسة ومشاهدة التلفزيون ثم دفن نفسي كل يوم في ذلك السرير الذي

أصبح قبري اليومي!!.. وإن كنتم في سن المراهقة مثلي فأنتم تعلمون دون شك أن رأس المراهق أصغر مما يعتمل فيه من أفكار.. وقلبه أصغر من العواطف المتفجرة داخله.. والحزن الذي يعيشه كثير جدا على جسده الصغير النصف ناضج!!.. حقا لو كنت مؤمنة بتناسخ الأرواح لاعتقدت أن روحي ستحل في وردة بيضاء بعد موتي.

المعذرة!!.. لقد نسيت أن أصف لكم نفسي.. فهذا من حق القارئ الذي لا يستطيع أن يراني بطبيعة الحال.. حسنا.. إنني جميلة.. جميلة جدا.. ليس هذا غرورا على الإطلاق.. فقط اسألوا من تريدون في الكلية.. فهناك ستجدون عيون الشباب تتسلل إلى ملابسي وإلى شعري وجسدي.. وأنا لست من الفتيات اللاتي لو مشين في الشارع فيعتبرن أن كل من يعطس أو يكح يغازلهن!!.. فأنا جميلة بالفعل!!.. ولا ينكر هذا إلا أعمى.. أصابعي رقيقة ناعمة وكأنها أصابع موسيقار أو رسام!!.. أو مثل أصابع (كليوباترا) الحريرية التي كانت تغمسها دائما في كوب من اللبن.. كما أنني نحيفة الجسد.. بيضاء البشرة.. أملك شعرا طويلا نسبيا يصل إلى أسفل ظهري.. وأنفا جميلا يشبه أنف (جينيفير لارسون).. من هي (جينيفر لارسون)؟ ؟!.. لا أعرف!!!.. ولكن فتاة تحمل هذا الاسم لابد أن يكون أنفها جميلا جدا!!..

ورغم هذا الجمال الأخاذ ورقتي الشديدة إلا أن ثقتي في نفسي معدومة تماما.. بل ولم أعرف أنني جميلة إلا بسبب نظرات الناس لي!!.

مهلا.. نسيت أن أخبركم بأمر مهم جدا.. أنا فتاة هشة إلى حد مخيف.. فالواقع أنني مصابة بمرض نادر في القلب جعلني غير قادرة على مواجهة أي انفعالات.. فأفقد الوعي عند إخافتي.. أفقد الوعي عندما أجوع.. أفقد الوعي عندما ينبح الكلب.. أفقد الوعي عندما أنفعل.. أفقد الوعي عندما لا أجد شيئا آخر أفعله!!.. لكم أن تتخيلوا صعوبة الحياة التي أعيشها.

وهذا على كل حال أمر طبيعي جدا.. فالناس الطيبون البسطاء فقط من يصابون بالأمراض الخطيرة كالقلب والقرحة لأنهم لا يستطيعون العيش في هذا العالم القاسي.. هناك بعض الأثرياء المرضى أيضا.. لأنهم يفكرون طوال الوقت بجني المال!!.. لا أعرف من الأحمق الذي قال أن الحياة قصيرة.. إنها طويلة.. طويلة جدا ومرهقة!!.

أعتذر لهذه الإطالة.. لكنها ضرورية جدا لمعرفة الواجهة الخلفية لقصتي.. كيف بدأت قصتي؟!.. بدأت في الكلية.. إنه قانون غير مكتوب لجميع القصص التي يكون أبطالها طلبة في الجامعة!!.. كنت في طريقي إلى سيارة (دار الرعاية الاجتماعية) بعد الانتهاء من المحاضرات في يوم مرهق.. عندما سمعت صوتا يأتي من خلفي ليقول:

-ربما هي موضة جديدة!!!.

فهمت المقصود.. وبسرعة نظرت إلى حذائي.. فوجدت أنني قد ارتديت فردتين مختلفتين وإن كانتا من لون واحد!!.. فنظرت ورائي في غيظ.. وإذا به يقترب مني قائلا بجدية وبشيء من الحرج:

-أعتذر.. لم أقصد السخرية إطلاقا.. فأنا بالفعل لا أستبعد أن تكون موضة.. فالموضة غريبة جدا هذه الأيام ولا منطق لها!!..

كان هذا أحد أساتذة مادة الفيزياء في الجامعة.. رجل في أوائل الخمسينيات ملأ الشيب شعره.. وسيما راقيا ليست له أعماق كما بدا لي.. ويملك بنية جسمانية سليمة لا تتناسب أبدا مع سنه!!.. له وجه مريح يحمل كبرياء العلم وخطورته ونظرة مرهقة هادئة بنفس الوقت تذكرك برجل أعمال

عصامي.. أو ربما عالم.. خاصة مع نظاراته الطبية الأنيقة.. كان واضحا أنه يتحدى الزمن والشيخوخة.. و.. قطع الدكتور تلك الخواطر وهو يقول بابتسامة هادئة:

-أعتقد أنك نسيتي دفترك في الكافتيريا.. لقد وجدته هناك.. واسمك مكتوبا عليه.. أنا أتذكرك جيدا.. لأن اسمك لا ينسى..

نظرت إلى الدكتور بحذر.. ثم ألقيت نظرة على الدفتر.. فوجدت اسمي عليه بالفعل.. لكن.. مططت شفتي باستغراب قائلة:

-الدفتر ليس لي.. أنا واثقة من هذا.. بل إن الخط ليس خط يدي..

غمغم باستغراب:

-من الطريف أن تكون لدينا طالبة تحمل نفس اسمك.. على كل حال.. سأعثر عليها.. ولكن أشك أن تكون رائعة مثلك!!..

نظرت إليه بخجل شديد.. لم أغضب أو أتهمه بيني وبين نفسي بقلة الأدب.. بل فرحت في واقع الأمر لهذا الإطراء.. وهو شعور طبيعي تشعر به أي فتاة في مكاني!!.. و.. كانت هذه هي البداية الحقيقية للقصة.. فبعد هذه الحادثة الصغيرة.. كسب الدكتور أرضا وأصبح من حقه أن يلقي علي التحية كلما يراني.. إلى أن دعاني ذات يوم لزيارته في مكتبه لشرب فنجانا من القهوة.. أرجوكم لا تسألوني لماذا قبلت الدعوة؟!.. جميعنا نتصرف أحيانا دون أن نفكر.. وهذا ما حدث معي تماما.. إذ لم أجد ما يمنع من تلبية دعوته.. ففي اليوم التالي مباشرة.. وجدت نفسي في مكتبه!!.. كانت زيارة خجولة مترددة في باديء الأمر.. سرعان ما عشت أجوائها.. حيث تحدثنا فيها عن أمور كثيرة متنوعة.. وأنا في واقع الأمر فتاة رزينة أعرف ما أتحدث عنه جيدا ولي آراء لا بأس بها في الحياة.. هذه حقيقة لا مكابرة فيها.

وخلال أيام قليلة.. أصبحت زياراتي للدكتور اعتيادية.. فقد كان لطيفا ظريفا.. ولديه حكايات رائعة لا تنتهي.. وكان رجل علم بحق.. يعشق تخصصه الفيزيائي.. وله أبحاث ودراسات لم ينشرها أبدا.. بل يقوم بها رغبة في العلم فقط.. والرجولة بالنسبة له -كما يقول- ليست صوتا جهوريا وشاربا كثا وتقطيبا على الجبين.. الرجولة هي أن تتحكم برغباتك لا أن تتحكم بك رغباتك!!.. الرجولة هي أن يكون لك هدفا ساميا في حياتك.. وكان هذا رائعا.. فهذا رأيي تماما في مفاهيم الرجولة!!..

لقد كان أيضا دقيق الملاحظة.. إذ ينتبه عندما أغير تسريحة شعري.. ويعرف الألوان التي أحبها.. بل ويحفظ حتى أسماء العطور التي أضعها!!.. حتى شعرت معه بأمان تحلم به أي فتاة.. فقد كان رجلا بحق.. لا يجري أبدا وراء نزواته.. ولا ينظر إلي تلك النظرات التحتية التي تحمل أفكارا سوداء غير قابلة للنشر!!.. كما كان يعامل الجميع من طلبة وطالبات باحترام دون تفرقة.

استمرت صداقتنا -أو فلنقل زياراتي المتكررة له- قرابة الشهرين.. إلى أن جاء اليوم الذي لم أتوقعه إطلاقا!!.. عندما كنت جالسة في مكتبه.. حيث سألني دون أي مقدمات وهو ينظر إلي بثبات:

-(لينا).. هل تقبلين الزواج مني؟!..

يقولون أن الفتاة دائما ما ترتبك حين يطرح عليها هذا السؤال!!.. ولكن.. لماذا لم يحدث هذا معي؟!.. لا أعرف!!.. إذ لم أرتبك على الإطلاق.. ولم تحمر وجنتاي كما يحدث مع جميع الفتيات!!.. ربما لأن المفاجأة كانت قوية بحق.. قوية إلى درجة أنها شلتني تماما!!.. فتجمدت

ملامحي وعجزت عن اتخاذ أي رد فعل!!.. فهذا الرجل في أعلى السلم الاجتماعي.. أما أنا فلن أقول أنني في أسفله.. ولكن.. لنقل أنني أعرف وضعي جيدا.. آه.. ربما لا يعرف شيئا عن وضعي الاجتماعي.. لكنه قطع حبل أفكاري وكأنه قرأها:

-أنا أعرف كل شيء عنك.. أعرف أنك.. احم.. احم.. احم.. لقيطة.. معذرة لكني لا أعرف مصطلح آخر غير هذا لمن هم في مثل حالتك..

سكت للحظة ثم قال بحزم:

- وهذا لا يهمني إطلاقا.. أعرف أنك فتاة رائعة.. أعرف أنك متفوقة.. لقد سألت كثيرا عنك ووجدتك أنسب زوجة لي.. وأتمنى أن أكون زوجا مناسبا رغم فارق السن الواضح بيننا!!.. بالمناسبة.. أنا لم أتزوج من قبل.. فقد سرقني العلم من كل شيء.. حتى من حياتي الاجتماعية.. لكني شعرت بانجذاب شديد نحوك وشعرت أيضا بأن يجب أن ألتفت لنفسي أخيرا.. هه.. ما رأيك؟!.

نظرت له في حيرة شديدة وقد أخرستني المفاجأة تماما.. أنا التي قمت ببناء جدار ضخم من الثلج حول قلبي.. كيف سأجعل هذا الجدار يذوب؟!.. أنا.. أنا لم أفكر أبدا باليوم الذي سأتزوج فيه.. فحتى قصص الحب التي أعيشها خيالية تماما ولا ترتبط في الواقع بصلة!!.. أنا ضد مبدأ الزواج أصلا.. وأفضل دائما أن أعيش في قصص الحب الخيالية!!.. فالحب أمتع وأجمل كثيرا من الزواج.. بل إن جميع قصص الحب التي انتهت بفراق الحبيبين مخلدة لا ينساها أحد.. بينما -بالمقابل-جميع قصص الحب في التاريخ التي تنتهي بالزواج لا نذكر عنها شيئا!!..

قطعت أخيرا تلك الخواطر.. ووجدت نفسي أقول بحزم شديد:

-إنني أرفض الزواج منك يا دكتور!!!.. المعذرة ولكن.. أعتقد أنك تعاني حاليا من مشاكل وظروف معينة تحتاج فيها إلى فتاة تقف إلى جوارك.. فكم رجل تعرف على فتاة في ظروف محددة.. فأحبها وتزوجها.. وعندما انتهت ظروفه.. عاد إلى رشده.. واكتشف أن ظروفه خدعته؟؟!!.. كما أنني.. كما أنني بصراحة لا أريدك أن تتعذب بسبب مشاكلي وعقدي النفسية؟!.

قال بثقة:

-أولا أنا لا أعاني من أي ظروف أو مشاكل كما تقولين.. كما أنني أفهم مشاعرك ومشاكلك تماما.. لكني أحبك يا (لينا)!!.. أحبك حبا حقيقيا عذبا ولا يهمني كونك لقيطة.. فمن الوحل تنبت أجمل الفواكه يا عزيزتي!!!..

شعرت بأن كلامه رائعا يوحي بالاحترام والثقة.. بينما أنا أبدو كالجرادة بالنسبة إليه!!.. ولكن مع ذلك.. قلت له بصدق:

-دكتور.. المرأة دائما عندها شعور بعدم الأمان.. لذا فهي في حاجة دائمة إلى أن يؤكد لها الرجل هذا المعنى.. معنى الشعور بالأمان.. ربما تكون الفتاة تافهة أو طفلة.. ولكن هذه الطفلة تريد دائما أن تجد حضنا دافئا.. وأنا أريد هذا الشعور بالأمان بشكل مبالغ فيه إلى درجة قد تجعلني عاجزة عن تقديم أي شيء لك!!.. ثم إن الطير قد يقع في غرام سمكة.. ولكن أين سيبنيان عش الزوجية؟ ؟!..

رد بثبات:

-سأتكيف في الحياة معك في الماء مثلما تكيف الحوت مع الحياة المائية ([3])!!.

قلت بتخاذل شديد أمام ردوده الذكية:

- كيف؟!.. كيف ستبني بيت الزوجية على هذه الرمال المتحركة التي تبتلع كل شيء؟!.. ثم إن الحب مسؤولية عظيمة.. وأنا لم أعتد أبدا أن...

قاطعني بحنان وهو يشير بيده إلي كي أهدأ:

- الحب هبة إلهية وليس مسؤولية.. وأنا أحبك بصدق يا (لينا).. وسأكون صريحا معك.. إذا تزوجتك.. فهي خيانة لأفراد عائلتي الذين لن يقبلوا بهذا الزواج.. ولكن إن ابتعدت عنك فهي خيانة لقلبي!!.. وأنا لا أخون قلبي أبدا..

أحسست بالدمعة تتسلل على خدي.. فلم أتعب نفسي بمحاولة مسحها.. نظر إلي بحنان جارف.. ثم أردف قائلا:

-الحقيقة التي يجهلها الناس هي أن الإنسان يملك قلبا واحدا فقط.. لذا يجب أن يكون مخلصا له.. حقيقة بسيطة لا ينتبه إليها أحد مع الأسف.. وأنا مخلص لقلبي ولن أخونه بسبب وضعك الاجتماعي الذي لا ذنب لك فيه.. ثم إنك يا عزيزتي كالجوهرة.. لا يمكن أن أصنعها بنفسي.. إنما أجدها بعد فترة طويلة من البحث.. وها قد وجدتك.. فأرجوك لا ترفضي طلبي!!.

وأمام دموعي.. قال بحنان بالغ:

-المشكلة الوحيدة أنني كبير في السن بالنسبة إليك..

قلت له مبتسمة وأنا أمسح دموعي:

-لا يهم.. فأنا أحب أن أجمع الأنتيك!!.. كما أنه لا يهمني العمر.. ولا أحب أن أسأل أحدا عن عمره.. أنت كبير في السن بقدر ما تشعر!!..

ثم أردفت بأسى:

-العثور على فتى الأحلام في (الكويت) أمر عسير جدا.. فالشباب لا يعرفون ما يريدون.. أحيانا تجدهم يبحثون عن الحب.. وأحيانا أخرى يريدون أن يكونوا زير نساء يعيشون كل أسبوع على أحلام فتاة!!.

و.. كانت هي البداية.. البداية فحسب.. وكما ترون فإن كل شيء فيها يبشر بزواج سعيد!!.. أين ذهب كل كلامي السابق عن كراهيتي للزواج؟!.. أين ذهبت نصائحي لكل الفتيات؟!.. لا أدري.. ما زلت غير مصدقة حتى الآن أنني تنازلت عن كل ما أؤمن به بهذه السهولة.. وما زلت أجهل أي شيطان كان يحركني.. جميعنا نتصرف دون تفكير أحيانا ونفعل أشياء نندم عليها كثيرا فيما بعد.. ولا نصدق أننا فعلناها!!.

المهم أننا تزوجنا أخيرا!!.. وتم كل شيء بسرعة في حفل بسيط جدا وبوجود اثنان من أقرب أصدقائه مع أحد مشرفي دور الرعاية الاجتماعية بالطبع كممثل لولي أمري!!.. لم يخبر زوجي أهله في بادئ الأمر.. لكنه وعدني بأنه سيخبرهم بعد زواجنا بشهور قليلة بعد أن نستقر في عش الزوجية.. لا.. لم يكن زواجنا عرفيا كما قد يظن البعض.. بل زواجا حقيقيا تماما!!.. وقد عرفت أن زوجي إنسان مستقل تماما في حياته ويملك ثروة لا بأس بها على الإطلاق ورثها من والده.. لذا فإن موافقة أشقائه أو رفضهم لن تغير من الأمر شيئا.. لكنه -رغم ذلك- فضل الانتظار قليلا حتى

يختار الوقت الذي يراه مناسبا لإبلاغهم.

مضت أيامنا الأولى وكأنها حلم.. خاصة وأنه كان زوجا حنونا.. حنونا إلى حد لا يوصف!!.. إذ لم يكن يتركني على الإطلاق في شهر العسل الذي قضيناه في (الكويت) في فيلته في منطقة (مشرف).. وهي الفيلا التي نجلس فيها الآن.. حيث كان يقيم فيها وحيدا قبل الزواج ولم يكن لديه أي خدم.. إذ كان يكتفي بالخادمة الموجودة لدي والدته والتي تأتي إلى البيت مرة أو مرتين في الأسبوع لتنظيفه.

لقد كان يرعاني بحب حقيقي.. حتى كدت أن أطلب منه -من فرط رعايته لي-أن يغطيني في السرير كل ليلة ويحكي لي حكاية قبل النوم!!.. كنت أرضى أن أكون كل شيء بالنسبة له.. قطعة أثاث.. أو حتى مخدة ناعمة دافئة.. وكان هو بدوره يتفنن في إرضائي إذا أغضبني.. فيقبل يدي ورأسي وقدمي.. ويقول لي:

-أرجوك سامحيني.. أنا أحبك وغارق في حبك والذي يغرق في الحب يخطئ.. أنت سامحت كثيرا.. فسامحيني هذه المرة أيضا!!!.

لقد أحببته بحق.. وشعرت أن الله سبحانه وتعالى يعوضني أخيرا بزوج وأب وصديق بعد سنوات من الوحدة وسجن دار الرعاية الاجتماعية.. كما عرفت أن زوجي كنز حقيقي من المعرفة!!.. بل إن لديه مكتبة ضخمة في أكبر غرفة في المنزل وهي غرفة المكتب.. حتى لتضطر أن تضع سلما للوصول إلى الرف الأعلى للكتب كما نرى في بعض الأفلام العربية القديمة.. وهذا من دون أي مبالغة!!.

وكان الأمر الوحيد الذي يضايقني نوعا ما هو قضاؤه بضع ساعات كل يوم في غرفة المكتب للقراءة ولكتابة بعض البحوث.. فكان يطلب مني بحزم رقيق أن أتركه وحده في تلك الساعات القليلة.. ولم أكن لأرفض طلبه هذا رغم أنه ضايقني نوعا ما كما أخبرتكم!!.

وهكذا استمر زواجنا هادئا جميلا شهرا كاملا وكأنه حلم لا أريد الاستيقاظ منه.. ماذا؟!.. بالطبع لم تنته القصة عند هذا الحد.. وإلا لأصبحت الحياة رائعة!!.. فالكوابيس قادمة.. وأرجوكم تذكروا أن حتى الأجزاء المستحيلة من هذه القصة قد حدثت بالفعل!!.. متى شعرت أن هناك شيئا ليس على ما يرام؟!.. لا أذكر اليوم.. ولكن أذكر الحادثة جيدا ولا يمكن أن أنساها.. لأنني شعرت يومها أن قلبي سيتوقف لا محالة من شدة الرعب!!..

كانت أسعد لحظات الحياة الزوجية عندما نجلس متجاورين في الفراش مع ضوء الغرفة الخافت جدا.. وصوت (لورينا ماكينيت) الرائع ينبعث من جهاز التسجيل في الغرفة ليخلق حلما ورديا جميلا.. لكنه -ككل الأحلام الجميلة -لا بد وأن ينتهي!!.. كيف انتهى هذا الحلم؟ ؟!.. لا يمكن أن تصدقوا أبدا ما حدث.. ففي أثناء جلوسنا على الفراش نتبادل أحاديث الحب والغرام.. خيل إلي أن ذراع زوجي التي تلمسني قد بردت فجأة!!.. أو سرت فيها رعدة خفيفة.. فسألته بقلق وأنا أنظر إليه:

-ماذا أصابك يا حبيبي؟؟!!..

في لحظة سؤالي انتبهت إلى ذلك الصوت!!.. هل هو صوت الحفيف.. أم الفحيح؟ !!.. لا أعرف الفارق.. ولكن الصوت الذي سمعته تنطبق عليه إحدى الكلمتين!!.. صوت مجهول المصدر لا يريح النفس كثيرا.. و.. أجابني زوجي أخيرا بهدوء عجيب وهو يضغط على أسنانه:

-لا تتحركي يا عزيزتي.. لا تقومي بأي تصرف مفاجئ.. فهناك ثعبان يزحف فوق غطاء الفراش متجهاً إلينا!!!!!!..

لا يمكنكم أن تتصوروا مدى الذهول والرعب اللذين شعرت بهما!!!.. والمفاجأة التي شلتني تماما!!!.. كانت بالفعل كوبرا مخيفة بشعة جدا.. ككل الثعابين عموما.. يا للهول.. ما زلت أرتجف من هول الموقف كلما أتذكره!!.. لقد شعرت بجفاف مفاجئ في حلقي.. وبرودة شديدة في أطرافي!!.. هل.. هل سأصاب بنوبة قلبية؟ ؟!.. لا أعلم.. تعرفون جيدا المشكلة التي يعاني منها قلبي!!.. إنه لا يتحمل صدمات كهذه.. ثعبان في بيت في منطقة (مشرف)؟ ؟!.. وعلى فراشي؟ ؟!.. أمر لا يصدقه عقل.. لا يصدقه عقل!!..

قال زوجي بتوتر شديد:

-التزمي الصمت والهدوء يا عزيزتي إلى أن نفكر في الخطوة التالية.

قلت له بخفوت شديد.. وكل ذرة في جسدي ترتجف:

-ولكن.. ولكن.. هذه الكوبرا تزحف بيننا.. س.. س.. ستصل إلينا بعد لحظات ق.. قليلة!!.

قال بتوتر.. ويده الممسكة بي ترتجف بقوة:

-الصمت يا (لينا).. أرجوك الصمت!!..

لا داعي لذكر أن كل اضطرابات القلب الموجودة في تاريخ الطب شعرت بها!!.. ضربات زائدة!!.. تسارع فوق بطيني!!.. إيقاع جيبي!!.. إيقاع عقدي!!.. إلخ.. ورحت أعتصر الوسادة الموجودة خلفي بيدي وبكل قوتي دون أن أشعر!!.. إن الخوف من الثعابين هو (فوبيا) لا تفسير لها أبدا!!.. والمكان الذي زحف عليه الثعبان يصبح ملوثا إلى الأبد.. ولا يهم إن كان الثعبان ساما أم لا.. جميع الثعابين تثير الهلع والاشمئزاز!!.. إنني أكره مشاهدتها حتى في التلفزيون!!.. كل ما يتعلق بهذا الكائن منفر وبشع وبغيض.

لم أكن أشعر بالخوف.. بل الهلع!!.. والفارق بينهما أن الهلع هو درجة الخوف التي توقف العقل وتسلبه القدرة على الاستيعاب!!.. المشكلة أن الهلع يتطلب الكثير من الصراخ والجري المجنون.. وأنا عاجزة عن فعل كل هذا.. تخيلوا موقفي!!.. حقيقة لا أعرف لماذا لم يتوقف قلبي من شدة الرعب!!.. هذا لغز لم أفهمه أبدا.. هل هي العناية الإلهية؟؟!!.. ربما.. كانت الكوبرا تتجه إلينا ببطء شديد جدا!!.. ويبدو أننا لعبنا دورا جيدا في الهدوء وعدم استفزازها.. فالثعابين لا تهاجم عادة إلا إذا شعرت بخطر.. هذه حقيقة نعرفها جميعا.

أرى زوجي يرفع اللحاف الذي كنا متدثرين به.. يرفعه ببطء وحذر شديدين.. عندها فقط انتصبت الكوبرا!!.. وتحفزت للانقضاض.. وزوجي يواصل رفع اللحاف ببطء شديد..

حقيقة لا أعرف كيف فعلها.. فعلها بجرأة يحسد عليها بالفعل!!.. بل وتأكدت بعدها أن زوجي يمتلك قلبا من الفولاذ لحسن حظي وحظه!!.. ففي اللحظة التي تحفزت فيها الكوبرا.. ألقى زوجي اللحاف عليها بسرعة رهيبة ودفعني لأسقط من على الفراش وقفز هو في الناحية الأخرى!!.. تماما كما يحدث في الأفلام الأجنبية عندما يفتح البطل باب سيارته ويقفز منها.. في حين تقفز حبيبته من الناحية الأخرى قبل أن تقع السيارة في الوادي!!.. أما الكوبرا فقد أصبحت تحت الغطاء تتلوى بقسوة محاولة الخروج!!.. فذهب زوجي مسرعا إلى تمثال من النحاس اشتراه كتذكار من (هولندا) كما أخبرني فيما بعد.. وهوى بالتمثال على الكوبرا بكل قوته عدة مرات!!.. إلى أن همدت حركتها

تماما!!.

تجمدنا في مكاننا للحظات بدت لي دهرا!!.. وساد المكان صمت رهيب قبل أن أطلق أخيرا الصرخة المحتبسة في حلقي!!!.. لم أكن أتصور أبدا أنني قادرة على إطلاق صرخة كتلك!!.. صرخة رعب هائلة حتى أن صوتي ظل مبحوحا بعدها لبضعة أيام.. ثم راح صدري يعلو ويهبط بقوة.. إلى أن جاءت تلك اللحظة!!.. وقعت على الأرض من شدة الإنهاك وشعرت بأن قلبي سيتوقف!!.. أكره تلك النوبات!!.. إنها تصيبني كلما تعرضت لموقف مخيف أو انفعال زائد.

قمت بعدها ألهث بقوة.. فركض زوجي إلي وهو يصرخ بهلع:

-هل أنت بخير يا حبيبتي؟!.. هل آخذك إلى المستشفى؟!.. نظرت إليه بعينين متعبتين!!.. أيها الحبيب.. كل هذا من أجلي؟!.. وجدت نفسي أتحسن تلقائيا بسبب خوفه الشديد علي!!.. وشيئا فشيئا بدأت أشعر بتحسن بالفعل.. قام زوجي بعدها بجلب أقراص القلب التي لا أتخلى عنها أبدا.. أمسك بقرصين ووضعهما في فمي.. ثم كوب من الماء.. و.. أمسكت بيديه بقوة وأنا أقول بابتسامة منهكة:

-لا تخش علي يا حبيبي.. سأغدو بحال أفضل.. أحتاج فقط إلى الاسترخاء.

شعرت بتحسن كبير بعدها ببضع دقائق.. وقبل أن نتحدث أو نفعل أي شيء.. قام زوجي بلف اللحاف الذي يحوي الأفعى وخرج به إلى حاوية القمامة الموجودة خارج البيت.. وألقى به هناك!!..

عبثا حاولنا بعدها تفسير الأمر دون أن نصل إلى شيء!!.. فكيف نستطيع تفسير وجود كوبرا في بيت في (الكويت)؟؟؟!.. وعلى فراشنا؟ ؟!.. وبالطبع لم ننم ليلتها.. فقد قمنا بتفتيش كل المخابئ في غرفة النوم وفي البيت.. فتشنا كل شيء له جيب!!.. ثيابي وثياب زوجي.. بحثنا بكل عناية وحذر.. فوجدنا أشياء صغيرة كثيرة كإيصالات كهرباء وفواتير قديمة تخص زوجي.. وجدت كذلك صور عائلية قديمة جدا له ولأخوته.. الخلاصة أنها عملية بحث أفادته كثيرا في العثور على العديد من الأشياء المفقودة.. لكن لم نعثر على أي ثعابين لحسن الحظ!!.. نتصل بالشرطة؟!.. وماذا سيفعلون؟!.. لقد زال الخطر تماما!!.. ولكن لم يزل ذهولنا على الإطلاق من تلك الحادثة العجيبة التي لا يمكن لأحد أن يفسرها!!.. ظللنا نفكر ونفكر محاولين تفسير كيفية وصول أفعى إلى هذا المكان.. وقد أعطاني زوجي تفسيرا قد يكون مقنعا عندما قال:

- ربما كانت تلك الكوبرا لأحد الجيران الذين يحبون اقتناء الحيوانات والزواحف الغريبة!!.. فتسللت من قفصها إلى الخارج ووصلت إلينا!!.. إن الأفاعي والثعابين قادرة على الوصول لأي مكان على حد علمي..

كلامه منطقيا إلى حد ما.. ربما هذا ما حدث بالفعل.. وقد عرفت فيما بعد أن هناك فارقا بين الأفاعي والثعابين.. والفارق بين الكائنين بسيط لا يعرفه إلا المختصون.. فالأفاعي لها أنياب عليا متحركة تنثني للوراء عند إغلاق الفك!!.. بينما نابا الثعبان لا ينثنيان.. ولهذا يكون ناباه أقصر نوعا ما ليتمكن من إغلاق فمه ([4]).. ولكن هذا ليس موضوعنا هنا.

وطبعا لم تنته القصة بهذه البساطة!!.. فلا ننسى أبدا ذلك الشعور المعتاد لكل المشاعر الهستيرية المصاحبة للأفاعي.. كالشعور المعروف بأن البيت لن ينظف أبدا.. وأن أفعى أخرى ستظهر في أي لحظة!!..

لقد طلبت ليلتها من زوجي أن ننام في غرفة أخرى.. ولكن هذا لم يكف لنسيان ما حدث بكل تأكيد.. فقد قضيت ساعات طويلة مستيقظة وأنا مندسة تحت اللحاف ملتصقة بزوجي وأرتجف بقوة!!.. شعور غريب هو مزيج من الخوف والاشمئزاز.. ولكن.. عندما يتسلل النعاس إلى أقوى الجفون فسينهكها بالتأكيد ويجعلها تزن أطنانا.. و(الفسيولوجيا) أقوى من الخوف كما تعلمون.. على الأقل بالنسبة للضعفاء مثلي!!.. وبالفعل!!.. انتصرت (الفسيولوجيا) على خوفي أخيرا ونمت تلك الليلة ملتصقة بزوجي الذي بدا متماسكا إلى درجة أحسده عليها!!..

لم يكن نومي هانئا بالطبع.. فقد حلمت بثعابين تزحف على جسدي وتريد أن تلتهمني!!.. لأنهض بعدها صارخة من الفراش!!.. ويهرع زوجي في الظلام إلى المطبخ ليجلب لي كوبا من الماء فأجرعه.. ثم يحتضنني بحب وحنان ويمسح العرق من على جبيني!!.. لحسن الحظ كنا في فترة الصيف.. حيث قرر فيها زوجي أن يعتذر عن التدريس حتى يتفرغ لي تماما.. لذا فقد كان بجواري طوال الوقت ولم يتركني إطلاقا!!..

لقد قضيت أسبوعا كاملا أتلفت يمينا ويسارا.. أنام وجسدي بالكامل تحت اللحاف ملتصقة بزوجي تماما!!.. ولم نعد إلى غرفة النوم إلا بعد أسبوع وبعد أن قمنا بتنظيف الغرفة تماما وتبديل الأغطية واللحاف والوسادة علّنا ننسى ذلك الحادث الغريب المخيف!!..

وبالفعل.. فقد نسيت تلك الحادثة بسرعة بسبب حادثة أخرى أشد رعبا وغرابة!!!.. حتى شعرت أنني على موعد مع أيام غريبة.. أيام مع الخوف!!!.

كنا نائمين في تلك الليلة بعد يوم هادئ لم نخرج فيه من البيت على الإطلاق.. بل قضينا الوقت في مشاهدة قنوات الأفلام.. وطلبنا وجبتي الغداء والعشاء من أحد المطاعم.. يومها ذهبت إلى النوم في وقت متأخر!!.. في حين ظل زوجي في غرفة المعيشة يقرأ قليلا!!.. وسرعان ما غبت في الظلام المقدس.. الظلام الذي نراه في أرحام أمهاتنا.. وبدأت الأحلام تختلط بالواقع.. ثم جاءت لحظة غريبة جدا أثناء نومي.. شيء ما جعلني أستيقظ!!.. إنها تلك اللحظات النادرة التي تستيقظ فيها بعد منتصف الليل وتشعر أن الكون كله نائم سواك!!.. استيقظت وسط الظلام والتفت إلى الجانب الذي ينام فيه زوجي.. عندها فقط انتبهت إلى تلك الأنفاس الثقيلة والشخير المزعج تحديدا!!.. وعرفت أنه السبب وراء استيقاظي!!.. هل زوجي يشخر أثناء النوم؟ ؟!.. لم يفعل هذا من قبل!!.. التفت ناحيته.. فرأيت الحدود الخارجية لجسمه المتدثر باللحاف.. ابتسمت.. وكنت على وشك الاقتراب منه حتى أطلب منه التوقف عن الشخير.. و.. مهلا!!.. مهلا!!!.. هذه الحدود الخارجية للنائم.. إنها.. إنها ليست لزوجي!!!!.. النائم تحت هذا اللحاف أضخم حجما من زوجي!!!.. أنا لست واهمة على الإطلاق!!.. إن النائم بجواري ليس زوجي بكل تأكيد!!.

ازدردت لعابي بصعوبة بالغة.. وشعرت بأن أنفاسي تحتبس وتضيق.. وجسدي يرتجف بقوة!!.. فنهضت من الفراش.. و.. تنحنحت بصوت خافت سببه الظلام ولا أعلم لماذا لا نرفع أصواتنا في الظلام ونشعر برعب حين نرفعها!!.. ربما كنت واهمة.. لكن.. لا.. شيئا بداخلي يخبرني أنني سأرى ما سيثري كوابيسي إلى الأبد!!..

وضعت يدي المرتجفة على اللحاف لأكشف عن هوية النائم.. فإذا.. فإذا بوجه مخيف لن أنساه مدى الحياة!!!.. رجل مشوه الوجه.. وكأنه.. وكأنه وجه جثة متعفنة غطتها الفطريات!!. ما هذا المخلوق المرعب؟!.. كان مستيقظا وينظر إلي بنظرة صامتة مخيفة أصابتني بهلع ما بعده هلع!!!!.

لا يمكنكم أبدا أن تتصوروا مدى الرعب الذي شعرت به لحظتها.. لقد أصابتني اضطرابات قلبية عنيفة من تلك التي أشعر بها عندما تصيبني النوبة القلبية.. لكني رغم هذا التقطت أنفاسي بصعوبة بالغة وفعلت ما تفعله أي فتاة وربما أي رجل في مكاني!!.. أطلقت صرخة مدوية!!.. وقفزت من الفراش في هلع ثم رحت أركض بكل قوتي وأنا أمسك صدري في حرص كأنني أحمي قلبي من تلك الانفعالات التي قد تقضي عليه وعلى حياتي!!.. أركض وأركض وصراخي يملأ البيت ويكسر سكون الليل.. لم أجد زوجي في غرفة المعيشة.. فهرعت ناحية باب المنزل وفتحته بهلع مجنون دون أن أنظر إلى الوراء.. خرجت من البيت وأنا أركض برشاقة الغزال.. غزال فقد عقله!!.. أركض وأركض.. وألهث بقوة وصدري يعلو ويهبط دون أن أشعر بساقي اللتين تنثنيان أثناء الركض!!.. لقد كنت أعيش أمرا يفوق كل المقاييس المادية بحق.

توقفت في الخارج عند مدخل الحي (الفريج) حافية القدمين مرتدية بيجامة النوم!!.. التفت حولي.. الشارع خال تماما.. فما زالت تفصلنا ساعة أو ساعتان قبل أذان الفجر.. كنت ألهث وأحاول أن أنعش قلبي.. لكني.. لكني لم أعد أحتمل!!.. فسقطت على الأرض وأنا على وشك فقدان الوعي!!.. وفي لحظات قليلة وجدت زوجي بالقرب من باب المنزل يبحث عني بقلق حقيقي.. ما إن رآني واقعة على الأرض في آخر الحي.. حتى شرع يركض ناحيتي ملتاعا وهو يبسمل ويحوقل!!.. احتضنني بقوة وهو يسألني بهلع عما جرى.. لم أتمكن من النطق.. إنها واحدة من تلك النوبات اللعينة التي تصيبني.. إذ رحت ألهث بشدة شاعرة بألم رهيب في صدري.. فالتفت زوجي يمينا ويسارا وكأنه يبحث عن مساعدة.. ثم حملني بيديه إلى داخل البيت مرة أخرى كدمية صغيرة لا رأي لها.. لم أقاومه ولم أقل شيئا رغم ما رأيته في البيت.. كنت أضعف من أن أفعل هذا!!.. و.. تماما كما حدث في حادثة الأفعى إياها!!.. محاولات من زوجي لتهدئتي.. كوب من الماء يمسح به وجهي.. دواء القلب.. ثم يضمني بقوة إلى صدره حتى يشعرني بالأمان.. و.. انتبهت إلى أن كاحلي قد التوى عندما كنت أركض بهلع!!.. وإلا فما تفسير كل هذا الألم الذي اجتاحه؟!.. وبالفعل.. قام زوجي بلف رباط ضاغط حول كاحلي.. الحمدلله أن الأمر لم يتجاوز الالتواء.. الحقيقة أنني كنت أعيش أسود أيام حياتي.. أسودها بحق!!.. ما من جهاز عصبي يتحمل كل هذا الضغط.. إن روحي أصبحت منهكة في ظرف أيام قليلة.. لقد نفد منها الوقود سريعا فشعرت فجأة بأنني عجوز في السبعين!!.

وبعد ساعة تقريبا تمكنت أخيرا من النطق!!.. فأخبرت زوجي بتلك الحادثة المخيفة وبصوت مرتجف باك!!.. فمط شفتيه باستغراب شديد.. ثم قال بتوتر:

- حبيبتي.. لقد كنت أنا نائما بجوارك طوال الوقت!!!.. ولا أعرف لماذا صرخت عندما رأيت وجهي!!.. وكأنك.. وكأنك رأيت شبحا!!.. لقد أخرستني مفاجأة صراخك وهلعك!!.. وعجزت تماما عن اتخاذ أي رد فعل للحظات!!..

نظرت له باستغراب شديد.. لم أدر ما أقول أو أفعل.. أنا واثقة مما رأيت.. واثقة تمام الثقة!!.. هل.. هل أصابتني لوثة عقلية؟!.. هل البيت مسكون؟!..

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!!!..

هتفت مستعيذة بالله من هذه الأمور المخيفة التي بدأت أعتقد أن لها علاقة بالجن أو بالشياطين.. و.. أمسكت بذراع زوجي متوسلة:

-أرجوك.. أرجوك لنترك هذا البيت.. هناك أشياء مريبة تحدث هنا.. أشياء لا تخضع للمنطق..

احتضنني بقوة للحظات.. قبل أن يقول بعد تفكير عميق:

-لا أعلم يا حبيبتي.. ربما يكون ما شاهدتيه وهما!!.. فأنا أعيش في هذا البيت منذ عشر سنوات.. ولم آرَ فيه ما يريب.. أنا لست طبيبا.. ولكن.. ربما الاضطرابات التي تشعرين بها في قلبك تجعلك تتوهمين بعض الأشياء.. هل ما أقوله هراء؟!.. لا أعلم.. ولكن أعلم أنك كنت واهمة.. لأنني كنت نائما بجوارك طوال الوقت وفوجئت بك تنظرين إلي برعب وتصرخين.. ثم تهربين من البيت!!..

أقسمت له بأغلظ الأيمان أن ما رأيته كان حقيقيا!!.. وأنني لم أكن واهمة إطلاقا.. فرد علي بحزم يشوبه بعض القلق:

-لا يوجد وهم يبدو كوهم.. الوهم يبدو كالحقيقة التي لا تقبل الشك.. أنا واثق أنك واهمة.. لماذا تتوهمين شيئا كهذا؟!.. لا أعلم.. وعلى كل حال فأنا أعدك بأنني سأكون إلى جانبك طوال الوقت.. ولو شعرت بعدم الاطمئنان خلال الأسابيع القادمة فأعدك بأننا سنبيع البيت وننتقل إلى مكان آخر.. هل يرضيك هذا؟!..

نظرت إليه طويلا عاجزة عن الرد.. هل كنت واهمة حقا؟ ؟!.. لا أعرف ما أقول.. حقا لا أعرف!!.. ابتسم زوجي الحبيب أمام نظراتي الحائرة.. وحملني بنفسه ليدسني تحت الأغطية.. وقد أثر بي حنانه إلى أبعد الحدود!!.. ثم نام بجواري وحرص على ألا يتركني أبدا.. وفي أقل من نصف ساعة غاب زوجي في عالم الأحلام.. بينما ظللت أنا مستيقظة متحفزة!!.. ولا داعي أن أحكي لكم عن عشرات التفاصيل الصغيرة التي لا يمكن أن ينساها أي مخرج رعب يجيد عمله.. نظرات التماثيل الوقحة الموجودة فوق دولاب غرفة النوم.. صرير الباب.. وجه زوجي النائم الذي يوحي بأنه ينظر لي في ثبات مع أن عينيه مغمضتان!!.. هذا كلام مكرر يوشك أن يكون مملا!!.

لقد قضيت الليالي القليلة التي تلت تلك الحادثة برعب حقيقي!!.. بل إن ساعتي البيولوجية قد تحطمت بالكامل.. فصرت استيقظ من النوم مرات عديدة التفت يمينا ويسارا.. وأتأكد من أن زوجي هو بالفعل زوجي!!!.. وليت الأمور توقفت عند هذا الحد.. فقد ازدادت سوءاً!!.. خاصة عند استيقاظي بعد الحادثة الأخيرة بأقل من أسبوع بسبب هاتف زوجي النقال الذي كان يرن في الثانية صباحا!!.. استيقظت منزعجة.. من هذا الأحمق الذي يتصل في وقت كهذا؟؟!!.. التفت ناحية زوجي لأوقظه.. فلم أجده في مكانه!!!.. ذهبت لأعرف هوية المتصل من خلال كاشف الرقم.. إنه رقم غريب غير مسجل باسم أحد في هاتف زوجي.. لم أرد على المتصل بطبيعة الحال.. بل خرجت من غرفة النوم بخطوات حذرة لأبحث عن زوجي.. ذهبت إلى غرفة مكتبه التي يبقى فيها أحيانا كثيرة للقراءة وكتابة بحوثه.. لا.. لم يكن هناك.. بحثت عنه في كل مكان آخر في البيت لكنه اختفى تماما!!

نظرت بقلق من نافذة الصالة فوجدت سيارته في الخارج!!.. إنه لم يخرج من البيت بكل تأكيد.. أين ذهب إذا؟ ؟!.. عدت بعدها إلى غرفة النوم والوساوس تقتلني.. و.. وجدت زوجي في مكانه نائما!!!.. هكذا بكل بساطة!!.. شعرت بذعر حقيقي.. إن كانت هذه مزحة.. فهي مزحة ثقيلة دون شك!!.. أيقظته بفزع.. ولأول مرة شعرت بأنه بدأ يعاملني بشيء من الغلظة.. فقال بحدة وآثار النوم ما زالت تملأ ملامحه:

-ما بك يا (لينا)؟ !!.. هل أنت معتوهة؟!.. لقد كنت نائما طوال الوقت في الفراش ولم أتحرك من مكاني!!..

صعقت تماما لما يحدث.. هل أعاني من مشكلة نفسية؟ ؟!.. هل أنا مريضة؟!.. أو بعبارة أقل

رقيا.. هل جننت أخيرا؟؟!!.. لم أجد الوقت لنقل تلك الخواطر والتساؤلات لزوجي.. إذ سرعان ما تركني وعاد متدثرا تحت اللحاف مرة أخرى وهو يهمهم بعبارات غاضبة لم أفهمها!!.. أنني تائهة تماما!!.. طوال الأيام الماضية وأنا أواجه أمورا مخيفة لا تفسير لها وأعيش في قلق متواصل!!.. الهالات السوداء بدأت تتكاثر أسفل عيني بسبب النوم المضطرب.. النوبات القلبية تتزايد!!.. أمضي كل ليلة ساهرة متكورة في ركن الفراش في وضع جنيني وأنا أرمق العالم من فوق حافة الملاءة.. المشكلة أنني بدأت أخشى النوم بجانب زوجي بعد حادثة الوجه البشع إياها!!.. أخشى أن أستيقظ في أي وقت وأجد بدلا منه ذلك الوجه المخيف.. فأغفو قليلا.. ثم أصحو صارخة!!.. ليضيء زوجي النور ويجدني أرتجف كورقة!!.

لن يحتمل قلبي تلك المواقف الرهيبة التي أتعرض لها!!.. إذ دائما ما ينصحني الأطباء أن أبتعد عن الانفعالات الزائدة.. وما عشته في تلك الأيام أكثر من مجرد (انفعالات زائدة) !!.. من المؤكد أن رحمة الله الواسعة قد شملتني.. فلا أجد سببا آخر لبقائي على قيد الحياة حتى الآن!!.

والواقع أنني لا أعرف إن كانت المواقف التي تعرضت لها من نسج الخيال أم أنها تحدث لي بالفعل.. هل أنا مبصرة من نوع خاص مثلا؟!.. لا أعرف!!.. ثم.. ثم ما قصة الكوبرا التي ظهرت فجأة.. فهي ليست وهما بكل تأكيد؟ !!.. لقد بدا لي تفسير زوجي بشأنها مقنعا في باديء الأمر.. لكني الآن أجد الغموض يحيط بكل شيء!!.. لا أعرف.. حقا لا أعرف.. هل البيت مسكونا بالأشباح مثلا؟ ؟!.. إنني لا أؤمن بوجود عالم آخر غير عالمنا هذا.. وجميع أمور الميتافيزيقيا ([5]) هي آخر اهتماماتي!!.. أنا لا أؤمن بالأشباح.. ولكن يبدو أنها تؤمن بي!!.. ابتسمت بسخرية مريرة بعد أن راودني ذلك الخاطر!!.. بالفعل يبدو أن الأشباح هي التي تؤمن بي.. مهلا!!.. هل.. هل زوجي هو وراء كل ما يحدث؟ !!.. لا.. مستحيل!!.. لماذا يمارس تلك الألعاب الصبيانية أصلاً؟ !!.. إنني أعيش في رعب حقيقي.. أشعر أن البيت ملعون.. أشعر أن هناك شيئا مريبا يحدث هنا.. أو ربما أكون قد فقدت عقلي بالفعل!!.. ليتني أعلم.. ليتني أعلم!!.

ظل الغموض والسواد والخوف يخيم على حياتي في الأيام التالية!!.. بل ونسيت تماما أن شهر العسل قد انتهى منذ أسبوعين فحسب!!.. ونسيت أيضا أنني عروس في بداية حياتي الزوجية.. أذكر جيدا أنني رجوت زوجي طوال الأيام التالية أن ننتقل إلى بيت آخر.. لكنه كان يصر على أن المشكلة تكمن في ذاتي.. ووعدني بعرضي على طبيب نفسي خلال الأيام القليلة القادمة.. لم أعترض على الإطلاق.. خاصة وأنني بدأت أشعر بتذمره!!.. وأن معاملته لي قد تغيرت قليلا..

لم أتحدث إليه بهذا الشأن.. فقد كنت مشتتة تماما.. خاصة مع القلق الذي ينهش قلبي!!.. إنني أعيش منذ أسبوعين أو أكثر قليلا في مسلسل لا يتوقف من الغموض والرعب الذي شهدتموه معي لحظة بلحظة.. دون أن أعرف أن كل هذا الغموض سيتبدد دفعة واحدة من خلال حادثة صغيرة كشفت لي المأزق الرهيب الذي وقعت فيه!!!.. متى حدث هذا؟!.. عندما اضطر زوجي للخروج في تلك الليلة لحضور حفل زفاف شقيقه الأصغر.. كان شعورا مخيفا أن يتركني وحدي في البيت لأول مرة.. وهو الذي لم يتركني إطلاقا طوال الأيام الماضية.. فقد كنا نخرج معا دائما.. أو نكون معا في البيت.. أنا التي كنت أشعر بالخوف رغم أن زوجي بجواري طوال الوقت.. فكيف سيكون الحال بوجودي وحيدة في هذا البيت الذي أصبح يشكل لي كابوسا حقيقيا؟!.. لقد شعرت أن البيت كيان حي يكرهني كثيرا ويريد الخلاص مني.. لكني -رغم ذلك- لم أجد بدا من ترك زوجي ليحضر حفل زفاف أخيه.. فلم أكن أجرؤ على الاعتراض بعد أن شعرت بتذمره واستياءه من مخاوفي وقلقي المتواصل.. كما أنها ليلة عمر بالنسبة له ولعائلته.

تركني زوجي في تلك الليلة وحيدة في البيت.. فأخذت جهاز الكمبيوتر المحمول إلى الصالة.. وجلست هناك أسبح في بحر الانترنت.. إلا أن هذا لم يمنعني من الالتفات طوال الوقت بسبب عدم شعوري بالأمان رغم أن أضواء البيت كلها كانت منارة!!.. ورغم صوت التلفزيون الذي أعطاني إحساسا بالألفة وبأن هناك حضورا بشريا معي.. إلا أن كل هذه المشاعر قد تجمدت بلحظة واحدة!!.. نعم.. هو ما توقعتموه تماما!!!.. فقد انقطع التيار الكهربائي بغتة في الساعة التاسعة مساء!!!.. الجو المظلم الكئيب والهدوء المخيف خيما على البيت فجأة لأقف في الظلام وحيدة شاعرة برعب حقيقي!!.. كل مخاوف الظلمة التي عرفها الإنسان احتشدت في تلك اللحظة أمامي.. فاستسلم عقلي تماما للوساوس.. كم أكره الظلام.. كم أكره الرعب المجهول الغامض الذي لا تعرف أين ولا متى سيظهر!!.. و..

-ت.عااااااالييي!!!

لحظة.. من قال هذا؟؟!!.. لم يقله أحد.. إنها كلمة ترددت في ذهني فحسب.. لكنها مدوية كأنها صرخة في بهو فارغ!!.. إنني متوترة بحق!!.. التوتر هو الإحساس الدائم بأن هناك من يراقبك و يحسب عليك أخطائك وهفواتك!!.. وأنا أشعر بهذا بالفعل.. بل وأشعر أن شيئا ما سيخرج من مكان ما لينقض علي!!.. عندها لن يحتمل قلبي الصدمة.. أفزعني الخاطر كثيرا.. فالتفت إلى الوراء سريعا.. وكان هذا سيئا بحق!!.. إذ وقعت عيناي لا شعوريا على المرآة الكبيرة الموجودة على حائط جانبي في الصالة.. فرأيت وجهي في المرآة وقد كسته الظلال التي منحته سمتا شيطانيا!!.. ثم.. تذكرت أمرا مهما!!.. لو كان كل ما رأيته وهما في الأيام السابقة فإن هذا يعني أنني معرضة الأن أكثر من أي وقت مضى لرؤية أشياء مخيفة غير مألوفة!!.. ولكن.. ماذا لو.. ماذا لو لم أكن واهمة؟!.. وأن التيار الكهربائي قد انقطع بفعل فاعل؟ !!.. من هو هذا الفاعل؟!.. الأشباح؟!.. الجن؟!.. لا أدري.. لكن أشعر أن الفاعل ليس بشريا على الإطلاق.. هناك لغز يحدث هنا ولا أفهمه!!.. ثم تصلبت في مكاني لحظة.. فقد انتبهت فجأة إلى أنوار الشارع في الخارج من خلال شباك غرفة المعيشة.. إنها مضاءة؟!.. وكذلك أنوار البيوت المجاورة!!.. هل انقطع التيار الكهربائي عن هذا البيت فقط؟!.. هل هي صدفة؟ !!.. لا أدري.. ماذا سأفعل؟!.. أتصل بزوجي؟!.. لن يترك حفل زفاف شقيقه من أجل انقطاع التيار الكهربائي.. أخرج من البيت؟!.. لا أملك سيارة!!.. أخرج إلى شارع الحي بثياب النوم؟!.. لا يمكن!!.. أبدل ثيابي؟!.. هذا يعني الصعود إلى الطابق العلوي وهذا مستحيل تماما!!.. فمنظر الدرج مخيف جدا في الظلام.. وكل المصائب التي حدثت خلال الأيام الماضية كانت في الطابق العلوي!!.. لا.. لن أجرؤ أبدا على الصعود!!..

تلوت المعوذتين وأخذت نفسا عميقا.. ثم اتخذت قراري!!.. فمشيت بخطوات متوترة جدا إلى غرفة المكتب.. فهي الغرفة الوحيدة التي رأيت فيها شموعا في البيت!!.. إن زوجي الحبيب يضع الكثير من تلك الشموع الخلابة التي تعطي المكان روائح عديدة بدءا برائحة الفواكه وانتهاء برائحة الشوكولاتة!!..

توجهت إلى مكتبه وأنا أتحسس طريقي بهدوء مهيب بسبب الظلام الدامس الذي خيم على روحي نفسها.. إلى أن وصلت أخيرا.. حيث دخلت بسرعة وأغلقت على نفسي الباب..

أشعلت بعدها بضعة شموع بيد مرتجفة.. لحسن الحظ أن هناك ولاعة في المكتب يستخدمها زوجي لإشعال تلك الشموع.. و.. انتشر النور المريح أخيرا في كل أرجاء غرفة المكتب.. فأخذت نفسا عميقا لأطرد كل انفعالاتي.. وفضلت بعدها البقاء هناك والانتظار حتى يعود زوجي!!.

جلست على الأريكة الكبيرة في غرفة المكتب أشاهد ضوء الشموع التي أعطتني جوا حميما وأبعدت عني بعض الخوف.. أحب كثيرا التحديق في الشموع.. إن هذا يعطيني شعورا رائعا لا أعرف كيف أصفه!!.

وبعد لحظات.. فكرت بعمل شيء هو على الأرجح أهم تطور في قصتنا هذه!!.. فقد أردت قضاء الوقت في قراءة أحد الكتب الموجودة في مكتبة البيت.. هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله لقتل الوقت إلى حين عودة زوجي.

أخذت نفسا عميقا مرة أخرى.. ثم شرعت أنظر إلى مئات وربما آلاف الكتب الموجودة في مكتبة زوجي الضخمة.. حقا أنها أكبر غرفة في البيت.. لقد كان زوجي يجلس في تلك الغرفة طوال الوقت قبل زواجنا كما ذكر لي.. و.. هذا مخيب للآمال.. فكل الكتب التي رأيتها كانت سياسية أو فيزيائية أو أكاديمية.. ومن الكتب التي لا تثير اهتمامي أبدا.. ربما هذه الرفوف العلوية تحوي ما يستهويني!!.. جلبت السلم الصغير الأنيق الموجود في الغرفة.. وتسلقته محاولة الوصول إلى الرفوف العلوية!!.. إنها كتب علمية متنوعة.. سأختار أفضلها!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!.. اختل توازني ووقعت من على السلم.. لحسن الحظ لم أصب بسوء!!.. هناك ألم بسيط في ظهري لكن لا بأس.. صعدت السلم مرة أخرى- وبحذر هذه المرة- إلى أحد الأرفف العلوية لاختيار كتاب.. مهلا!!!.. هذا غريب جدا!!.. فعندما اختل توازني.. حاولت أن أتشبث بأحد الأرفف العلوية للمكتبة!!.. فدفعت الرف بقوة قبل أن أقع.. والأن أرى هذا الرف منبعجا إلى الوراء قليلا!!.. هناك شيء مخفي خلف هذا الرف!!.. لا شك في ذلك.. دفعت الرف بكل قوتي ليلتف دائريا ويظهر لي رف آخر مخفي!!!.. أثار هذا استغرابي كثيرا!!.. لماذا يخفي زوجي تلك الكتب في ظهر المكتبة؟؟!!.. إنني لم آرَ شيئا كهذا من قبل!!.. إنها كتب قديمة جدا.. بعضها أصفر اللون من التي يبتاعها هواة جمع الكتب القديمة.. ورائحة الكبريت تنبعث منها بقوة كما هو الحال مع كتب القرون الوسطى!!.. كنت واقفة متصلبة على الدرج وأنا أقرأ عناوين تلك الكتب.. كتاب (شمس المعارف الكبرى) لكاتب لا أعرف أين قرأت عنه.. كاتب اسمه (أحمد بن علي البوني) !!.. شيئا فشيئا بدأت أتذكر!!.. لقد قرأت عن هذا الكاتب قبل بضع سنوات في إحدى الموسوعات الثقافية.. إنه من أشهر من كتبوا في السحر.. وقد قام بتأليف عدد كبير غير معروف من تلك الكتب التي تحوي تعاويذ تقشعر لها الأبدان!!.. إلا أنه لم يطبع منها إلا القليل.. والقليل جدا.. كالكتاب الذي بين يدي.. وهو كتاب يعرفه كل من مارس السحر في العالم العربي ([6])!!.

كما وجدت أيضا كتبا أخرى قديمة جدا بعضها يحوي خرائط عليها رسوم معقدة تظهر الأبراج أو مواقع النجوم.. لا أعرف معنى كل هذا.. لكن.. لكن بالتأكيد هذه كتب تخص ساحرا.. أو شخصا يهتم بالسحر!!.. أو مشعوذا أو عرافا!!!.. لا أدري.. وعلى قدر علمي فإن الإنسان لم يتوقف أبدا عن ممارسة السحر.. منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا!!..

ماذا يفعل زوجي بالضبط؟؟!!!.. لماذا هذه الكتب المخيفة؟!.. الجواب واضح.. إنه يمارس أنشطة مشبوهة دون شك!!.. أعتقد أن الأمر يحتاج إلى بحث أشمل!!.. رحت كالمجنونة ألقي نظرة متوترة على كل كتاب موجود في الرف.. إلى أن اصطدمت بشيء آخر غريب.. لا.. إنه ليس كتابا.. إنه ملف كبير الحجم مليء بالأوراق!!.. فتحته بيد مرتجفة وشرعت أقرأ أجزاء منه وأنا واقفة على السلم!!..و.. صعقت.. صعقت.. صعقت!!.. سقطت الشمعة من يدي.. فنهضت مسرعة لأمسك بها.. ووضعتها على المكتب بتوتر شديد والتصقت بالجدار شاعرة بأنني تائهة في دوامة لا مخرج منها.. وقد أدركت أخيرا أنني وقعت في شرك رهيب.. وأن حياتي نفسها معرضة

للخطر.. و.. شيئا فشيئا بدأت أفهم.. هذا هو السر الذي يكشف الغمامة الكثيفة التي تحيط بي في هذا البيت.. شعرت بأن أعصابي تحترق.. تحترق حقيقة لا مجازا!!..

إنني في موقف لا أحسد عليه بالفعل!!.. إنها.. إنها أوراق ومذكرات تحوي دراسات كاملة عن محاولات قام بها زوجي لدراسة الروح وكيفية اتصالها وانفصالها عن الجسد!!!.. بل وقام منذ سنوات قليلة - كما هو مذكور في مذكراته - بعمل تجربة غريبة جدا هي في الواقع أقرب إلى البشاعة منها إلى الغرابة!!.. عندما وضع فتاة تحتضر على كفة ميزان عملاق.. وقارن بين وزنها بعد وقبل الاحتضار!!.. ثم أعلن أن الفارق يساوي الروح ووزنها كذا من الميكروجرامات ([7]).. ولم يكن هذا كل شيء بالطبع.. فهو يطرح في مذكراته تساؤلات رهيبة لا أجرؤ حتى على التفكير فيها!!.. إذ ينطلق من المبدأ المعروف الذي يقول أن الروح تنفصل عن أجسادنا عندما ننام لتقوم برحلات في عالم آخر نجهل عنه كل شيء.. ثم تعود إلى الجسم لحظة الاستيقاظ!!..

وهو يريد أن يعرف أين تذهب أرواحنا بالضبط عندما تخرج من الجسد في وقت النوم!!.. بل ويخطط للقيام بتجارب عديدة لم أفهم تفاصيلها للتحكم في روحه التي تخرج من جسده أثناء النوم.. مما سيتيح له -على حد قوله- أن يسافر بعقله وكيانه غير المادي إلى أي مكان يريده دون تذاكر أو جوازات سفر.. أو ربما ينتقل بين الكواكب والمجرات بسرعة تفوق سرعة الضوء مختصرا بذلك عامل الزمن بالطبع ([8]).. إذ لا وجود للزمن في العقل الباطن كما تعلمون!!.. ويعتقد زوجي أن الهالات ([9]) المحيطة بالإنسان لها علاقة قوية جدا بالروح.. لكنه لم يتوصل حتى الآن إلى طبيعة تلك العلاقة!!.

هل سمعتم عن أمور كتلك من قبل؟ ؟!.. أنا لم أسمع بها كذلك!!.. هل تبدو لكم الأمور معقدة؟!.. بالطبع.. إنها معقدة وغريبة ومخيفة جدا!!.. وبالطبع تشعرون معي بشيء مريب دينيا فيما يحدث.. لا أفهم وجه الخطأ لأنني لست متبحرة في الدين لكني أشعر أن هناك نوعا من التجديف!!..

شرعت بعدها أكمل القراءة كالمجنونة.. إلى أن وقفت عند النقطة التي خلعت قلبي من مكانه!!.. فقد قام زوجي بصنع أجهزة دقيقة جدا قام بوضعها في أماكن مخفية في البيت حتى ترصد الهالات التي تنبعث من الإنسان منذ لحظة احتضاره وحتى اختفائها تماما بعد موته!!!.. من الذي سيخضع لهذه التجارب؟!.. أنا بالطبع!!!.. فزوجي يتعمد إخافتي حتى أموت من شدة الرعب!!!.. إنه يستخدمني كفأر تجارب!!!.. فأر تجارب فحسب!!.. فهو يريد أن يرصد الهالات المحيطة بي بدءا منذ لحظة احتضاري وحتى بعد موتي.. إلى أن تختفي تلك الهالات تماما!!.. لقد جرب هذا على بعض الحيوانات.. ولكنه يريد أن يقوم بالتجربة على البشر أيضا!!.. لماذا لا يقتلني بدلا من هذا التعقيد؟!.. لأن قتلي بواسطة سلاح مثلا سيجعل الهالات المحيطة بجسدي تتلاشى بسرعة أكبر.. وهذا ما لا يريده زوجي.. فهو يريد دراستها بتمعن وروية.. وهناك سبب آخر لا يقل أهمية عن الأول.. فقتلي سيضع زوجي في ورطة مع الشرطة قد لا يفلت من عواقبها.. أما الموت بسبب سكتة قلبية فهو أمر يمكن تجاوزه وإيجاد مليون تفسير له أمام الشرطة.. خاصة وأنني إنسانة مريضة أصلا ومن الممكن جدا أن أموت أمام أي انفعال زائد.. كما أنني لقيطة.. فلا يوجد لدي أهل متشككين سيحاسبون زوجي ويسائلونه.. أي أنني فأر تجارب مثالي جدا كما يقول في مذكراته!!.. و.. قطع حبل أفكاري عودة التيار الكهربائي بشكل مفاجئ.. فأعادني هذا إلى عالمنا مرة أخرى!!.

رحت بعدها وبذعر شديد أعيد كل شيء إلى مكانه بسرعة بالغة والقلق ينهش عقلي وقلبي!!.. لأذهب بعدها إلى الفراش ورأسي يعج بالخواطر السوداء التي شاب لها رأسي!!.. هذا الوغد جعلني أعيش أياما رهيبة.. أياما مع الخوف!!.. إنه يعيش في عالم غامض كئيب أجواؤه كابوسية مليئة بالغيوم.. وأنا كالبدر.. تغطيني تلك الغيوم!!.. لقد أغمضت عيني على حلم جميل واستيقظت منه على وهم مؤلم!!..

كنت أتقلب في الفراش وكأنني أتلوى في الجحيم.. الأفكار تصطرع في ذهني وتلتهمني التهاما.. إلى أن عاد زوجي إلى البيت أخيرا وقبل منتصف الليل بقليل!!.. حيث قبل جبيني بطريقة آلية وأخبرني أنه مرهق قليلا ويريد النوم.. بالطبع لم أتمكن من السكوت.. فقد فضلت مواجهته بكل صراحة.. و..:

-لماذا تفعل كل هذا؟ ؟!..

التفت إلي متسائلا عما أعنيه!!.. فأخبرته بصوت باك مرتجف متخاذل عن ما وجدته في المكتب!!.. كنت منكسرة تماما.. وقد شعرت أن أطنانا من الهموم تجثم على قلبي!!.. بالطبع بهت لكلامي هذا الذي لم يتوقعه إطلاقا!!.. وسكت طويلا وكأنه يحاول تمالك نفسه واحتواء صدمة كشفي لكل ما يحدث!!.. ثم قال ببرود شديد وكأنه قرر مصارحتي بدوره:

-لا يمكن للإنسان أن يصنع تاريخا إذا اتبع القوانين.. يمكنه أن يصنع التاريخ إذا انتهز الفرص المناسبة.. وغالبا ما تكون الفرص المناسبة غير قانونية!!..

عند هذا الكلام.. صعد الدم إلى رأسي.. ورحت أصرخ في وجهه لأول مرة منذ زواجنا:

-تريد أن تقتلني؟ ؟!.. أنت لا تراني سوى حيوان تجارب؟ !!.. أين وعودك؟!.. أين كلامك الذي كنت تقوله لي قبل الزواج؟ !!..

قال ببرود جمد الدماء في عروقي:

- لو سمعتك تتكلمين معي بهذه الطريقة مرة أخرى فلسوف تختصرين الساعات الباقية من عمرك..

لا شك أنني تأثرت بهذا الكلام لأن لهجتي صارت بقدرة قادر أهدأ!!.. فاقتربت منه بذل ورحت أتوسل إليه أن يرحمني.. فقال بكل وقاحة:

-أرجوك امضغي بعض العلكة.. إن رائحة فمك تشبه رائحة قدم رجل عجوز!!..

لم أحتمل هذا الاستفزاز.. فنهضت من مكاني ورحت أصرخ مرة أخرى:

-هل لديك أدنى فكرة عن العناية الطبية التي ستحتاجها في مستشفى الأمراض العقلية؟!.. أنت.. أنت لست شيطان.. أنت (الشيطان) نفسه.. أنت حقير.. أنت.. أنت.. كلب!!..

وكما يحدث في المسلسلات العربية التي أكرهها بشدة.. هوى كفه على وجهي بصفعة توهج على إثرها خدي الأيمن بالدماء!!!.. فصحت مذهولة:

-لقد.. لقد ضربتني!!!!..

قال ببرود غريب متهكما:

-سأضربك مرة أخرى.. هل يرضيك هذا؟ ؟!.. ثم إنني إن كنت كلبا.. فعضتي أسوأ من نباحي..

خذي الحذر..

قطب حاجبيه بعدها وهو يقول بقسوة:

-نعم.. أنت فأر تجارب ثمين جدا!!.. فلا يوجد من يسأل عنك أو يهتم بأمرك.. أنت لقيطة.. ولن يفتقدك أحد.. كما أنك مصابة بذلك المرض في قلبك مما يعرضك للموت بأي لحظة.. لقد حاولت إفزاعك بشتى الطرق.. إلا أن قلبك العنيد القذر يأبى أن يتوقف.. لكني لن أتوقف بدوري.. تأكدي من ذلك!!..

ثم نهض من الفراش وبدل ثيابه سريعا للخروج.. ولكن قبل أن يخرج التفت إلي قائلا:

-إياك أن تخرجي من البيت.. وتذكري جيدا أنني أستطيع أن أعيدك إلى المكان الذي كنت تعيشين فيه بعد أن أطلقك بدعوى أنك فتاة فاجرة!!.. سأدعي أنك كنت تخونينني!!.. وتعلمين جيدا أنهم سيصدقونني.. ولن يصدقوا أبدا لقيطة مثلك!!.

عند هذه النقطة انهرت تماما.. وانفجرت باكية!!.. بكيت بكاء يمزق نياط القلب وكأنني قطة جريحة.. لقد شعرت أن هناك أناس يولدون ضحايا.. وأنني منهم!!!.. فرحت أكرر بأسى والدموع تنهمر من عيني:

-أنا أكره حياتي.. أكره حياتي!!..

رد بسخرية قاسية لم أعتدها منه إطلاقا:

-أنا أيضا أكره حياتك!!..

أردفت غير مبالية بسخريته وأنا أقول:

-لحظات الخوف التي عشتها كدت أن أحتضر فيها.. لقد شعرت بأنني سأموت.. لقد مرت حياتي كلها في تلك اللحظة!!.

-لا شك أن اللحظة كانت مملة حقا..

قالها بسخرية مقيتة لم أصدق أبدا أنها تصدر منه!!.. ليتركني بعدها ويخرج من البيت رغم أن الساعة كانت تتجاوز الواحدة فجرا.. ولكن قبل أن يخرج قال بصرامة مخيفة:

-سأتغيب عن البيت لبضعة أيام.. لا تخرجي أبدا.. فلديك ما يكفي من المؤن.. وإن طلبت النجدة فستدفعين ثمن ذلك غاليا.. أعدك بهذا.. أما إذا اخترتي الموت فسيكون هذا أفضل.. إن الأجهزة الدقيقة التي عرفت عنها تعمل على مدار الساعة في البيت.. لا تحاولي أن تبحثي عنها لأنها أجهزة دقيقة جدا يعجز عقلك عن استيعاب مكانها وطريقة عملها.. ولن تعثري عليها أبدا.. تأكدي من هذا!!..

سقطت عند قدميه وأنا أقبلهما:

-أرجوك ارحمني.. إنني فتاة ضعيفة لا أملك أحدا في هذا العالم سواك.. أنت قريبي الوحيد.. أنت عائلتي الوحيدة.. أرجوك ارحمني.. أرجوك..

رفسني بقدمه بقوة!!.. ثم نظر إلي باحتقار وكأنني جرذ!!.. ليخرج بعدها من البيت حيث سمعت صوت الباب وهو يصفق بقوة!!..

العجز!!.. الشعور بأنني مكبلة تماما!!.. ماذا سأفعل.. أبلغ الشرطة؟!.. أطلب الطلاق؟!.. هذه

الحلول قد تعني العودة إلى سكن الرعاية الاجتماعية وهذا مستحيل.. مستحيل تماما!!.. ساعات مضت لم أتوقف فيها عن البكاء والرثاء لحالي!!.. كنت أشعر بضياع تام!!.. يؤذن الفجر ولم أنم بعد.. فأذهب لأتوضأ والدموع تملأ وجهي.. أفتح صنبور الماء.. ومع صوت خريره.. تسحبني دوامة أفكاري إلى أعماقها.. فأتنفس بعمق وكأنني أحتوي الكون كله في صدري!!.. ثم ألقي نظرة تلقائية إلى المرآة في الحمام لأتفحص ما حل بي.. ففوجئت بالوجه الذي طالعني.. إنه وجه مختلف عن وجهي الذي أعرفه!!.. وجه مكتئب منتفخ بسبب البكاء.. وجه فتاة رأت من الأهوال ما لم يره إنسان من قبل!!.. لقد بدا العالم الخارجي بمشاكله ومسراته وملذاته ومآسيه شيئا بعيدا جدا!!..

كيف سينتهي هذا الموقف؟!.. لا يوجد سوى حلان أفضلهما مر!!.. البقاء مع زوجي.. مما يعني أنه قد ينهي حياتي في أي وقت بأساليبه المجنونة!!.. والحل الآخر!!.. العودة إلى دار الرعاية الاجتماعية بالطبع!!.. لا.. لا يمكن أن أعود إلى هذا المكان الذي أكرهه أكثر من أي شيء آخر في الدنيا!!.. كيف سأخرج من ورطة كهذه ؟!.. لا أعرف طبعا.. كيف نجد حلاً لمشكلة الزوجة التي يخيفها زوجها بأساليب غريبة كي يدرس طبيعة الهالات التي تنبعث منها لحظة الاحتضار؟ !!.. مشكلة كهذه لم نقرأ عنها من قبل في المجلات الاجتماعية ولم نشاهدها في برنامج (سيرة الحب) !!.. ماذا أفعل إذا؟!.. أكلم زوجي مرة أخرى عندما يعود؟!.. ولكن.. كيف تخاطب شخصا بلغه لا يفهمها؟!.. كيف تخاطب (رمسيس الثاني) باللغة الهولندية؟!.. كيف تمد يدك بوردة حمراء إلى (هتلر)؟!..

لقد رأيت لمحة من الجنة في بداية زواجي وعلى مدى أسابيع قليلة.. ثم وجدت نفسي فجأة في جزيرة موحشة مهجورة!!.. وهذا لخبط كياني تماما.. و.. في صمت.. وسكون.. شعرت فجأة بعدم الرغبة في الحياة!!.. شعرت برغبة قوية جدا في الانتحار.. نظرة منكسرة اصطدمت فيها عيني بشفرة الحلاقة الخاصة بزوجي!!.. فأخذتها بحركة آلية لا شعورية.. وبحركة آلية أيضا.. بدأت بتجريح يديّ ومعصمي الاثنين!!.. فبدأت يديّ بالنزيف.. ولكن.. لا.. لا أعتقد أنني قطعت شراييني بعد.. كما أنني لا أملك الجرأة الكافية لقطعها.. هناك طرق أسهل للانتحار دون شك.. طرق تليق بفتاة رقيقة مثلي!!.. فذهبت إلى الثلاجة مستسلمة تماما.. وأخذت علبة كاملة من الأسبرين.. لأعود بعدها إلى الحمام والدماء ما زالت تفور من يديّ بسبب ما فعلته.. لكني لم أبال على الإطلاق!!.. نظرة بطيئة منكسرة إلى وجهي عبر المرآة مرة أخرى!!.. هل أفعلها؟!.. هل أنتحر؟!.. وجدت أن إنهاء حياتي هو أسهل الحلول بالفعل!!.. أنا فتاة لقيطة يتجنبني الناس وكأنني وباء.. أنا فتاة وحيدة عشت في عذاب لا يوصف طوال حياتي.. لا يوجد شيء في هذه الحياة يستحق أن أعيش من أجله.. و.. قمت بانكسار بابتلاع حبوبا كثيرة من الأسبرين!!.. لا أعرف كم حبة يجب أن أبتلع حتى أموت.. لكني ابتلعت العلبة كاملة!!.. هل يقتل الأسبرين فجأة.. أم أن موتي سيكون بطيئا ؟!.. لا أعرف.. شعرت أن رأسي يدور.. فسقطت على أرض الحمام.. وأصبحت بين الوعي واللاوعي!!!..

كنت مستلقية على أرض الحمام بكامل ثيابي وأنا أحدق في السقف وأشعر أن روحي تنسحب من جسدي بهدوء شديد جدا.. صمت تام يسود المكان.. كأنه فيلم سينمائي اجتمع فيه عباقرة المونتاج ليعطوا المشاهد تأثير التوتر!!.. أحاول فهم ما يحدث في اللحظات الأخيرة من عمري.. أحاول أن أنام بانتظار النهاية.. أشعر بأن نبضات قلبي تتباطأ.. كنت أخشى الموت.. حتى أماتني زوجي فلم أعد أخشى شيئا.. آلام القلب تتزايد.. سيتوقف قلبي هذه المرة.. أنا واثقة من هذا.. فيما

بعد سيجدني زوجي.. لكن القصة ستكون منتهية بالنسبة لي!!.. هذه هي نهاية فتاة لا يعرفها أحد.. ولن يحزن على رحيلها أحدا!.. إنها واحدة من اللحظات التي تتمنى لو أنك لم تولد فيها ولم تذق طعم الحياة أبدا.. وتؤمن أن الموت هو المفر الرحيم بك مما يدور من حولك!!.. إن أسوأ موت هو موت الأمل.. وليس موت الجسد.. وأنا إنسانة ميتة الأمل منذ مدة طويلة.. فلن يضرني موت جسدي!!.. و.. شعرت بأنني أحتضر فعلا.. إذ راح شريط حياتي يمر علي بأكمله.. وبسرعة بالغة أثارت استغرابي!!!.. هل هذا ما يحدث لحظات الاحتضار؟!.. لا أعلم.. أقسم لكم بأنني تذكرت كل كتاب قرأته وكل فيلم شاهدته.. وكل يوم عشته في سكن دار الرعاية الاجتماعية.. إلخ.. كان أمرا غريبا لا يصدق.. فقد اختصر عقلي عامل الزمن كله في ثوان قليلة!!!.. إن هذه الحياة قاسية جدا.. لا تعطيك فرصة أبدا لتجنب الصدمات.. ففي المدرسة نتعلم الدرس ثم نواجه الامتحانات.. أما في الحياة فإننا نواجه الامتحانات وبعدها نتعلم الدرس!!!!.. هذا ليس عدلا على الإطلاق!!..

وفي هذه الأثناء تحديدا.. في هذه اللحظات التي لن أنساها أبدا!!.. انتفضت بقوة!!.. انتفضت بشدة!!.. إذ هبطت علي تلك الفكرة فجأة!!.. من ذات المكان الذي يهبط منه إلهام الشعراء!!.. من ذات المكان الذي جاء منه (رينيه ليناك) بفكرة اختراع سماعة الطبيب ([10])!!.. وراح عقلي يردد الجملة التي قلتها لنفسي:

((في المدرسة نتعلم الدرس ثم نواجه الامتحانات.. أما في الحياة فإننا نواجه الامتحانات وبعدها نتعلم الدرس)).

إنها جملة منطقية جدا.. لقد واجهت امتحان الحياة كاملا منذ خروجي على وجه الدنيا وحيدة.. لقيطة.. وحتى زواجي من هذا الدكتور الوغد.. فلماذا لا أتعلم الدرس وأستفيد من هذه التجربة لأعيش حياتي؟ ؟!.. شعرت فجأة برغبة قوية في الحياة.. بل وإصرار على الحياة!!!.. شعرت بأنني كالثعلب القطبي!!.. فالثعالب القطبية يصطادونها بالشراك.. وإذا انطبق الشرك على ساق الثعلب فإنه يظل يقطع ساقه بأسنانه دون يأس.. لينجو ويستأنف حياة جديدة بثلاثة سيقان.. ولذلك اتفقت الدول التي تحوي صحاري جليدية على تحريم استخدام هذه الشراك ([11]).. يتذكر المرء أشياء غريبة بحق في تلك اللحظات!!..

غرقت طويلا في خواطري تلك.. وتخيلت نفسي فتاة غنية تعيش حياة مترفة رائعة خارج (الكويت).. حياة أحلق في أجوائها كطائر حر لا تحكمه جدران دار الرعاية الاجتماعية.. أو زوج مجنون!!.. أستطيع أن أعيش في أي مكان خارج (الكويت) إذا تمكنت من قتل زوجي والحصول على أمواله!!!!.. نعم.. سأقتل زوجي قبل أن يقتلني!!.. وأنتقل بعدها إلى بلد آخر يجهل فيه الناس كل شيء عني لأبدأ حياتي من جديد وأحصل على كل ما تتمناه أي فتاة!!.. مفارقة غريبة فعلا!!.. في لحظات موتي أجد نفسي أحلم بحياة أفضل!!.. لقد عمل عقلي بسرعة جبارة أثناء لحظات الاحتضار وجعلني أفكر بطريقة لم أفكر بها من قبل!!.. يجب أن أقاتل.. يجب أن أفعل شيئا.. وإذا أردت أن تحول أحلامك إلى حقيقة.. فأول ما يجب عليك فعله هو الاستيقاظ!!!!.. نعم.. أحاول أن ألتقط أنفاسي.. أشعر أن عقلي كمحرك يعمل بكامل طاقته لإنقاذي.. والوقود الذي يحركه هو الرغبة الغريزية في الحياة!!.. شعرت بأن آلامي تزول شيئا فشيئا.. وبدأت أسيطر على قلبي.. أجمل ما في الألم أنه يخبرك أنك لم تمت بعد!!!.. الرغبة في الحياة تتزايد.. و.. غرست أصبعي في فمي لأفرغ كل ما في معدتي!!!.. بالطبع تلوثت ثيابي وجزء من أرضية الحمام بالقيء!!.. لكني لم أكترث.. فلا وقت للاشمئزاز.. لملمت نفسي.. وشهقت بقوة وأنا أحاول النهوض.. وعقلي

يردد دون توقف: ((في الظلام تتجلى النجوم.. ومن الظلمات خرجنا جميعا إلى هذا النور.. فكل نور يبدأ من ظلام.. ووراء الضباب والسحب يطل علينا القمر))..

نهضت من على الأرض بصعوبة بالغة.. ساعدني على ذلك حماسي الذي دب في جسدي فجأة.. إلى أن شعرت أخيرا أن قلبي قد عاد ليمارس عمله الطبيعي.. وأنني أتنفس بصورة طبيعية!!.. كيف تغيرت نظرتي إلى الحياة بهذه السرعة!!.. إنها لحظات الاحتضار.. صدقوني.. إنها لحظات لا ينساها أحد أبدا إذا ما نجا من الموت.. تلك اللحظات تجعلكم تفكرون بطريقة لم تفكروا بها من قبل.. وتغير نظرتكم تماما إلى الحياة!!.

شرعت بعدها أغسل جروحي بعناية وأضمدها.. ثم ذهبت إلى الفراش وأنا أشعر بأن حالتي تتحسن كثيرا!!.. وجلست واضعة قبضتي تحت ذقني لأفكر.. وأفكر.. لقد كان زوجي أقوى مني.. ولكن الأمر سيختلف الآن.. كيف؟!.. إنك تملك القوة عندما لا تأخذ من الضعيف كل شيء.. أما إذا جردته من كل ما يملك فعندها أنت لا تملك أي قوة أو سلطة عليه!!.. عندها قد يصبح هو أخطر منك.. لأن أخطر إنسان هو الإنسان الذي لا شيء لديه ليخسره!!.. وزوجي أخطأ هذا الخطأ!!.. جردني من كل شيء لدرجة أنني لم أعد أخشاه.. ولهذا سأقاتل.. سأستولي على ماله.. وأقتله!!.. نعم.. فأنا ميتة لا محالة.. وليس لدي ما أخسره.. فلا أم ستلطم وتبكي لأن ابنتها مرغت سمعة العائلة في التراب.. ولا أب سيصاب بجلطة قلبية ليقع في العناية المركزة بسبب فعلتي الشنيعة.. أستطيع أن أعيش حياة حرة كريمة كأرملة!!.. وسأرث من زوجي مبلغا لا بأس به من المال.. هل الأرملة اللقيطة مطالبة بالعودة إلى دار الرعاية الاجتماعية؟ ؟!.. لحسن الحظ لا.. لكني رغم هذا سأهاجر إلى أي بلد خليجي يجهل فيه الجميع نسبي.. لحسن الحظ أن زوجي قد استصدر لي جواز سفر بعد زواجنا بأيام قليلة بناء على طلبي.. إن (دبي) تصلح للهجرة دون شك.. فهي خليط من جميع الجنسيات ولن ينتبه أحد إلى شيء.. أستطيع تكوين صداقات كثيرة وأن أعيش حياة رغيدة هناك!!.. بل وأستطيع أن أكون كالبكتيريا.. أسافر إلى كل مكان وأرى العالم.. لا يوجد حل آخر.. إما موت بطيء.. أو موت سريع مع احتمال نجاة!!.. نعم.. على الإنسان أن يكف عن رثاء نفسه وأن يفعل شيئا ما دامت هناك إرادة.. فالإرادة قد لا تفعل المستحيل.. ولكنها تقربنا منه جدا.. ثم إنني لن أخشى شيئا بعد الآن.. فأكبر خطأ يمكن أن ترتكبه في حياتك هو أن تقضي حياتك كلها خائفا من الأخطاء!!!.. وهذا ما لن يحدث بعد الآن.. ولكن.. كيف؟!.. كيف سأحقق تلك الأماني الجميلة؟!.. كيف سأقتل زوجي دون أن يشك أحد بشيء؟!.. نحن نتحدث هنا عن جريمة كاملة لا تترك وراءها أي دليل.. جريمة فشل في ارتكابها أعتى المجرمين.. فما بالكم بفتاة لم تقتل دجاجة من قبل؟ ؟!.. لقد تعلمنا جميعا من الأفلام والمسلسلات والقصص والواقع والخيال و..إلخ أنه لا توجد جريمة كاملة!!.. لكن الأمر يستحق المحاولة.. فلن يفرق معي الموت بسكتة قلبية أم الموت شنقا..

لنفكر الآن.. الأمر يحتاج إلى تخطيط.. تخطيط دقيق جدا.. لقد تعلمت من مشاهدتي للأفلام الأجنبية أن أول سلاح يستخدمه القاتل المبتدئ هو البندقية.. لأنها تسمح لك بإبقاء مسافة كافية بينك وبين ضحيتك.. وكلما تقترب من أن تكون قاتلا محترفا.. تستخدم الأسلحة التي تقربك أكثر من الضحية.. لذا فالسكين هو آخر سلاح تستخدمه عندما تغدو قاتلا محترفا.. لماذا أقول هذا الكلام؟!.. لا أعلم.. إنني أفكر فحسب.. ماذا؟!.. تقولون أنني أفكر كقاتلة ومجرمة ؟!.. نعم.. فأنا لم أولد وفي فمي ملعقة من ذهب!!.. أنا لا أعرف أبي وأمي وعشت وحيدة في هذا العالم القاسي.. وبعدها جاء زوجي ليدمر ما تبقى من حياتي.. فإن كنت مجرمة فتأكدوا أنني عملت بجد

لكي أكون مجرمة!!!!.. تتحدثون عن الجانب الأخلاقي للموضوع؟!.. هناك استثناء لكل قانون.. ستقولون أن كل قاتل يضع لنفسه استثناء؟ !!.. ولكن.. ماذا لو كانت الضحية (زوجي) أسوأ من القاتل (أنا)؟؟.. نعم.. أنا أدافع عن حياتي أولا.. ثانيا أنا سأقتل رجل حقير مجنون.. فلا يمكن أن يكون الحاجز الأخلاقي ملتهبا لهذا الحد.. و..رغم ذلك.. لن يكون الأمر سهلا دون شك!!.. فليرحمني الله.. إنني في مواجهة مجنون.. والأسوأ إنه مجنون وقوي أيضا!!..

إنني وحيدة تماما في البيت ولدي أياما معدودة لأجد حلا لهذا المأزق الرهيب.. يجب أن أخطط لكل شيء بسرعة.. فلا أعرف متى سيعود زوجي.. وهذه مشكلة حقيقية!!..

كان علي أولا أن آخذ القصة من بدايتها وأقوم بتحليل كل الأحداث.. لماذا؟!.. لأنني أخشى زوجي كالموت ذاته.. وأشعر بأنه لا يقهر.. ولو تمكنت من كشف ألاعيبه التي مارسها معي في الأيام الماضية.. فربما سيزيح هذا الكثير من مخاوفي تجاهه.. حسنا.. متى بدأ كل شيء؟!.. بالتأكيد حادثة الكوبرا إياها!!.. إنها لا تنسى أبدا.. لا شك أنه قد أتى بالكوبرا لإخافتي!!.. وقد عرفت فيما بعد أن هناك طريقة يتبعها مروضو الأفاعي في السيرك حتى تصبح أقل خطرا على المروضين والجمهور.. فالأفاعي والزواحف -بشكل عام-تعتبر من الحيوانات ذوات الدم البارد.. أي أن حرارة جسدها تتناسب دائما مع الوسط المحيط بها.. وعندما يحدث هذا فإنها تكون في أوج نشاطها وقوتها.. لذا.. فالطريقة المثلى لتقليل خطر الأفاعي هي تعريضها إلى درجات حرارة منخفضة.. لتصبح حرارتها أقل بكثير من درجة حرارة قاعة الاستعراض في السيرك.. الأمر الذي يؤدي إلى إصابتها بالخمول الشديد.. وبالتالي تقل خطورتها لفترة من الزمن تكفي لأن يقوم المروض بحركاته الاستعراضية دون أي خطورة على حياته ([12]).. بالفعل.. إنني أتذكر جيدا أن الكوبرا كانت تتحرك ببطيء ولم تكن أبدا بالسرعة التي نراها في التلفزيون.. نعم.. لم يكن زوجي سريعا في ردة فعله حين أنقذني منها كما ظننت في البداية.. بل كانت الكوبرا هي البطيئة!!.. ثم.. تذكرت شيئا آخر.. أعتقد أن زوجي قد خطط منذ البداية للإيقاع بي والزواج مني!!.. فالدفتر الذي كان سبب تعارفنا.. يظهر أنه هو الذي كتب اسمي عليه حتى يكون هناك باب للتعارف بيننا بعد أن عرف عني كل شيء وأنني فتاة الأحلام.. وبالطبع لم أكن فتاة أحلامه للأسباب التي قد يظنها أي إنسان.. بل لأسباب أخرى لم تعد تخفى عليكم.

أما عن ذلك الرجل المخيف الذي رأيته في غرفة النوم.. فلا أستبعد أبدا أن يكون زوجي قد استعان بأحدهم بعد أن وضع له بعض الماكياج المخيف المتقن ليحل مكانه في تلك الليلة ويصدر أصواتا غريبة ليوقظني من النوم ويسبب لي رعبا ما بعده رعب!!.. كان يتوقع بالطبع أنني سأصرخ بأعلى صوتي وأهرب من غرفة النوم بعد أن ينتابني الخوف.. عندها سيخرج هذا الرجل من الباب الخلفي للبيت ويظهر زوجي الذي كان مختبئا في غرفة أخرى على الأرجح.. أتذكر الآن جيدا أنه قد خرج ليبحث عني بعد فترة متأخرة نسبيا من هروبي من البيت ووقوعي في شارع الحي من شدة الرعب والإنهاك الذي أصابني كما تذكرون!!.

أما عندما كنت أستيقظ دون أن أجده.. فمن المرجح أنه كان يختبئ في الدولاب مثلا.. وعندما أخرج من الغرفة للبحث عنه.. يخرج هو بدوره من الدولاب لينام في مكانه وكأن شيئا لم يكن!!!.. خدعة بسيطة طريفة لكن لا يمكن أن أكشفها لأنني لم أتوقع أبدا أنه وراء كل ما يحدث!!.

هذا تحليلي للأمور!!.. وهو تحليل بسيط لا يحتاج عبقرية.. ماذا؟!.. انقطاع التيار الكهربائي؟!.. لا أعرف.. هل كانت صدفة؟!.. هل كان أمرا مدبرا منه حتى تأكلني الوساوس ويتوقف قلبي من شدة الخوف؟!.. ربما.. هذا سؤال لا أعرف إجابته..

رحت أبحث بعدها في كل ما يتعلق بزوجي.. لأول مرة أفتش في مكتبته.. أبحث في أوراقه!!.. أبحث في الكتب التي يضعها عند السرير والتي لم ينته من قراءتها بعد.. أو تلك التي يقرأها أكثر من مرة.. فقد أخبرني في أول أيام زواجنا أنه يقرأ بعض الكتب أكثر من مرة بالفعل.. و.. مهلا!!.. ما هذا؟!.. لقد لاحظت شيئا غريبا.. هناك علامة مميزة ومتشابهة تتكرر في معظم الصفحات إن لم نقل كلها تقريبا!!.. ما الذي تعنيه هذه العلامة؟!.. إنها موجودة في كل الكتب التي قرأها زوجي أكثر من مرة!!.. إن هذا يذكرني ب.. يذكرني ب.. يا إلهي!!!.. لقد أوحت لي تلك العلامة بخطة رائعة.. خطة عبقرية.. ستكون.. ستكون الجريمة الكاملة.. نعم.. نعم.. سأرتكب الجريمة الكاملة!!.. شعرت لأول مرة في حياتي أن عيني تبرقان بقوة!!.. تريدون أن تعرفوا ما هي العلامة التي وجدتها على صفحات كتبه؟!.. وما هي الخطة؟!.. ستعرفون كل شيء قريبا!!.. فقط تابعوا معي.. لقد شعرت بثقة متزايدة بالنفس بسبب الاستنتاجات التي توصلت إليها والخطة العبقرية التي قفزت إلى ذهني!!.. سأستخدم جنون زوجي ضده!!.. إنني أتذكر جيدا المقولة الشهيرة: ((كل ظالم يضع نهايته بيده)).. تماما.. سأجعل جنون زوجي يقتله..

ظللت قرابة الثلاثة أيام أفكر وأفكر بخطتي.. والشعور بالتوتر يقتلني لأنني أخشى أن يعود زوجي بأي لحظة وقبل الانتهاء من الإعداد لخطتي!!.. هذا الوغد.. إنه حتى لم يتصل بي منذ أن تركني وحيدة في البيت!!.. ولكن هذا لا يهم.. المهم أن الخطة قد تبلورت بالكامل في ذهني.. لقد كان ينقصها بعض النقاط المهمة.. لكنها الآن اكتملت تماما.. سنرى أيها الوغد.. سنرى من سينتصر في النهاية!!.

وضعت خطتي قيد التنفيذ.. فارتديت قفازا شفافا من النوع الذي يستخدم في الطبخ.. ورحت أقرأ بصورة سريعة العديد من الكتب الخاصة بالراهب الروسي المخيف (راسبوتين) ([13]) التي يمتلكها زوجي لحسن الحظ.. وأضع الكثير من الخطوط الحمراء تحت الجُمل التي شعرت بأنها مهمة في سيرة حياة هذا الرجل!!..

بالمناسبة.. هناك معلومة لا يعرفها الكثيرون!!.. هل تعلم أنه قد ثبت علميا أن المأكولات المعلبة الفاسدة والمنتهية الصلاحية ذات مخاطر جسيمة على صحة الإنسان؟ !!.. فعند فساد أو انتهاء صلاحية الطعام المعلب.. فإن الميكروبات تتوالد داخل العلبة وتفرز سما فتاكا.. وهو أقوى سم عرفته البشرية!!.. إذ يؤثر على الأعصاب ويصيبها بشلل تام.. وتكفي كمية 250 غرام منه لتقتل كل إنسان على وجه الكرة الأرضية!!.. ويطلق على هذا السم اسم: (بوتولينيوم توكسين) (Botulinum Toxin) ([14]).. أعرف أنني أقول كلاما غير مفهوم وجمل غير مترابطة.. ولكن.. أرجوكم الصبر قليلا.. ولتتابعوا معي أحداث القصة.

لقد شعرت أثناء إعداد خطتي أن الحياة تشبه كثيرا مباريات الملاكمة!!.. إذ لا يهم إذا خسرت أربع عشرة جولة.. فكل ما عليك هو أن تسقط منافسك في الجولة الأخيرة وبالضربة القاضية.. ستكون بذلك الفائز الأوحد!!.. وهذا ما سأفعله بزوجي!!.. ضربة قاضية.. وجريمة كاملة لا أصدق أنني أستطيع أن أفكر بارتكابها وأنني قادرة على أن أخطط لها بهذه الصورة المخيفة!!.. يجب أن أشكر زوجي لأنه جعل مني قاتلة محترفة.. أشعر ببعض الخوف دون شك.. لكنهم يقولون دائما: إن خفت.. فلا تضغط الزناد.. وإن ضغطت الزناد.. فلا تخف!!..

العيب الوحيد في خطتي هو أنني لا أستطيع أن أحدد موعد قتل زوجي.. هو الذي سيحدده!!.. آمل ألا يطول انتظاري!!..

و.. عاد الوغد أخيرا بعد أن غاب حوالي أسبوع.. هل كان مسافرا؟!.. هل كان في بيت العائلة؟!.. لا أعلم.. المهم أنه عاد في وقت متأخر جدا من الليل دون أن يقول حرفا واحدا.. بالطبع أديت دورا تمثيليا رائعا.. فقد بدوت له كما تركني تماما.. منكسرة.. حزينة.. منهارة.. مهملة المظهر.. لقد أجدت الدور بحق!!.

قام بوضع حقيبته في غرفة النوم بعد أن ألقى علي تحية باردة وكأنه يبصق بوجهي!!.. ثم ذهب إلى الحمام ليغتسل.. ليتجه بعدها إلى صالة المنزل حيث التلفاز!!.. فتبعته إلى الصالة مترددة.. وجلست بجانبه.. ثم قلت بخفوت:

-هل تريد أن تقتلني؟!.. كيف تستطيع أن تنهي حياة إنسانة بريئة ذنبها الوحيد أنها وثقت بك!!.. كيف.. كيف؟!..

و.. غرقت بعدها في بكاء حزين.. فالتفت إلي ببرود شديد دون أن يرد.. ثم نهض من مكانه وذهب إلى غرفة النوم متجاهلا وجودي تماما.. رائع!!.. هذا ما أريده!!.. أحتاج أن أرى قسوته كاملة في التعامل معي حتى لا أشعر بأي ذنب فيما بعد!!..

نهضت بدوري وتوجهت إلى غرفة النوم أيضا.. ودسست جسدي الهزيل تحت اللحاف.. وزرت عالم الأحلام سريعا بسبب الإرهاق الشديد الذي أصابني من فرط السهر والتخطيط لقتل زوجي طوال الأيام الماضية والتي لم أنم فيها على الإطلاق!!.. نمت بسرعة لم أتوقعها إطلاقا.. وظللت نائمة لنصف ساعة ربما أو أكثر قليلا عندما حلمت بحركة الكون ودوران الأفلاك.. وشعر جسدي بالدوران!!.. ماذا؟!.. ماذا أقول؟؟!!!.. كيف يشعر الجسد بالدوران؟ !!.. هناك شيء غير عادي.. تطلب الأمر ثوان كي أستيقظ وأعي ما يحدث.. هناك.. هناك شيء يزحف تحت اللحاف.. أبعدت الغطاء عن نفسي لأجد ثعبانا مبهرج الألوان يزحف على بطني!!!!!.. صدقوني!!!.. لقد حدث لي هذا بالفعل!!.. انتفضت بقوة ودفعت الثعبان بيدي التي وددت لو أقطعها كونها تلوثت للأبد بعد أن لمسته!!.. هل كان ساما؟!.. لا أعلم.. كان ثعبانا فحسب.. وهذا يكفي كي يبث الرعب في قلوب أشجع الفتيات.. وربما الرجال كذلك!!.. خرجت من غرفتي كالمجنونة.. فوجدت زوجي يجلس في صالة البيت.. التفت إلي بغضب وكأنه يأسف لعدم إصابتي بسكتة قلبية!!..

فصرخت وصرخت ونعته بأشنع الألفاظ.. لكنه لم يفعل شيئا.. كل ما فعله هو أنه دخل الغرفة ليأخذ الثعبان بيده.. ويخرج به إلى ساحة المنزل.. لا شك أنه يحتفظ بثعبان أو اثنين في مكان.. و.. عاد بعدها بلحظات دون أن تبدر منه أي ردة فعل.. فوقعت على الأرض كالعادة!!.. نعم.. بالطبع أصبت بنوبة قلبية جديدة!!.. كنت أشهق بقوة وكأنني ألفظ أنفاسي الأخيرة بالفعل!!.. أما زوجي فقد راح ينظر إلي باهتمام شديد مترقبا موتي.. هل هناك خسة ودناءة أكبر مما يفعل هذا الوغد؟!.. هل يستحق هذا الرجل لقب إنسان أصلا؟!.. لا أعتقد!!..

زحفت بنفسي بعدها إلى أحد أدراج دولاب غرفة النوم لأخذ أقراص القلب و.. دقائق قبل أن يعود قلبي إلى العمل وأسيطر على نفسي.. لأنهض من مكاني ببطء شديد وقد عادت الأمور لوضعها الطبيعي لحسن الحظ.. حيث شعرت أن كل شيء على ما يرام.. لقد لعبت رغبتي في الحياة والانتقام من زوجي دورا قويا جدا في بقائي حية هذه المرة.. فوجود ثعبان يزحف على جسدك أثناء النوم كفيل بإصابة الأصحاء بسكتة قلبية.. فما بالكم بفتاة مريضة مثلي؟ !!.. أما زوجي فقد رأيت ملامح الغضب على وجهه قبل أن يقول بأسف غاضب:

-لا أعرف كيف فاتني إخفاء دواء القلب.. ولكن في المرة القادمة أعدك أنك لن تجديه.. أعدك بهذا!!.

لم أكترث لكلامه.. بل ذهبت إلى الحمام لأغسل وجهي وأنا أتساءل عن الوقت الذي ستستغرقه عملية قتل زوجي.. هذا هو العيب الوحيد في خطتي كما أخبرتكم!!.. إن موعد قتل زوجي يحدده هو.. وليس أنا!!.. وأشد ما أخشاه أن ينجح هو في قتلي أولا.. كان هذا يسبب لي قلقا هائلا.. ولكن.. لحسن الحظ أن انتظاري لم يطل كثيرا.. ففي مساء اليوم التالي فقط وعندما كنت في المطبخ أعد لنفسي وجبة خفيفة.. سمعت شهقة قوية جدا في غرفة المعيشة.. وصوت ارتطام بالأرض!!.. عندها فقط عرفت أن خطتي قد نجحت!!.. خرجت من المطبخ مسرعة لأرى زوجي مستلقيا على الأرض وقد توقفت أنفاسه!!.. فهرعت كالمجنونة أتأكد من موته وجسدي يرتجف بأكمله!!.. إن خطتي تنجح.. بل.. بل نجحت بالفعل!!.. ولكن.. هذه البداية فحسب.. يجب أن أكمل تفاصيل الخطة!!.. التقطت أنفاسا عميقة لأسيطر على نفسي.. ثم ذهبت مسرعة -وكأن شياطين العالم كلها تطاردني -لأخرج كتب (راسبوتين).. وأمسك بأصابع زوجي وأضعها على كل صفحات تلك الكتب حتى تكون بصماته موجودة بغزارة شديدة على جميع الصفحات.. لم يكن الأمر سهلا.. فقد تطلب عمل ذلك ساعة تقريبا لأتأكد أن بصمات أصابعه موجودة على كل الصفحات.. وبعدها قمت بوضع كتب (راسبوتين) في أهم الأرفف الموجودة في غرفة المكتب وبعضها بجوار السرير على الطاولة الصغيرة!!.. ثم أخذت الكتاب الذي كان يقرأه قبل أن يسقط ميتا مع بعض الكتب الأخرى.. وأخفيتها كلها في خزان المياه في سطح المنزل!!.. بالطبع أنتم لا تعرفون لماذا أفعل كل هذا.. ستفهمون كل شيء لاحقا.. لكن دعوني أكمل لكم ما حدث أولا..

ذهبت بعدها إلى غرفة مكتبه ووضعت في أهم أدراج المكتب قارورة صغيرة ستعرفون محتواها لاحقا أيضا.. ثم جريت مسرعة للقيام بالخطوة الأخيرة.. الاتصال على الرقم الرهيب.. 7.. 7.. 7.. و:

- آلو.. الحقوووووني.. زوجي واقع على الأرض ولا يتنفس.. أرجوكم أنقذوووني.. هيييييييييييييه..

رحت بعدها أبكي بكاء حقيقيا !!.. إن الأمر ليس سهلا على الإطلاق.. فلست قاتلة بالفطرة مثلا!!.. كنت أبكي من هول الموقف وليس بسبب موت زوجي!!..

بعد قرابة النصف ساعة كانت دوريات الشرطة متوقفة بالقرب من باب البيت مع سيارة إسعاف!!.. وبعد أخذ جثة زوجي وفحصها من قبل الطب الشرعي.. حدث ما توقعته وما كنت مستعدة له تماما!!!.. استدعاء من المخفر للتحقيق بعد أيام قليلة من موته..

ذهبت إلى المخفر حزينة يائسة بشكل تمثيلي رائع.. و:

-كيف مات زوجك ؟!..

سألني المحقق وكأنه يقول:

-نحن نعرف أنك القاتلة.. اعترفي فحسب أيتها الحقيرة..

فقلت له وعلامات الحزن تملأ ملامحي:

- لا أعلم.. لقد كنت في المطبخ أعد العشاء لي ولزوجي.. وعندما انتهيت وذهبت إلى غرفة المعيشة.. وجدته هناك ملقيا على الأرض!!.. صرخت وصرخت في هستيريا وقمت بمحاولات

يائسة لإنعاشه.. لكنه لم يستجب.. فاتصلت بالطوارئ..

نظر إلي بشك ثم سألني قائلا:

-هل تعرفين كيف مات زوجك؟!..

نظرت له باستغراب والدموع لم تفارق عيني:

-لا!!..

-لقد مات مسموما!!.

اتسعت عيناي بدهشة مصطنعة وشهقت بقوة.. فسألته بحدة:

-كيف ؟!..

-نحن من يسأل هنا ولست أنت.. كيف وصل السم إلى جسده ؟!.. لقد مات بمادة شديدة السمية..

قلت له ملتاعة وباستغراب تمثيلي أستحق عليه جائزة:

-لا أعلم..

نظر إلي في شك!!.. ثم سكت قليلا وعيناه تنظران إلى أبعاد أخرى.. ليلتفت إلي فجأة وبصورة جعلتني أرتبك قليلا.. ليقول آمرا:

-حدثيني عن نفسك قليلا..

فأخبرته بكل شيء عن حياتي الخاصة وبكل صراحة.. فهذه أمور سيعرفها إن عاجلا أم آجلا.. ثم سألني السؤال المعتاد:

-هل كانت هناك أي مشاكل بينك وبين زوجك؟ ؟!..

قلت له ببراءة مصطنعة:

-إطلاقا.. لقد كنا متحابين.. ثم إنه أنقذني من قسوة المجتمع وتزوجني.. أنت تعرف أن الزواج من لقيطة أمر لا يفعله الكثيرون!!.. إنها شهامة لا يملكها الكثير من الرجال!!..

لم يهتم لهذا الكلام.. إذ سألني مباشرة:

-هل لاحظت أي تصرفات غريبة على زوجك مؤخرا؟!..

كدت أطير فرحا لهذا السؤال.. فهو السؤال الذي كنت أنتظره على وجه التحديد!!.. لكني رغم هذا أخذت وقتي في التفكير.. فهذا جزء من الخطة.. قلت للمحقق ببطء شديد وكأنني أحاول أن أنعش ذاكرتي:

-لقد.. لقد كان رحمه الله مولعا بشخصية (راسبوتين)!!.. الراهب الروسي المعروف.. فكان يقرأ كتبه طوال الوقت تقريبا ولا يتوقف عن الحديث عنه.. ثم..

سكت قليلا وكأنني مترددة فيما أريد قوله.. فقال بلهفة يشوبها الشك:

-ثم ماذا؟ !!..

-ثم إنه كان يتحدث كثيرا عن الطريقة التي كان يتعاطى بها (راسبوتين) السم..

نظر إلي وكأنه لم يفهم.. بالطبع يا عزيزي المحقق.. لكنك ستفهم كل شيء.. كما أريدك أنا أن تفهم!!.. فأخبرته بما أعرفه:

-لقد كان زوجي يتحدث كثيرا عن عظَمَة (راسبوتين).. ويقول أن هذا الرجل كان يتناول السم بجرعات محددة.. حتى اعتاد على أكله ولم يعد يؤثر به ([15])!!

-وهل تعتقدين أن زوجك قد قام بتناول السم مثلا لتقليد (راسبوتين)؟!.. هل تظنيني أحمق كي أصدق كلاما كهذا؟!..

كدت أن أقول له:

-نعم.. أظنك أحمق!!..

لم أقل هذا بالطبع.. بل قلت له بحزم يشوبه الحزن:

-لا أعتقد شيئا.. أنت سألتني عما أعرفه وأنا أخبرتك بما أعرف..

لم يجد ما يقول أمام كلامي.. فسألني السؤال الذي يسأله كل محقق على وجه الأرض:

-هل هناك أشياء أخرى تودين إضافتها؟!..

كنت أضحك في داخلي وكدت أقول له كما قال (عادل إمام):

-أضيف؟!.. أنا أضيف؟!.. دنا غلبااااناااا

بالطبع أيضا لم أقل هذا.. لكني قلت له بصراحة يشوبها الحزن الشديد:

-هناك العديد من كتب السحر في مكتبة زوجي.. كتب سحر قديمة جدا.. لقد كان رحمه الله مولعا بقراءتها هي الأخرى!!.. كما أن له دفتر مذكرات يكتب فيه ملاحظاته وجميعها تتحدث عن تجارب غريبة قام بها بنفسه لمعرفة أسرار الروح!!..

انتفض بقوة عند هذا الكلام.. فقال باستغراب شديد مستنكرا:

-أستغفر الله العظيم.. ما هذا الهراء؟!.. ثم.. كيف عرفت كل هذا؟!..

قلت ببساطة:

-هو أخبرني بكل شيء؟ ؟!..

-ولم يزعجك هذا ؟!..

رددت بعصبية متعمدة:

-أنا لقيطة.. لقيييييطة.. فخيارات الزواج ليست متاحة لي كما هو الحال مع الفتيات..

سكت عند هذا الحد.. فطلب مني الرحيل إلى البيت مع ضرورة البقاء في البلد علهم يحتاجوني في تحقيقاتهم.. هذا أمر معتاد وطبيعي جدا.

أمر المحقق بعدها بإرسال فريق من المباحث لتفتيش البيت والتأكد من صحة ادعاءاتي.. فوجدوا في أحد أدراج مكتب زوجي قارورة صغيرة تحوي سما خالصا وتوجد بصمات أصابعه عليه.. بالطبع.. فعندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة جئت بالقارورة ووضعتها في يده لتمتلئ ببصماته.. ثم أخذتها ووضعتها في أهم أدراج مكتبه!!.. كما وجد رجال الشرطة كتب (راسبوتين)

التي وضعتها في أهم الأرفف في مكتبة زوجي مع العديد من كتب السحر المخيفة.. مع صفحات من مذكراته التي تدل على جنونه ومحاولاته الخرقاء لكشف أسرار الروح كما كان يدعي هذا الأحمق!!.. طبعا بعد أن مزقت منها الأجزاء الخاصة بكل ما يرتبط بي..

استمرت التحقيقات أسابيع قليلة إلى أن أعلنت المباحث الجنائية أن زوجي قد مات متأثرا بسم تناوله هو.. وأنه كان يمارس أنشطة مشبوهة مرتبطة بالسحر.. و.. خرجت (لينا) من تلك القصة كفتاة حرة غنية لا ينقصها شيء سوى الهجرة والبدء بحياة جديدة!!!.

كيف خططت لقتل زوجي؟!.. لقد بدأ كل شيء عندما لاحظت وجود علامة مميزة في أماكن متشابهة في معظم صفحات الكتب التي قرأها زوجي أكثر من مرة.. هل تذكرون هذا الكلام؟!.. من المؤكد أنكم جميعا تساءلتم.. ما هي هذه العلامة المميزة؟!.. سأخبركم الآن.. فعندما رأيت تلك العلامة.. تذكرت رواية (اسم الوردة) أو (The Name of the Rose) للفيلسوف الإيطالي المعاصر (أومبيرتو إيكو) (Umberto Eco) والتي قرأتها كثيرا.. ففي تلك الرواية يقوم القس بالتحقيق في سر موت الرهبان وخاصة بعد زيارتهم لمكتبة الدير!!.. وفي النهاية يكتشف أن رئيس الدير كان يضع السم على أوراق بعض الكتب التي كان يخشى أن يقرؤها الرهبان.. وكان أولئك الرهبان كمعظم كبار السن الذين عندما يقرأون الصحف.. يلحسون إبهامهم كل مرة قبل أن يقلبوا الصفحة!!!.. فانتقل السم إلى أجسادهم وماتوا!!..

لماذا فكرت بهذه القصة؟!.. لأن زوجي كان يلحس إبهامه في كل مرة يقلب فيها الصفحة كما يفعل الكثير من الناس.. نعم.. هذا هو سبب تكرار تلك العلامة على جميع صفحات كتبه التي قرأها أكثر من مرة.. إنها علامة إبهامه المغطى باللعاب.. هنا واتتني تلك الفكرة الجهنمية لقتله.. أن أطبق ما حدث في الرواية تماما!!.. إنها طريقة رائعة لقتله دون شك!!.. ولكن كانت هناك مشكلة.. فمن أين سآتي بالسم؟ ؟!.. ثم تذكرت تلك المادة السامة التي تسمى بال(بوتوليزم) والتي تنتج عن المعلبات منتهية الصلاحية.. ففي أيام زواجنا الأولى وقبل أن أكشف نوايا زوجي الخبيثة.. وجدت في مخزن المؤن الكثير من العلب منتهية الصلاحية منذ ثلاثة أعوام أو أكثر!!.. إن هذا يحدث في كل البيوت تقريبا عندما نركن الطعام المعلب لفترة طويلة من الزمن وننسى وجوده في المخزن!!.. خاصة في بيت شخص أعزب يعتمد على تنظيف الخادمة لمنزله مرتين أسبوعيا كما علمتم..

لحسن الحظ أنني قرأت عن تلك المادة وعن خطورتها.. فقمت بعدها بدهان صفحات جميع الكتب التي يقرأها زوجي بتلك المادة السامة وبكميات بسيطة جدا!!!.. كانت عملية مرهقة جدا استغرقت ساعات طويلة.. والأسوأ أنني لم أعلم أبدا متى سيقرأ زوجي أحد تلك الكتب.. ومتى سيلحس إبهامه ويتأثر بالسم!!.. لكنه لحسن الحظ لم ينتظر طويلا.. إذ مات بعد يومين فقط من عودته من السفر وهو يقرأ أحد تلك الكتب.. وعندما تأكدت من موته.. أخذت جميع الكتب التي دهنت أطراف صفحاتها بتلك المادة السامة وألقيت بها في خزان المياه في سطح المنزل.. وهكذا انتصرت على زوجي بالضربة القاضية وقتلته..

لماذا لم أقتله بوضع السم في الأكل بدلا من كل هذه التعقيدات؟!.. لأن هذا كان سيجرني إلى التحقيق ويضعني في دائرة الشبهات كوني المسئولة عن إعداد الطعام في البيت بطبيعة الحال..

وبالطبع لم تنته القصة عند هذا الحد!!.. فقد جاء اليوم الذي توقعته وانتظرته بفارغ الصبر أيضا.. حين زارني شقيق زوجي بعد الإعلان عن سبب موت زوجي بأيام قليلة.. كانت هذه المرة

الأولى التي أراه فيها.. لكنه رغم ذلك صافحني باشمئزاز!!.. ودخل إلى البيت بوقاحة ومن دون استئذان ليتحدث إلي قائلا:

-أنا الوحيد بين أخوتي الذي يعلم أن أخي قد تزوجك سرا.. رغم أنني كنت أرفض تماما فكرة زواجه من فتاة لقيطة.. والآن بعد موته.. أريدك أن تبتعدي عن عائلتنا تماما ولا نريد أي صلة بك.. وكل ما ذكرتيه للشرطة سيكون سرا!!.. ومقابل هذا فسأعطيك الفيلا مع مائة ألف دينار ثمنا لسكوتك.. إنني أخشى الفضيحة.. لا أريد أن يعرف الناس أن أخي قد تزوج بفتاة وضيعة مثلك.. أما إذا فكرت بفضح زواجه منك أو قمت بابتزازي.. فعندها سأطبق مبدأ: «علي وعلى أعدائي».. وأقسم لك بأنك ستدفعين الثمن غاليا.. إن لدينا نفوذا كبيرا.. و..

الكلام الممل الذي يستعرضه كل من يدعي القوة في هذا البلد!!.. لم أقل شيئا على الإطلاق رغم إهاناته الواضحة.. بل وافقت دون تردد.. بل ووعدته بمغادرة (الكويت).. وإلى الأبد.

لقد تعلمت من تجربتي تلك أن أكون قطة!!.. فالقط يعيش في سلام دائم.. لكنه لا يتردد لحظة في إشهار مخالبه عند أدنى إحساس بالخطر!!.. كما أدركت أنني لست ضعيفة إطلاقا.. بل ولا يوجد إنسان ضعيف.. ولكن يوجد إنسان يجهل في نفسه موطن القوة!!.. أرجوكم أن تتذكروا هذا.. وتعلمت أيضا أن الله سبحانه وتعالى يهب الطيور غذاءها.. لكنها لا بد أن تطير حتى تصل إليه!!.. وها أنا قد طرت لأحصل على غذائي..

من المؤسف أن الناس الطيبين يقومون بأفعال مريعة أحيانا.. لكن هذا أمر حتمي.. حتى نستطيع الحياة في هذه الغابة.. فالعالم ليس أقواس قزح وشمس ساطعة وأزهار بيضاء.. العالم قاس جدا.. ومهما كنت قويا.. مهما كنت شرسا.. فلا بد أن تخضع يوما لقسوة هذا العالم وتنهار.. المهم أن تنهض مرة أخرى وتقاتل كما فعلت أنا!!.. المهم أن توجد الإرادة.. سأتذكر ألا أفقد الأمل أبدا بوجود الإرادة.. وأن للأمور دائما جانبا مشرقا.. فحتى عندما تتمزق الأوتار.. يصدر شيء من النغم!!.

أما أهم ما تعلمته هو أن الإنسان المستقيم الذي يراعي القوانين ويحترم الناس يُعامل دوما بقلة احترام واستهزاء.. يعد ساذجاً أحمق غبياً لا يفهم شيئا!!.. ولكن الشرير صاحب المشاكل يحترمه الناس ويحسبون له ألف حساب مع كل أسف.

ولا أنسى أهم ما حدث بعد ذلك.. عندما استغفرت ربي كثيرا لمحاولة انتحاري.. فقد شعرت بذنب كبير.. لقد كان من الممكن أن أموت في أي لحظة من هول أحداث هذه القصة العجيبة.. لكن الله رأف بحالي أكثر من مرة وأنقذني من الإصابة بسكتة قلبية.. ورغم ذلك فقد أردت أن أنهي حياتي بنفسي.. الحمدلله على كل حال.. الحمدلله.

و.. شيئا فشيئا بدأت أعيش حياتي الطبيعية وأستعد للرحيل بعد أن أعطاني شقيق زوجي المبلغ وقام بتحويل وثيقة البيت باسمي.. حيث قمت بعدها بأيام قليلة ببيع البيت وسأسلمه إلى أصحابه الجدد خلال أسبوع.. سأترك هذا البلد الذي لا يربطني به أحد مع الأسف.. وسأهاجر إلى (دبي) خلال أيام قليلة من الآن.. حيث سأنعم بالمال وألتحق بإحدى الجامعات لأكمل دراستي وأواصل حياتي التي أحلم بها.

لقد شعرت بوحدة قاتلة خلال الأيام الماضية.. وبرغبة قوية جدا بالصحبة الآدمية.. خاصة بعد أن شعرت بدفئها في بداية زواجي.. عندها فقط أرسلت هذه الرسالة الإلكترونية العشوائية إلى آلاف الناس.. أرسلتها على سبيل المتعة والمرح.. غير متوقعة إطلاقا أن أجد الرد منكما.. وأن

نجلس سويا هكذا.. لقد شعرت من خلال ردودكما وتواصلكما معي عبر البريد الإلكتروني أن لدي كل منكم ما يريد قوله بالفعل!!.. كما شعرت أيضا أنه لا بد لهذا السر الذي يثقل كاهلي من الخروج حتى لا أنفجر.. فاحتفاظي بسر كهذا أمر مرهق جدا.

ستبلغون الشرطة؟!.. لا أعتقد.. تعرفون جيدا ما فعله زوجي معي.. كما أنني ما زلت أحتفظ بكل مذكراته حتى تقرأوها وتعرفوا أي وغد كان.. وإنه يستحق الموت فعلا.. فقد كانت كمية الإيذاء التي سببها لي أكبر من وصفها.. وأنا لم أقتله إلا لأنه كان يريد قتلي أولا!!.. لن أتمنى له الذهاب إلى الجحيم لأنه كان يعيش فيه أصلا بأفكاره وتجاربه المنحرفة!!.. لم يعرف زوجي أن المرأة كالبندقية.. إن أجدت الإمساك بها ملكت عالمك.. وإن فقدت السيطرة عليها أرسلت رصاصتها إلى قلبك!!.. أنا نفسي كنت أجهل هذه الحقيقة.. كما كنت أجهل أن الجريمة ليست سوى باب يفتحه المجتمع ويعاقب من يدخله!!.. مع الأسف.. تضطر أحيانا كثيرة إلى تغيير بعض مبادئك لتساير الحياة.. وإلا سحقك من هم أقوى منك.

لقد تركت الماضي الآن.. ولكن هل سيتركني هو؟؟.. لا أدري.. فقد رأيت أهوالا لا تحصى في زواجي هذا.. إنني أصرخ في عز نومي وأقفز من السرير!!.. ثم ألهث بقوة وأحاول أن أهدأ وأذكر نفسي بأنني انتصرت وانتهى كل شيء مع هذا الوغد.. أتمنى بحق أن يتركني الماضي كما تركته.. خاصة وأن مستقبلا مشرقا ينتظرني خارج (الكويت).. حياة جميلة سأعيشها وأستمتع بها بعيدا عن كل ما عشته هنا.. حتى أنسى تلك الأيام التي لا تنسى.. أيام مع الخوف!!.

القصة الثانية:

أخوة الدم

يحكيها: خالد سليمان ال...

انتهيت من قصتي.. والتفت ناحية الضيفين.. و:

-أعتذر للإطالة.. وأتمنى أن تكون قصتي قد راقت لكما.. قد تكون قصة ممتعة لمن يستمع إليها.. لكنها كانت كابوسا حقيقيا بالنسبة لي.. والآن جاء دوركما.. لقد طلب السيد (سالم) أن يكون آخر المتحدثين.. لذا سنفسح المجال لتروي لنا تجربتك يا (خالد).. اسمك (خالد).. أليس كذلك؟!..

-نعم.. (خالد).. (خالد سليمان ال...).. ولكن قبل كل شيء.. أريد أن أشكرك كثيرا يا (لينا) على استضافتك لي.. حقيقة أشعر بجو عائلي حميم هنا رغم أنني ألتقي بكما لأول مرة في حياتي.. بالمناسبة.. لقد كانت قصتك غريبة جدا يا (لينا).. وقد شدتني أحداثها حتى شعرت أنني عشتها معك لحظة بلحظة.. وحقيقة أهنئك على خروجك من هذا المأزق الرهيب بذكاء قلما نشاهده في عالم الواقع.. ولكن لا تخشي شيئا.. أنا عن نفسي لن أخبر أحدا بما حدث مع زوجك.. فهو يستحق بكل تأكيد ما جرى له..

سكت قليلا قبل أن يقول بأسف:

-أما عن قرارك بشأن الهجرة.. فلن ألومك عليه.. لأن هذا البلد الذي نعشقه حتى النخاع ينحدر بالفعل.. ينحدر بشكل مخيف وعلى جميع الأصعدة!!.. والأسباب معروفة.. لكن لا أحد يريد أن يتحرك ويوقف المفسدين عند حدهم.. عموما.. لن أطيل عليكما بآرائي السخيفة.. وسأبدأ بسرد أحداث تجربتي المريرة التي عشتها قبل ثلاث سنوات تقريبا وتركت في نفسي أثرا لا ينمحي أبدا.. والواقع أن قصتي -رغم غرابتها-ليست تجربتي الوحيدة في عالم الغموض والرعب.. فقد مررت في حياتي القصيرة بتجارب وأهوال أخرى لا يصدقها عقل.. وتحدثت عنها بالتفصيل من خلال كتابين منفصلين حملا اسم (الأبعاد المجهولة) و(الأبعاد المجهولة 2) ([16]).. مهلا!!.. إن قصتي القادمة ليست جزءا ثالثا لـ(الأبعاد المجهولة).. فالقصة ذات الأجزاء هي التي لا يكتمل معناها إلا في الجزء الثاني أو الثالث.. أما قصتي القادمة فهي مكتملة ولن تتطلب منكما الاطلاع على تجاربي السابقة.. ولكن.. للذين يقرأون لي لأول مرة.. يجب أن أعيد بعض المعلومات الأساسية عن شخصي المتواضع.. والتي سبق وأن طرحتها في كتاب (الأبعاد المجهولة) بجزئيه.. لذا أرجوكما أن تفسحا لي المجال الآن لأبدأ بسرد قصتي.

إنني شاب في الثانية والعشرين من العمر.. بينما قصتي هذه قد حدثت لي منذ ثلاثة أعوام تقريبا كما ذكرت لكما.. عندما كنت في التاسعة عشر من العمر.. والواقع أنني لا أختلف عنك كثيرا يا (لينا).. فآرائي في الحياة مشابهة إلى حد ما لآرائك.. بل إن ظروفي لا تختلف كثيرا عن ظروفك أيضا.. فأنا يتيم الأبوين أيضا.. إلا أنني-بالمقابل-عشت طفولة جميلة للغاية لم أعرف فيها معنى اليتم.. والسبب هو أحب وأطيب امرأة عرفتها في حياتي والتي أدين لها بكل شيء تقريبا.. جدتي الحبيبة (فاطمة).. وهي امرأة مسالمة وديعة طيبة القلب فعلت كل ما تستطيع من أجل تربيتي..

فكانت تقوم بدور الأم والأب معا.. بل وألحقتني بإحدى أفضل المدارس الخاصة في (الكويت) كي أحصل على أفضل مستوى تعليمي.. خاصة وأن حالتنا المادية لا بأس بها على الإطلاق.. إذ نملك عمارة سكنية اشتراها أبي لجدتي قبل وفاته لحسن الحظ.. ونعيش حاليا من دخلها الشهري.. ولم أكن لأخيب أمل جدتي الحبيبة بعد كل هذه الرعاية.. فكنت أفعل كل ما بوسعي كي أكون طالبا متفوقا لامعا جديرا بأن يوضع اسمي في لوحة الشرف وبشكل متواصل.. وكثيرا ما سمعت أساتذتي يقولون بأنني نابغة.. وعبقري.

وبالطبع فإن هذا قد أدى إلى تخرجي من المرحلة الثانوية بمعدل مرتفع أهلني للالتحاق بكلية الطب في جامعة (الكويت).. والتي ما زلت أواصل فيها مشواري الدراسي بنجاح ولله الحمد.

ويعرف كل الذين قرأوا مذكراتي السابقة أنني إنسان هادئ الطباع أمتلك عالما ذاتيا ثريا.. ومرهف الحس إلى أقصى درجة.. كما أنني قارئ من الطراز الأول.. حيث تعلمت من القراءة المستمرة الهدوء والتواضع.. وهذا جعلني أعيش صراعا رهيبا بين ما يعيشه الشباب من حياة فارغة وضحالة فكر.. وبين ما أرسمه لنفسي كإنسان مثقف متزن أحلم بالحصول على شهادة علمية عليا.. هذا الصراع والإحساس بالغربة جعلاني شخصا انطوائيا مكتئبا متجهما متشائما بشكل دائم.. ربما لهذا تخلو حياتي تماماً من الأصدقاء.. ولو كنا في القرون الوسطى لوجدتموني أعيش في قلعة مهجورة من قلاع (اسكتلندا).. فلا أشاهد أحد ولا يعرفني أحد.

والواقع أنني إنسان ضعيف الشخصية معدوم الثقة بالنفس.. حزين دائما.. بل وخائف دائما.. فعندما يمر علي شريط حياتي.. لا أجد نفسي فيه!!.. هل تتخيلون هذا؟ !!.. لأنني أراقب العالم وأنا مختبئ.. والسبب هو الشعور الدائم بعدم الأمان.. إذ أشعر أحيانا كثيرة أنني سمكة صغيرة تسبح داخل معدة حوت هائل.. فمهما أحاول الهرب.. أظل في بطن الحوت حتى أموت!!.. أريد أن أعيش بأمان.. أريد أن أكون كالقرد الذي لا يترك غصنا أثناء تنقله بين الأشجار قبل أن يمسك غصنا آخر!!.. هذا هو الأمان الذي أبحث عنه ولا أجده..

طوال حياتي أتمنى أن أكون ذلك الشاب المرفوع الرأس المصلوب العود.. كلماته مثل قوامه الفارع.. طالما تمنيت أن أكون وسيما كممثلي السينما.. وأن أكون ذلك الرجل الذي يحتبس الكلام في أي مجلس لدى دخوله.. حتى أضع حدا لكل إنسان لا يكترث لمشاعر الآخرين.. فأنا بركان ثائر من الأفكار والمشاعر.. أرى ما يحدث حولي في العالم من ظلم وليس بيدي أي شيء أستطيع فعله.. فتتكسر الثورة التي أشعر بها على شواطئ النفس وأتذكر أنني شخص ضعيف.. فأنكمش على نفسي أكثر وأكثر حتى أوشك أن أختفي من هذا العالم!!.. إن الحياة بالنسبة لي عبارة عن ألم.. وأنا أحاول أن أتأقلم مع هذه الحقيقة لكن دون جدوى!!..

أما عن صفاتي الشخصية.. فإنني -كما ترون-قصير القامة نسبيا.. هزيل البنية.. ملامحي عادية جدا فلا يوجد ما يميزها أو يجعلكما تنفران منها.. ولولا بعض التحفظ لقلت إنني أقرب إلى القبح من الجمال..

نسيت أن أخبركما أنني أسكن منطقة (الرميثية).. أول حب في حياتي.. فهي المنطقة التي عشت فيها منذ ولادتي وأعرفها عن ظهر قلب.. حيث أشعر أن كل جزء منها له عبق الماضي الجميل - وإن لم أعشه - قبل أن يصبح العالم قاسيا مرعبا كما هو عليه الآن من انتشار الجرائم والمخدرات.. وارتفاع معدل البطالة وغيرها من الأمور السلبية التي لا تخفى على أحد.

ورغم المستقبل المشرق الذي يلوح لي في الأفق بسبب تفوقي الدراسي.. إلا أنني ما زلت أحن كثيرا

إلى أيام الطفولة.. غريب حقا عندما تكون طفلا.. تشعر أن اليوم سيدوم للأبد.. ولكن عندما تكبر.. تشعر أن الأيام تمر بلمح البصر وتأخذ معها كل ما هو جميل!!.. هل الحياة دائما بهذه الصعوبة؟ ؟!.. أم إنها كذلك عندما تكون في سن المراهقة فقط؟!.. كثيرا ما كنت أطرح هذا السؤال على نفسي.. لكني الآن وبعد أن دخلت مرحلة العشرينيات من العمر.. أدركت أن الحياة صعبة.. دائما وأبدا.. حقيقة أتذكرها في نهاية كل يوم عندما أنظر عبر زجاج النافذة ليلا.. وأرى منظرا مركّبا من الظلمة بالخارج وأضواء الداخل.. ذلك المزيج العجيب من النافذة والمرآة معا.. فأرى وجهي النحيل الحليق.. الحزين.. ويزداد داخلي الشعور بالوحدة!!..

هذه هي حياتي.. الكثير من الوحدة.. الكثير من الخوف.. الكثير من الذكريات الأليمة.. الكثير من الإحباطات.. الكثير من الوقت مع الكتب.. والغريب أنني عشت طوال سنوات عمري أياما هادئة جدا لم يكن فيها ما يستحق الذكر.. وحتى بلوغي سن السادسة عشرة.. إذ بدأت حياتي بعد ذلك تتخذ منحنى آخر بسرعة رهيبة.. حتى رأيت ما لم يره شيخ تجاوز عمره المائة!!..

لقد لاحظت أن الكثيرين ممن قرأوا مذكراتي السابقة في كتاب (الأبعاد المجهولة) بجزئيه.. ينتظرون نهاية سعيدة لقصصي!!.. ولهؤلاء الأعزاء أقول.. لا توجد هناك نهايات سعيدة!!.. فالنهايات السعيدة هي قصص لم تنته بعد!!.

هذا كل ما قد يهمكم معرفته عني.. لذا لن أطيل عليكم أكثر من ذلك وسأتحدث عن تجربتي الأخيرة.. فبعد تجارب عشت فيها لحظات لا تنسى من القلق والتوتر والرعب!!.. قادتني الأيام إلى كابوس جديد!!.. إنه كابوس (أخوة الدم).. من هم (أخوة الدم) ؟!.. كيف التقيت بهم؟!.. ومتى؟!.. ولماذا؟!.. فلنتابع.

نحن في أواخر عام 2005.. السنة الأولى في كلية الطب.. ما زلت أذكر جيدا تلك الليلة.. كانت ليلة جمعة.. عندما كنت أذاكر حتى ساعة متأخرة من أجل اختبار الغد.. إن الاختبارات قد لا تخيفني كثيرا لكنها تسمم الجو بما يكفي.. أذكر أنني ظللت ساهرا حتى الواحدة فجرا.. ثم قررت أن أنام حتى أكون في قمة تركيزي في الصباح.. فقمت بضبط المنبه على أن أستيقظ في السابعة صباحا.. كنت أخشى أن أصاب بأرق يوم (الجمعة) الشهير الذي يحدث عادة بسبب الاستيقاظ المتأخر صباح نفس اليوم.. لكني لحسن الحظ غبت في ملكوت النوم بسرعة.. قبل أن أشعر بعدها بساعات قليلة بأنني لست منفصلا بصورة كاملة عن الوجود كما يحدث مع النائمين عادة.. بل إنني نصف مستيقظ!!.. وتدريجيا بدأت أعود إلى عالمنا.. الظلام الدامس يغمر الحجرة عدا مصباح النوم الخافت.. ظللت فترة لا بأس بها في الفراش دون أن أعرف سبب استيقاظي المفاجئ.. هل هو صوت الأمطار التي بدأت تهطل بغزارة في هذا الوقت من العام!!.. لا.. إنها مثانتي الممتلئة الموشكة على الانفجار والرغبة الملحة في الذهاب إلى الحمام!!.. إن أكثر ما يعكر مزاجي هو أن يوقظني مؤثر خارجي قبل أن أكمل ست ساعات من النوم المتواصل.. نظرة عابرة إلى ساعة المنبه الفوسفورية تخبرك أنها الساعة الثالثة صباحا.. وأن الكون كله نائم!!.. أنهض أخيرا وأتجه إلى الحمام.. نظرة عابرة أخرى إلى المرآة وهو أمر نفعله جميعا كلما نستيقظ من النوم دون أن نعرف السبب!!.. ثم أفرغ مثانتي وأعود بعدها إلى الفراش لأندس تحت الأغطية مرة أخرى.. ظللت غارقا في خواطر لا حصر لها قبل أن أشعر بعد نصف ساعة تقريبا أنني عاجز عن النوم رغم الإرهاق الشديد الذي أشعر به.. وبدأت بالفعل أمل الفراش شيئا فشيئا شاعرا بذلك الشعور البغيض.. الأرق!!.

قررت النهوض من الفراش أخيرا على أن أنام بعد العودة من الكلية.. وذهبت لأجلب جريدة اليوم

التي يضعها موزع الجرائد في صندوقها المعلق عند باب الشقة.. قبل أن.. قبل أن أدوس على شيء ما عند عتبة الباب!!.. إنه.. إنه شريط فيديو!!!.. هذا غريب.. من يضع شريط فيديو عند باب شقتي؟؟!!.. ألتفت يمينا ويسارا.. لكن.. لا يوجد أحد بالطبع!!.. مططت شفتي مستغربا.. ثم ذهبت إلى غرفتي والتساؤل عن محتوى الشريط أنساني الأرق تماما!!.

قمت بتشغيل الشريط في غرفة نومي!!.. و.. إنه مجرد تصوير بكاميرا فيديو.. حيث لا ترى المصور نفسه.. إنما تسمع صوت تنفسه العميق!!.. شيء ما في هذا الصوت يجعلك تتمنى ألا ترى وجه المصور أبدا!!.. كاميرا الفيديو تواصل التصوير.. فتخرج من حمام ما وتتقدم ببطء في ردهة تبدو مألوفة.. ما الذي يعنيه هذا؟!.. مهلا.. هذه.. هذه قاعة جلوس بها جهاز تلفزيون.. ثم غرفة نوم يوجد بها شخصا نائما.. وغرفة نوم أخرى حيث تنام فيها بسلام امرأة عجوز طيبة القلب.. لوهلة كنت أنظر إلى شاشة التلفزيون بغباء دون أن أستوعب ما أراه.. ثم شيئا فشيئا بدأ قلبي يخفق بقوة!!.. وبدأ شعر ساعدي ينتصب كما يحدث لي دائما في لحظات الخوف!!.. نعم.. لقد كان هناك شخص ما في شقتي يقوم بجولة متأنية فيها وكأنه يملك كل الوقت في هذا العالم!!!.. فيدخل كل غرف الشقة ويصورنا نياما!!!.. مشهد رمزي صامت بليغ يجعل الدماء تتجمد في عروقك.. متى أتى هذا الدخيل؟!.. وكيف دخل شقتي؟!.. وكيف لم أسمع خطواته؟!.. وأية وقاحة دفعته للدخول والسير في الشقة بهذه الحرية؟ ؟!.. لا أعرف.. ماذا كان تأثير كل هذا علي؟ ؟!.. هذا متروك لخيالكم.. إذ إن الكلمات كثيرا ما تكون قاصرة سخيفة.. ولكن لا بد لي أن أعترف حقا أنني إنسان جبان إلى حد مروع.. لأنني ببساطة ظللت أنتفض في مكاني دون أن أجرؤ على التحرك!!.. فلا أدري كم من الوقت قضيته جالسا على الفراش مذهولا مصدوما وقلبي يتواثب كالحصان في صدري!!.. لقد.. لقد كنت نائما كدب قطبي.. بينما هذا الدخيل يجول في شقتي كيفما يشاء!!..

ذهبت بسرعة إلى الحمام ووضعت رأسي تحت صنبور المياه التي تركتها تغسل وجهي وشعري وروحي نفسها حتى أستعيد توازني!!.. إذ شعرت أنني على وشك الإغماء.. فقد انتابني الهلع.. وتلاشى أي أثر للإرهاق والأرق من جسدي!!.. فالإرهاق ترف يحتاج إلى بال رائق!!.. أما الآن فقد أصبحت متحفزا كأفعى بعد أن شاهدت ذلك الشريط!!.

إن بيوتنا هي قلاعنا وملجأنا.. وإذا عرفت أن هناك شخصا يجول بحرية في بيتك أثناء نومك.. فسيتهشم حاجز الأمان والخصوصية ويصبح البيت عندها كالكابوس.. و.. أخيرا قررت التصرف.. نهضت مرتجفا متجها إلى باب الشقة.. أنظر إلى قفل الباب.. لا.. لم يتم أي نوع من الاقتحام.. إن باب الشقة قد فتح بمفتاح!!.. هذا مؤكد.. الدخول من الشرفة؟ !!.. مستحيل طبعا لأنني أقفلها عند نومي.. ولا أعتقد أن جدتي أو الخادمة قد لاحظتا شيئا وإلا لملئتا الدنيا صراخا!!..

رحت بعدها أفتش في كل مكان في الشقة وأبحث حتى في حذائي!!.. لقد بدأت الوساوس تلتهم قلبي التهاما بسبب شريط الفيديو اللعين هذا!!.. المشكلة أنني لا أستطيع الذهاب إلى مخفر الشرطة.. فالساعة الآن تقترب من السابعة.. ولدي اختبار في الثامنة!!.. أخشى أن أذهب إلى المخفر فأتأخر عن موعد الاختبار!!.. لذا قررت الذهاب إلى الكلية أولا.. ومن ثم الذهاب إلى مخفر شرطة منطقة (الرميثية) حيث تعتبر هذه الجريمة الغريبة في نطاق مسؤوليتهم!!.

كانت جدتي قد استيقظت وبدأت -كعادتها-تعد مع الخادمة طعام الإفطار.. ألقيت عليها التحية محاولا أن أخفي كل ما في داخلي من انفعالات وقلق وترقب و.. إلخ.. وها أنذا جالس معها على مائدة الإفطار.. حيث راحت تقطع لي بعض البرتقال مصرة على أن الفواكه مفيدة جدا في

الصباح.. بالطبع لا أجرؤ أن أجرح مشاعرها.. فلا بد أن آكل كل ما تقدمه لي..

خرجت بعدها من الشقة متثاقلا وقد أخفيت شريط الفيديو بين كتبي كي لا تراه جدتي!!.. أدرت محرك السيارة الكسول بفعل الجو البارد.. وذهبت إلى الكلية.. حيث مرت الساعات هناك وكأنها دهرا!!.. لأنني كنت متلهفا بحق للانتهاء من كل شيء كي أذهب إلى مخفر الشرطة!!.. فما إن انتهيت من الاختبار ومن محاضراتي.. حتى توجهت بعدها كالمجنون إلى مخفر شرطة (الرميثية).

جلست هناك أمام الضابط.. فنزعت نظارتي التي بت أرتديها بكثرة مؤخرا.. ورحت أفرك عيني من فرط الإرهاق والسهر!!.. لست أعلم رتبة هذا الضابط.. فلست خبيرا في هذه الأمور!!.. لكنه بدا صغيرا في السن قياسا للضباط الذين نراهم في التلفزيون.. أخبرته بكل شيء وبصوت مرتجف ينم عن خطورة الأمر.. فمط شفتيه مستغربا وقال:

-إنني لم أسمع يوما عن أمرا كهذا!!..

ثم سكت قليلا.. ليردف بحسم:

-فلنشاهد الشريط قبل كل شيء.. ثم نتحدث..

أخذ مني الشريط ونهضنا معا إلى غرفة أخرى في المخفر تحوي تلفزيون وفيديو.. و.. نعم!!.. تماما بالضبط كما توقعتم!!!.. أنا شاهدت الشريط بنفسي في غرفتي!!.. فكيف أصبح الآن خال لا يحوي سوى صورة استاتيكية كناية عن خلوه من أي تسجيل؟؟!!.. هذه تيمة شهيرة جدا وتحدث لنا جميعا!!.. ابحث عن كتابك في أول الرف.. فستجده في آخر الرف!!.. خذ سيارتك إلى الميكانيكي ليسمع الصوت الغريب الذي ينبعث من المحرك.. لكنه لن يسمع شيئا!!.. لن يسمع الصوت سواك عندما تكون بمفردك في السيارة!!.. في الأفلام دائما الحرائق تحدث في الطابق الخامس عشر.. لماذا لا يحدث شيء في الطابق الأرضي مثلا؟ ؟!.. لأن الحياة معقدة فعلا!!..

كنت على وشك البكاء!!.. وراحت شفتاي ترتجفان!!.. نظرت للضابط في حيرة وضياع.. وعجزت عن إضافة كلمة أخرى.. ولولا بقية وقار لارتميت على الأرض أمامه وبكيت بانهيار.. ما الذي يحدث هنا؟ ؟!.. لا أدري.

وعبثا حاولت إقناعه بما شاهدت في شريط الفيديو.. لكن الضابط أصر على عدم وجود أي دليل على كلامي.. لذا فلا توجد قضية أصلا!!.

وأخيرا.. قال لي في حدة لم أفهم سببها:

-على كل حال لم يسرق ذلك الدخيل شيئا من شقتكم!!.. ربما تكون مزحة ثقيلة أعدها لك أحد أقربائك!!..

قلت له بعينين دامعتين شاعرا أنني مظلوم إلى حد لا يوصف:

-لا يوجد لي أقارب.. ثم إن هناك شيئا مهما قد سرق مني بالفعل.. الإحساس بالأمان.. لا أطيق أن أتصور أن متسللا كان في غرفتي.. بينما أنا وجدتي نائمان لا نعي ما يدور حولنا!!.

فأشاح الضابط بوجهه وكأنه يقول:

-لا يوجد دليل على صحة كلامك!!.

عدت إلى البيت مهموما أعض على شفتي قهرا.. وبدأ ذلك الشعور الحزين ينتابني كما يحدث دائما عندما أقع في ورطة!!.. الوحدة!!.. حقا أنني وحيد.. وحيد إلى حد مروع!!.. ليت لي أحدا ألجأ إليه.. كل أسرة في (الكويت) تحوي محاميا وطبيبا وضابط شرطة.. إلا أسرتي أنا.. لأنه ليس لدي أسرة أصلا سوى جدتي الحبيبة!!.. إنني ضعيف.. لا أستطيع مواجهة العالم.. فكيف أحمي نفسي وأحمي جدتي من هذه الأشياء.. كيف؟!.

حاولت بعد ندب حظي أن ألملم شتاتي وأسيطر على أعصابي!!.. وذهبت بعدها إلى غرفة المعيشة لأجلس مع جدتي التي كانت تشاهد أحد الأفلام العربية القديمة.. أما أنا فكنت مرهقا بشدة بسبب الأرق الذي أصابني ليلة أمس.. كما أن الخواطر والأفكار السوداء كانت تلتهمني التهاما!!.. فاستأذنت جدتي بعد قرابة الساعة.. وذهبت لأتأكد من أن باب الشقة موصد بإحكام.. لأحتضن الوسادة بعد ذلك وأقرر شراء ترباس لباب الشقة غدا.. ثم بدأت أفكر في أشياء مبهجة.. مثل ماذا؟!.. مثل ماذا؟!.. لقد نمت وأنا أفكر!!!.

في اليوم التالي.. بدأ المسلسل الروتيني المعتاد.. الذهاب إلى الكلية.. المحاضرات.. قضاء بعض الوقت مع الدكتور (وليد).. ماذا.. تسألونني من هو الدكتور (وليد)؟!.. المعذرة.. لقد أنساني الحادث المخيف الغامض الذي تعرضت له في الأمس أن أحدثكم عن هذا الرجل الذي قلما يجود الزمان بمثله.. فهو بطل قصتي بلا منازع.. وشخصية رائعة بحق.. إنه دكتور في الجامعة.. رجل طويل القامة قوي البنيان.. يرتدي بذلة أنيقة دائما فيبدو لي أحيانا كثيرة وكأنه يشغل أهم منصب في العالم.. ويقول عنه الطلبة أنه ينافس الساعات السويسرية في الدقة والأناقة.. ولا أنسى بالطبع شعره الأبيض الذي زاده هيبة ووقار.. لا.. ليس شيبا عاديا كما تظنون.. إنما هو أمر يتعلق بالجينات على الأرجح.

كان الدكتور (وليد) يروق للطالبات باعتباره الرجل الكامل الرجولة!!.. إن في كل رجل جزءا من الأنوثة!!.. وهذه حقيقة يرددها علماء النفس ليلا ونهارا!!.. لذا فيعتبر الدكتور (وليد) بالفعل حالة فذة غير معتادة.. إنه من النوع الذي يفكر لبضعة قرون ثم يقول كلمة.. ثم يتأمل بضعة قرون ويقول كلمة أخرى.. مع إيماءات أنيقة مليئة بالكبرياء.. كلها أمور جعلتني أنظر له باحترام شديد وأشعر بأنه كل ما أتمنى أن أكونه في هذا العالم.

كنت طالبا مقربا جدا إليه.. أقضي معه ساعات طويلة في مكتبه نتحدث فيها عن كل شيء تقريبا!!.. ولم يكن يفتح فمه إلا ليعلمني شيئا جديدا.. مما جعلني أسير ورائه مفتونا.. وكنت أعشق محاضراته.. فالرجل ذو علم ومعرفة حقا.. واهتماماته مثيرة بلا شك.. ولم يكن يعيبه سوى اعتداده بنفسه الذي يفوق الحد.. مع عيب آخر لم ألاحظه في البداية.. إنه يحدق بالناس كثيرا عندما لا يكونون منتبهين لهذا!!.. فلا يفوتني أن ألاحظ أنني إذا ما حولت نظري إليه فجأة أجده يرمقني في ثبات بعين لا تطرف!!.. فيشعر بالإحراج ويبتسم!!.. والأمر شبيه بما يفعله بعض الرجال عندما يحدقون في موظفة البنك عند انشغالها بإجراء المعاملة!!.. فهي بالنسبة لهم فرصة لا تعوض كي يتأملوا ملامحها بعناية ودقة دون أن يصطدموا بعينيها!!..

لقد عرفت من الدكتور (وليد) أنه أصيب باكتئاب مزمن بعد عودته من (بريطانيا) حيث درس هناك في إحدى جامعاتها!!.. فكان يتشاجر مئات المرات يوميا.. ويصيبه الذهول من كم الزحام والبيروقراطية وصعوبة عمل أي شيء في (الكويت).. فحتى الذهاب إلى السينما أمر معقد يحتاج إلى تخطيط وربما ضياع يوم كامل بسبب الازدحام المروري الهائل!!.. يقول كذلك أنه كان مصدوما من غرف المستشفيات ب(الكويت) فمعظمها بلا جدران حتى تشعر أنك تعالج قطيعا

من الماشية!!.. لا يتحدث هنا عن خصوصية المريض فحسب.. بل خصوصية الطبيب أيضا.. كيف تمارس عملك بينما يراقبك عشرون مريضا في فضول؟ !!.. ويقول أيضا أنه صدم في بداية حياته العملية من نظرة الناس في (الكويت) للتقاعد المبكر!!.. فالتقاعد المبكر عقوبة تفرض على من يرتكب أخطاء جسيمة في الدول المتقدمة.. في حين يعتبرها المواطن الكويتي مكافأة.. ويستطرد غاضبا:

-لو حفرت في (الكويت) ربع ساعة لخرج لك بترول.. في حين تحتاج إلى نصف ساعة حتى تصل لأقرب محطة بترول!!.

لماذا أقول هذا الكلام الفارغ؟!.. لا أدري.. يبدو أنني لن أتخلص أبدا من تلك العادة الذميمة.. حب الاستطراد!!..

كيف جذبت انتباه الدكتور؟ ؟!.. كيف أصبحت مقربا منه؟!.. كان ذلك في بداية السنة الدراسية عندما أجبت على سؤال صعب عجز جميع زملائي الطلبة عن إجابته!!.. وقد أثنى الدكتور على إجابتي كثيرا.. ولا أنسى أبدا كلماته التي جعلت أوداجي تنتفخ سرورا.. عندما قال:

-هذه هي العبقرية يا (خالد).. أن ترى وجها آخر للحقيقة.. أن ترى (استراليا) في شمال العالم وليست في جنوبه كما يراها باقي الناس ([17])!!!.

رفعت كفي حينها شاكرا.. وهي إيماءة واهنة خجولة قد تعني في الوقت ذاته (إنني ألتهب فخرا بنفسي يا دكتور)..

نعود إلى قصتنا.. ففي اليوم التالي لحادثة شريط الفيديو إياها.. رآني الدكتور (وليد) في أحد ممرات الكلية.. فطلب مني أن أزوره في مكتبه بعد الانتهاء من محاضراتي لأمر مهم!!.. هززت رأسي موافقا دون أن أشغل بالي بما يريده مني.. فقد كان ذهني مشوشا ومشغولا تماما للعثور على تفسير لما حدث لي صباح أمس في حادثة شريط الفيديو إياها!!..

فحادثة كتلك لا يمكن أن أنساها بسهولة!!.. لكني رغم ذلك حضرت إلى مكتبه بالفعل وفي الموعد المحدد.. كان جالسا على شاشة الكمبيوتر الخاص به..

فجلست على مقعد الضيوف الجلدي دون أن أتفوه بحرف محترما انشغاله!!..

ورحت أتأمل الشهادات العلمية المعلقة على الجدران.. وصوره مع أشخاص مهمين فعلا.. إنني لا أعرف شكل (أبقراط) ([18]) لكني لن أندهش لو رأيت له صورة يصافحه بها!!

و.. بعد لحظات أدار -الدكتور (وليد) وليس (أبقراط) طبعا- وجهه لي.. فتحدث قليلا عن أمور عادية لا تستحق الذكر.. ثم أخبرني بما ينتوي عمله:

-ما رأيك بزيارة المشرحة؟ ؟!..

نظرت له بتساؤل دون أن أرد.. فقال ببساطة:

-من المفترض أنك لن ترى المشرحة قبل العام القادم.. ولكن أشعر أنك تفوق كل تلاميذي بمراحل.. وإنني أتوقع لك مستقبلا باهرا بالفعل.. أعتقد أنك ستستفيد كثيرا لو زرت المشرحة وشاهدت عملية تشريح الجثث قبل بقية زملائك..

نظرت له بامتنان شديد.. وقلت آسفا:

-المعذرة يا دكتور.. ولكنني متعب جدا.. وأريد الذهاب إلى البيت!!.. ثم إنني لم أعتد مشاهدة الجثث بعد!!.. سيكون مشهدا مخيفا!!..

ثم ابتسمت مشجعا وقلت مستطردا:

-وعلى كل حال سأدمن بعد سنة أو سنتين صوت جهاز التنفس الصناعي ورائحة الدواء وصوت الجهاز الذي يسجل ضربات القلب..

قلت له هذا عالما بأنني أجازف بتغيير نظرته لي.. لكن لا مفر هنالك!!.. لا أستطيع التظاهر بلطف المعشر بينما هناك لغز مبهم يحوم حول عالمي كله!!.. إن الظل المرعب العملاق في الأفق الذي سببه شريط الفيديو إياه يلقي الظلام على كل تفاصيل حياتي!!..

بدا عليه عدم الاقتناع كما توقعت.. إلا أنه قال مبتسما هو الآخر:

-سنفعل ذلك مساء الغد وليس اليوم.. ستجد كل الوقت لترتاح اليوم.. هه.. ماذا تقول؟!.. إنها فرصة طيبة لك لمشاهدة تشريح الجثث كما تعلم..

وهكذا.. لم أجد بدا من الموافقة أمام إصراره!!.. فأومأت برأسي موافقا.. ونهضت لأعود إلى شقتي على أن ألتقي به مساء الغد في الثامنة.. لم أعد مباشرة إلى الشقة.. بل ذهبت أولا لمركز لوازم العائلة لشراء ترباس للباب.. نعم.. فهذا قد يزيل بعض القلق والخوف اللذين يسيطران على كياني.. فلا يمكن أن أقضي ليلة أخرى مع جدتي في تلك الشقة وأنا أعرف أن أحدهم يملك مفتاحا لها؟!.. إن تبديل القفل فقط لن يغير الكثير.. فهناك دائما طريقة لفتح الأقفال.. أما الترباس فيتطلب منك كسر الباب..

عدت بعدها إلى شقتي.. وقمت بتركيب الترباس وسط نظرات جدتي المتسائلة.. و:

-إنه على سبيل زيادة الحرص..

قلتها مبتسما.. فابتسمت بدورها غير معلقة.. وهرعت بعدها لأخذ حماما ساخنا جعل أعصابي تذوب تماما.. وجلست أقرأ قليلا في صالة المنزل وأراجع بعض الكتب.. كانت جدتي تجلس بجانبي تشاهد فيلما عربيا قديما اندمجت فيه تماما وهو ما تفعله أكثر الأوقات في فترة المساء.. أحب كثيرا تلك الساعات التي أقضيها في غرفة المعيشة مع جدتي.. إنها تشعرني بالبساطة والدفء الأسري الذي أفتقده كثيرا في حياتي.. ولولا ذلك الشريط اللعين الذي شتت ذهني وجعلني أفكر بالهدف من فعل شيء كهذا.. لاستمتعت بكل لحظة من تلك الساعات..

ظل عقلي مزحوما بالأفكار.. فما الهدف من دخول أحدهم إلى شقتي وتصوير كل شيء فيها بكاميرا فيديو؟!.. ومن يمتلك الجرأة للإقدام على هذا العمل؟!.. لقد طرحت هذا السؤال على نفسي مائة مرة.. ودائما أجد جوابا واحدا: الهدف من كل هذا إشعاري بأنني لست بمأمن.. وأنهم يستطيعون الوصول إلي في أي لحظة.. من هم؟!.. ليتني أعلم!!.. ليتني أعلم.

عدت الليلة على خير رغم نومي القلق الذي جعلني أستيقظ متوترا بين الحين والآخر كي أتأكد أن أحدا لم يقتحم الشقة.. ومر اليوم التالي هادئا دون أي شيء يذكر إلى أن حان موعد الذهاب إلى المشرحة في الثامنة مساء كما طلب مني الدكتور (وليد).. فارتديت ثيابا رياضية مريحة.. وخرجت بعد أن ألقيت تحية سريعة على جدتي محاولا رسم ابتسامة على وجهي موحيا أن الأمور تسير على

ما يرام.. و.. ها أنذا متجها إلى مكتب الدكتور (وليد) حيث من المفترض أن ألتقي به لنذهب معا إلى المشرحة.. وكان الدكتور ينتظرني بالفعل.. فطلب لنا أولا قهوة تركية ثقيلة شربناها معا بصمت.. ثم ذهبنا بعدها إلى المشرحة.. وبدت الكلية خالية تماما في مثل هذا الوقت..

دخلت المشرحة لأول مرة في حياتي!!.. وبدأ الشعور بالخوف يراودني.. ذلك الشعور المعتاد لكل من سيرى جثة بعد قليل!!.. إن رؤية الجثث أمر يعتاد عليه طلبة الطب مع مرور الوقت.. ولكن بعد أن يشعروا بالغثيان في بادئ الأمر.. لذا فمن المؤكد أنني سأشعر بالغثيان.. وربما سأتقيأ.. كم أكره هذا لكن ليس باليد حيلة كما تعلمون.. و.. ها أنذا في المشرحة مع الدكتور (وليد) أتأمل هؤلاء الموتى متخيلا لو أن أحدهم قد عاد إلى الحياة فجأة!!.. فأرفع خصلات شعري من فوق جبيني.. وأحاول أن أداري انفعالي واشمئزازي وأنا أنظر إلى الجثة التي يقوم الدكتور بفحصها.. قبل أن يقول بجدية:

-على الرغم من أنني طبيب إلا أنني دائما ما أشعر بانقباض حين أدخل المشرحة.. هل تصدق ذلك؟!..

قلت له متفهما:

-لم لا ؟!.. نحن بشر.. والبقاء حول الجثث ليس بالأمر الهين.. حتى لو كنت طبيبا!!.

أومأ برأسه موافقا.. والتفت ليباشر عمله.. كنت أقف بجانبه مستمعا إلى بعض الملاحظات المهمة التي يخبرني بها قبل أن يبدأ بالتشريح.. وأدون كل ما يخبرني به بالحرف.. لم أكن أخجل من طرح أي سؤال.. متبعا بذلك حكمة الدكتور نفسه التي يخبرنا بها دائما: ((إذا سألت سؤالا فقد أصبحت حمارا دقيقة وعالما طوال العمر!!.. ولو لم تسأل لأصبحت كأنك عالم دقيقة وحمار طوال العمر!!)).

لاحظت وجود حوالي ثلاث جثث حديثة في المشرحة.. كنا نفحص إحداها.. في حين أرى الجثتين الأخريين مغطيتين فلا أعرف شيئا عنهما ولا حتى جنسهما.. وأتأمل مرة أخرى الجثة التي يفحصها الدكتور.. و..

-لحظة..

تحفزت حواسي وأنا أسأل الدكتور (وليد) بعينين متسعتين:

-دكتور!!.. هل أنا أتخيل ؟!.. كأن هناك خلجة حدثت في عين الجثة التي تفحصها!!!..

قال الدكتور بلا مبالاة ودون أن ينظر إلي:

-يسمون هذا (هلوسة المشهد الميت) وهو يحدث كثيرا لمن يطيلون التحديق في جثة.. إنه وهم بالطبع!!.. (خالد).. هلا تحضر لي زجاجة الماء من الثلاجة ؟!.. أكاد أن أموت عطشا..

وأشار بيده إلى الوراء.. التفت لأجد ثلاجة صغيرة موجودة في المشرحة.. لم أمانع طبعا.. وذهبت لأحضر له الزجاجة.. فرشف منها قليلا.. وأكمل عمله.

كانت الأمطار غزيرة في الخارج في مثل هذا الوقت من أواخر عام 2005.. بالطبع.. دائما البرد والمطر.. مفردات الرعب الأبدية.. ولا ننسى الظلام أيضا!!!.. الظلام الدامس بجانب ثلاث جثث.. لماذا الظلام الدامس؟ !!.. لأن التيار الكهربائي انقطع فجأة في المشرحة!!!!.. نعم.. هكذا بكل بساطة ودون سابق إنذار!!.. لقد شعرت بتوتر عجيب جعل عيني تتحركان في محجريهما

بجنون.. وجسدي منتصبا مشدوها ولا صوت سوى صوت ذلك الطبل المدوي.. طبل؟!.. لا.. إنه صوت نبض الدم في أذني!!.. إن الظلام يطغى على كل شيء.. فالمشرحة كبيرة خالية من النوافذ.. ولا يكفي خيط الضوء الرفيع القادم من تحت الباب أن ينير شيئا فيها.. لحظة!!!.. هذا يعني أن الكهرباء مقطوعة عن المشرحة فقط!!.. وليست عن كل المبنى!!.. ما الذي يعنيه هذا؟!..

قلت للدكتور (وليد) بقلق واضح:

-دعنا نغادر هذا المكان الكئيب قبل أن نفقد أعصابنا.. أرجوك..

لم يرد.. بل اتجه إلى الباب محاولا إيجاد طريقه وسط الظلام.. ثم قال بصوت متوتر للغاية:

-يبدو أن هذا الباب اللعين مغلق من الخارج بإحكام!!..

صحت برعب:

-ماذا تعني؟!.. هل سجننا أحدهم هنا؟!..

لم يجب.. بل قام بطرق الباب بهدوء محاولا إخفاء توتره:

-افتحوا الباب!!.. إنه مقفول من الداخل.. افتحوا بالله عليكم!!..

لم يرد أحد.. صمت تام خيم على المكان للحظات اعتادت فيها أعيننا الظلام.. لأنتبه بعدها إلى أمر مروع!!.. أمر لا يصدق!!.. فصحت بالدكتور برعب هائل وأنا ألتصق به لا شعوريا:

-الجثة التي كنت تفحصها يا دكتور.. لقد.. لقد تحركت.. لست متأكدا ولكن..

قاطعني بصوت بالغ التوتر:

-إنه تأثير الظلام والخوف.. لا تدع هذا يسيطر عليك.. إنني.. إنني..

لم يكمل عبارته.. بل ترنح في مكانه فجأة وسقط على الأرض دون حراك وسط نظراتي المتسائلة!!.. لم أفهم ما حدث له.. ولم أحاول أن أفهم.. فقد سيطر الهلع تماما على عقلي.. ورحت أطرق باب المشرحة بقوة.. ثم.. لا أعتقد أنني سأكون منصفا لو قلت أن ما شعرت به لحظتها هو الخوف!!.. فالواقع أنني كنت أعيش كابوسا اجتمعت فيه كل قواعد الرعب.. قاعة رهيبة مغلقة في إحكام.. ضوء خافت جدا يأتي من تحت الباب.. مع صوت حياة بطيئة بدأت تدب!!.. حياة بطيئة أكملت قواعد الرعب بأهم عامل!!.. لا أدري إن كانت حاسة سادسة أم مجرد إفراط في مشاهدة أفلام الزومبي حين يعود الموتى فجأة إلى الحياة!!.. فقد شعرت أن علي أن ألتفت ناحية الجثث.. لأجدها وقد نهضت من مكانها!!!!.. نعم.. لقد كان الموتى ينهضون من موائد الفحص ويتجهون إلي ببطء وصمت!!.. مستحيل.. إن الموتى لا يعودون إلى الحياة.. إنها.. إنها خدعة.. خدعة دون شك!!.

عزيزي القارئ.. لو كان خروج الروح من الجسد شيئا مؤلما.. فحتما عودة الروح إلى الجسد أكثر ألما!!!.. لقد شعرت أن روحي قد خرجت من جسدي للحظة ثم عادت إليه!!.. وأن قلبي يتمزق هلعا.. يتمزق فعلا!!.. ولدقيقة كاملة لم أنبس بحرف واحد أو تبدر مني بادرة واحدة تدل على أني حي.. لم أكن أسمع سوى همهمات وحشية مبهمة لا معنى لها لكنها تجمد الدماء في عروقك!!.. قبل أن أعود إلى صوابي أخيرا مع اقتراب الجثث!!.. وأن أعود إلى صوابي في موقف كهذا يعني أنه لا بد من الهستيريا!!.. لا بد من الرعب الوحشي الذي يفقدك القدرة على التفكير

المنطقي!!.. لكن ما جدوى التفكير المنطقي هنا!!.. وهل يوجد أي منطق في ما يحدث لي؟ ؟!.. الهاتف النقال ؟!.. إنه في جيبي لكني نسيت كل ما يتعلق به.. لا تنسوا أن كل شيء قد حدث بسرعة وفي دقائق قليلة.. ثم إنني لا أستطيع أن أفكر بعقلانية في موقف كهذا.. فأخذت أصرخ في هستيريا واللعاب يتساقط من شدقي.. ثم رحت أوسع الباب ضربا وركلا!!.. دون أن يستجيب أحد.. نظرت إلى الوراء وإذا بالجثث قريبة جدا مني تكاد أن تلمسني.. إنني.. إنني أشعر بأنفاسها البغيضة!!.. و.. فجأة.. شعرت أن كل الإنهاك الجسدي والنفسي وكل الهموم والمخاوف تتلاشى من عقلي كما يتلاشى دخان القطار عندما يغيب في الأفق!!.. صرت صفحة بيضاء تماما.. وشعرت بانفصال كامل عن الوجود وأن الحياة تنسحب من جسدي ببطء!!!..

إنني.. إنني أمر بحالة شلل عقلي من التي تصيب المذعورين وتجعلهم يلقون بأنفسهم إلى البحر وهم لا يعرفون السباحة هربا من كلب مسعور!!..

و.. تهاويت على الأرض أخيرا فاقد الوعي.. وأظن.. أظن أنني قبلها صرخت حتى بح صوتي!!.

هناك يد تهزني برفق.. صبرا يا ناس.. رحمة بالصداع المترجرج في رأسي..

-استيقظ يا (خالد)!!..

صوت يناديني من أعماق الكون..

-(خالد).. استيقظ بالله عليك!!..

وجدت عقلي يجيب هذا الصوت تلقائيا وبصوت لا يسمعه سواي بالطبع:

-ولماذا أستيقظ؟!.. لم أعد راغبا في الحياة!!..

ذلك الصوت يزداد إصرارا:

-(خالد)!!.. استيقظ بالله عليك..

فتحت عيني ببطء وحلقي جاف تماما.. ثم تذكرت فجأة ما حدث لي.. فشهقت بقوة.. وأطلقت صرخة هائلة.. ليلتف حولي أناس لم أرهم من قبل محاولين تهدئتي.. وشيئا فشيئا بدأت أعرف أين أنا.. إنني ممدد على سرير أبيض نظيف!!.. هل أنا في مستشفى؟!.. لا شك في ذلك.. اللون الأبيض في كل مكان.. وثمة رجل وسيم وامرأة هندية يرتدي كلاهما المعطف الأبيض يقفان ويرمقانني في مودة!!.. أظن أنني في مستشفى (مبارك).. وقد بدأت أخيرا باستعادة وعيي!!.. كانت مجرد حالة (إغماء هستيري) دامت ساعتين كما عرفت لاحقا.. والمغمى عليه في هذه الحالة يفيق تلقائيا عادة ما لم يحاول أحد الحمقى صب السوائل في حلقه معرضا إياه للاختناق ([19]).. عندئذ يفيق وحده ويتساءل: ماذا حل بي؟!.. وكان هذا هو السؤال الذي طرحته بالفعل..

.. فسمعت صوتا يقول:

-لقد أصبت بصدمة عصبية شديدة.. لكنك الآن بخير..

فتحت عيني وإذا بالطبيب ينظر إلي مبتسما ليشعرني بالاطمئنان.. ثم يقول باستغراب:

-لقد فتحنا باب المشرحة ووجدناك فاقد الوعي والدكتور (وليد) مصابا بالتسمم فاقد الوعي هو الآخر.. ماذا حدث بالضبط؟!.. ومن أقفل عليكما الباب؟!..

لم أكترث لسؤاله.. بل سألته بقلق:

-الدكتور (وليد).. ماذا حل به؟!.. هل هو بخير؟!..

-لقد شرب ماء ساما!!.. لكنه لم يشرب الكثير لحسن حظه.. وسيكون بخير.. والآن أخبرني ما الذي جرى في المشرحة؟!..

وبصوت مرتجف.. رويت بالتفصيل ما حدث لي في أشنع لحظات الرعب في حياتي.. والطبيب يستمع وينظر إلي بعين غير مصدقة أثارت أعصابي.. فصرخت بعصبية:

-هل تظنني أكذب؟!..

ربت الطبيب الشاب على كتفي مهدئا وكأنه اعتاد هذه المواقف.. وقال:

-لقد كان الموتى على موائد الفحص.. لم يتحرك أحد منهم.. ولكنك أصبت بالرعب بعد أن أغلق أحد العابثين الدائرة الكهربائية الخاصة بالمشرحة.. ربما هو نفسه من أقفل الباب عليكما!!.. وبعدها صور لك عقلك أوهاما بعيدة عن الواقع.. خاصة بعد تأثر الدكتور (وليد) بالسم..

قلت بعصبية وأنا ألهث:

-لست واهما.. لا يمكن أن أكون واهما.. لقد رأيت ما حدث بنفسي.

نظر إلي الطبيب مفكرا دون أن يرد.. لا أعتقد أنه سيصدقني.. إن ما حدث لهو أمر لا يمكن أن أصدقه أنا نفسي لو لم أراه بعيني.. فأطرقت برأسي الذي غاص تماما بخواطر سوداء لا نهاية لها..

قطع الدكتور حبل الصمت قائلا:

-لا يوجد سبب يجعلك تبقى في المستشفى أكثر من ذلك.. تستطيع الرحيل الآن لو أردت!!.. ولكن.. يجب أن تمر على المحقق أولا.. لأن هناك محاولة قتل تعرض لها الدكتور وأنت الشاهد الوحيد عليها!!.

نهضت من مكاني بشكل آلي دون أن أرد.. لأنني كنت تائها تماما وعقلي مليء بالخواطر السوداء والتساؤلات بما يحدث خلال اليومين الماضيين.. اتجهت بعدها إلى غرفة المحقق في مستشفى (مبارك).. و.. لم يحدث هناك شيء يذكر.. أسئلة عادية للغاية يسألها أي محقق.. ولم يكن لدي الكثير لأقوله.. كانت نصف ساعة فقط قضيتها في مكتبه.. قبل أن يسمح لي بالرحيل.. لكنه وعدني بأن الأمر لن ينتهي بهذه البساطة.. بل إن هناك تحقيقات مكثفة ستجري لمعرفة كيفية وصول الماء المسموم إلى الثلاجة.. أما كلامي بخصوص نهوض الموتى فلم يصدق منه حرفا بالطبع.. بل ظن -كما ظن الجميع-أنني فقدت صوابي بسبب انقطاع التيار الكهربائي.. مع وجودي وحيدا مع تلك الجثث.

نظرت بعدها إلى ساعتي لأجدها تقترب من الحادية عشر والنصف مساء!!.. إننا نقترب من منتصف الليل!!.. يجب أن أعود إلى البيت.. أرجو ألا تكون جدتي قلقة بشأني.. لحسن الحظ أنني أخرج كثيرا هذه الأيام وأعود متأخرا أحيانا كثيرة أيضا.. لذا فلا أعتقد أن هناك ما يريب!!.. اتجهت إلى سيارتي وأنا في قمة الإرهاق.. والخواطر تلتهمني.. كنت أشعر بضياع تام.. فهناك أمور غريبة ومريبة جدا تحدث في حياتي ولا أجد لها تفسيرا!!.. فمن الذي اقتحم شقتنا؟!.. وكيف نهض الموتى من موائدهم؟!.. هل أعاني من مشكلة نفسية بسبب التجارب الرهيبة التي تعرضت لها في السابق ([20])؟!.. إذ لم يشاهد شريط الفيديو أحد سواي.. وعندما أراد الضابط مشاهدته..

لم يجد شيئا!!.. كما لم يشاهد الموتى ينهضون من موائد الفحص سواي.. هل كنت واهما؟!.. لا يمكن.. ولكن.. جميع الجثث كانت في مكانها على موائد الفحص بالفعل كما قال لي الطبيب والمحقق!!.. وماذا عن الماء السام؟!.. من وضعه في ثلاجة المشرحة؟!.. إنني ضائع.. ضائع تماما.. وعقلي توقف عن التفكير!!.

زفرت بقوة مفرغا كل انفعالاتي.. ثم قررت أن أنام نوما طويلا.. وعندما أستيقظ سيحلها ألف حلاّل.. فالإرهاق قد بلغ مني مبلغا!!.. كنت أقود السيارة عائدا إلى شقتي.. والشوارع الداخلية في منطقتي (الجابرية) و(الرميثية) قد خلت تقريبا من السيارات.. حين بدا فجأة أن خيوط تلك الألغاز ستتضح شيئا فشيئا وتزداد تعقيدا بنفس الوقت!!.. كيف ؟!.. كان ذلك عندما تلقيت مكالمة هاتفية على هاتفي النقال هي بكل تأكيد أغرب مكالمة هاتفية قد يتلقاها إنسان في حياته!!!.. لم يكن بإمكاني معرفة مصدر الاتصال.. إذ لم يظهر رقم المتصل على شاشة هاتفي!!.. وهذا يعني أنها مكالمة دولية.. أو من جهاز كمبيوتر كما يفعل البعض من هواة معاكسة الفتيات!!.. و..

-آلو!!..

صوت عميق للغاية يتكلم ببطء شديد جدا.. ثم:

-نريدك معنا!!..

ظننتها في البداية إحدى الشركات التي تعرض عليك تذكرة سفر أو ما شابه في حالة شرائك لمنتج معين.. لكن.. هل تعمل تلك الشركات في مثل هذه الساعة المتأخرة؟ !!.. لا أعتقد!!.. قلت له بنفاد صبر:

-ومن أنتم؟ ؟!..

قال بنفس الصوت البارد:

-(أخوة الدم)!!.

قالها وكأنني يجب أن أعرف ما يعنيه!!.. لو كان لي أصدقاء لظننت أنها مزحة من أحدهم!!.. رددت عليه مستغربا:

-وهل يفترض بي أن أعرف ما يعنيه هذا المصطلح الغريب؟!..

رد بهدوء:

-أخوة الدم هو اسم جماعة دينية تأسست منذ خمسة وعشرين عاما تقريبا.. لقد اعتنق الكثيرون ديننا.. ولكن بالسر.. نريدك أن تعتنق ديننا وتؤمن بنبينا!!..

قلت ساخرا ظناً أنها مزحة ثقيلة من أحدهم:

-دينكم؟ !!.. نبيكم؟!.. يا سلاااام.. هكذا بكل بساطة؟!..

ولو كنت رائق البال لقلت له كما يقول إخواننا المصريون:

-(بايخة)..

لكنني انتفضت بقوة حين قال:

-هل ستكلمني بهذه الطريقة الساخرة لو علمت أننا الذين اقتحمنا شقتك أمس وقمنا بتصوير كل شيء فيها؟؟!!..

تلعثمت وهمهمت بكلمات غير مفهومة شاعرا برعب هائل.. ثم صرخت:

-أنتم الأوغاد الذين دخلتم خلسة إلى شقتي في الظلام.. عليكم اللعنة.. ماذا تريدون؟!.. كيف تستحلون حرمة البيوت.. كيف ت....

قاطعني بصوته العميق:

-فلتخرس وتسمعني..

همهمت بكلمات لم أفهمها أنا نفسي قبل أن أخرس بالفعل من شدة الخوف!!.. فاستطرد:

-لقد جعلنا الموتى ينهضون من على موائد الفحص في المشرحة.. كان بإمكانهم تقطيع جسدك إلى أجزاء لكنهم لم يفعلوا ذلك لأننا أمرناهم أن يخيفوك فحسب.. كنا نريدك أن ترى قدرات نبينا بعينيك بعد أن وضعنا السم للدكتور (وليد) في زجاجة الماء كي يستفرد بك الموتى.. كيف عرفنا أن الدكتور سيشرب الماء؟!.. هذا أحد أسرارنا!!.. إننا نفعل ما بوسعنا لإقناعك.. فجعلناك تشاهد ما يأباه العقل والمنطق.. لقد اقتحمنا شقتك وصورنا كل شيء فيها كرسالة واضحة أننا نملك مصيرك تماما..

قلت له بضراعة وبصوت باك:

-ماذا تريدون مني؟!..

رد ببطء شديد:

-هل أنت غبي؟!.. لقد أخبرتك.. نريدك أن تنضم إلينا.. حسبت هذا مفهوما.

زفرت بقوة وأنا أقول محتدا مستجمعا بقايا شجاعة وجدتها هنا وهناك:

-أنا أمقت من يكذب وأنا أعرف أنه يعرف أنه يكذب!!!.. فأنا لا أحب أن أخوض في مناقشات حول تلك الأمور.. إنها مسألة عقيدة.. وإيماني يعتمد على ألا أؤمن بأشياء كالتي تقولها!!.. كما أنني يستحيل أن أؤمن بمدعي النبوة المخبول هذا..

رد بهدوء وبنبرة لم تتغير:

-من الطبيعي أن تعتبرنا مخبولين.. ولكنك ستقتنع عندما ترى المزيد من معجزات نبينا.. وإذا لم تقتنع فسيكون لنا تصرفا آخر معك وستنضم إلينا بالقوة!!..

سألته بقلق حقيقي:

-هل هذا تهديد؟!..

-تماما

قلت بصوت مرتجف:

-وماذا ستفعلون؟؟

-لن أخبرك حتى لا تتخذ احتياطك!!..

هل تعرف التوتر الذي تشعر به في أعماقك عندما يهددك أحدهم؟!.. عندما تتنفس بتلك السرعة التي تزيد من قلوية الدم؟!.. هذا ما شعرت به!!.. أوقفت سيارتي على جانب الطريق.. واستندت برأسي على عجلة القيادة ورحت أحاول أن أسيطر على أعصابي!!.. ثم سألته بتخاذل:

-لماذا أنا؟ ؟!.. لماذا أنا على وجه التحديد؟!..

-نحن ننتقي أتباعنا بعناية.. ولدينا أسبابنا في دعوتك لديننا.. إنها أسباب سرية..

سكت دون أن أرد.. ليكمل حديثه بقسوة وبكلمات واضحة وكأنه يضغط على أسنانه ليقولها:

-اسمعني أيها التافه.. تذكر أننا نلاحقك!!.. عندما تصحو من النوم وتقابل أي إنسان في الشارع فتأكد أنه من رجالنا.. عامل المطعم الذي سيوصل لك الطلب إلى البيت سيكون مدسوسا منا.. لو فتحت نافذتك فسيصلني خبر بذلك وأنا في مكاني.. لن ينقذك منا إلا الموت نفسه.. بل أنت ميت يا عزيزي.. نحن فقط لم نقتلك بعد!!.. ولو كنت مكانك لانتحرت.. هل جربت الانتحار.. لو لم تكن جربته فأنا أنصحك به!!.. ربما تضرب رأسك في الحائط إلى أن ينفجر.. أو تقود سيارتك وأنت مغمض العينين.. وإذا لم تختر الانتحار.. فستصيبك معجزات نبينا بالجنون.. فانتظر الجنون الذي سيزحف على أعصابك إلى أن تجن!!.

كان شرياني الصدغي يخفق كالمجنون، يضخ الدماء في رأسي وأدركت أن انفجار المخ قادم لا ريب ما لم أهدأ قليلا.. فقلت لاهثا:

-سأبلغ الشرطة!!.

لم يكترث إطلاقا.. بل قال ببساطة:

- من قال أن هذه الأساليب المادية تصلح لإيقافنا؟!.. من قال أننا لا نخترق الحواجز؟!.. إن قدراتنا غير محدودة.. لقد وصلنا إلى شقتك وتجولنا فيها بكل حرية.. كنا واثقين أنك ستأخذ شريط الفيديو لإبلاغ الشرطة.. ولكننا استبدلناه في فترة اختبارك في الكلية.. كنا نعرف أنك لن تبلغ الشرطة إلا بعد الاختبار.. وكان هذا وقتا كافيا لنا كي نفتح سيارتك بوسائلنا الخاصة ونستبدل الشريط.. لا تحاول مقاومتنا يا (خالد).. وإلا كان بوسعك أن تقاوم الفيضانات والأعاصير.. لذا عليك الآن أن تختار.. الموت؟!.. أم الانضمام إلينا؟!..

قالها وأغلق الخط في وجهي!!.. هناك ما هو أشد قسوة من الموت كما يقول.. هناك الرعب.. الرعب.. الرعب الذي يحيل حياتك جحيما ويجعلك تتمنى الموت ولا تناله.. إن الذي يثير الخوف في التهديد هو الغموض الذي توحي به الكلمات.. الغموض.. مشكلة المشاكل.. كم أكره الرعب المجهول الغامض.. الذي لا تعرف أين ولا متى سيظهر!!..

من هم؟!.. كل شيء يوحي بأنهم جماعة سرية ما.. عبدة الشيطان؟!.. ربما.. لقد سمعت عن عبدة الشيطان في (الكويت)؟!.. فهذه الجماعات الدينية المنحرفة عديدة وعدد الذين يعتنقونها يزداد مع الأسف!!.. ازدردت لعابي بصعوبة.. وشرعت أندب حظي وأضرب -لا شعوريا- مقبض القيادة في سيارتي حتى آلمت يدي!!.. لماذا تحدث كل هذه المصائب لي وحدي؟!.. ما هذا النحس الذي أعيشه؟!.. لقد مللت هذه الحياة.. مللت من كل شيء.. ثم.. حاولت أن أسيطر على نفسي قليلا وأهدأ قبل أن أتساءل عن مدعي النبوة هذا الذي تحدث عنه المتصل؟!.. إن مدعي النبوة -على حد علمي- يظهرون بين الحين والآخر في جميع أنحاء العالم.. بل وفي بعض الدول العربية أيضا ([21]).. الغريب أن المتصل يتحدث عن المعجزات التي سأراها بثقة بالغة وكأنه مقتنع

تماما بكل كلمة قالها.. دعكم من أنني رأيت أصلا ما يأباه العقل والمنطق في المشرحة!!.. مهلاً.. إذا لم أكن واهما!!.. لقد نهض الموتى من موائد الفحص بالفعل!!!.. كيف؟!.. كيف؟!.. ما الذي سأراه أيضا بعد كل هذا؟!.. وما الذي سيحدث بعد ذلك؟!.. ليتني أعلم.. ليتني أعلم!!.

رحت أستغفر ربي سريعا طالبا منه الرحمة والمغفرة.. مؤكدا بيني وبين نفسي أن كل ما قاله ذلك الرجل هو خيال جامح أكثر من اللازم!!.. خيال وقح مريض يفترض أن هناك نبيا جديدا!!.. وهذا كاف عقائديا بالنسبة لي لرفض القصة كلها.. ولولا تصرف عصابات المافيا الذي اتبعوه معي لما اهتممت إطلاقا بما قاله لي.. و:

-أيها الحمار..

دوت الصيحة من سائق سيارة كدت أصدمها وأنا أنحرف لا شعوريا لليمين.. كنت شارد الذهن تماما إلا أن صيحته أعادتني لعالم الواقع.. لذا تمالكت أعصابي وقبضت بحزم أكبر على عجلة القيادة إلى أن وصلت إلى البيت والأفكار تصطرع في ذهني.. ماذا سأفعل؟!.. هل أخبر الدكتور (وليد)؟!.. ربما سيتمكن من مساعدتي!!.. ولكن.. هل.. هل سيصدقني فعلا؟!.. لا أدري.. كل ما سأخبره به يوحي بالبارانويا ([22]).. سوف أردد نفس الكلمات التي يرددها المصابون بالبارانويا عندما يتحدثون عن الآخرين الذين يبحثون عنهم ويراقبونهم.. ويتضح بالأخير أنها أوهام صورها عقلهم المريض.. و.. هكذا عدت إلى الشقة وأنا في أسوأ حال ممكن!!.. فدخلت مباشرة إلى غرفتي آملا ألا تستيقظ جدتي وتراني بهذه الصورة..

خلعت حذائي ورقدت على الفراش أرمق السقف!!.. كانت الأفكار كثيرة جدا إلى درجة أنها تؤلم!!.. أفكر في شيء ثم أفكر في شيء آخر!!.. فأستوعب بعدها ما كنت أفكر فيه أولا.. وفجأة يخطر ببالي شيئا ثالثا يجعلني أنسى كل شيء!!!.. هنا.. لا بد من الاعتراف بأنني بكيت!!.. ليست المرة الأولى التي أبكي فيها.. لكني هذه المرة بكيت كالأطفال!!.. وبعد أكثر من ساعة من البكاء والنحيب.. شعرت برغبة حقيقية في النوم.. إنني مرهق.. منهار!!.. لكني مع هذا ذهبت للتأكد من أن جدتي نائمة بسلام.. ثم.. حماما ساخنا بعد ذلك.. و.. من دون أن أخلع روب الاستحمام.. قفزت إلى الفراش ودفنت رأسي في الوسادة آملا بنوم بلا أحلام مغلق بألف مفتاح.. وشيئا فشيئا.. بدأت الأحلام تختلط بالواقع!!.. أية كوابيس زارتني!!.. أي هلع شعرت به!!.. أصحو لاهثا غارقا في العرق بسبب العوالم المفزعة التي زرتها في كوابيسي!!.. لأعود بعدها وأواصل النوم باحثا عن عوالم مفزعة أخرى!!.. أتملص في فراشي من أشباح وهميين!!.. أقرر أن أصرخ.. ثم أمنع نفسي في اللحظة الأخيرة من هذا العمل الأخرق لأنني أعرف أن كل هذه مجرد أحلام مزعجة!!.. وهكذا قضيت ليلة سوداء شعرت أنها لن تنتهي أبدا!!.

وفي الصباح الباكر خرجت من البيت دون إفطار متعللا لجدتي بأنني تأخرت عن الكلية.. فسمعت في طريقي إلى الباب دعاءها لي بالتوفيق.. فابتسمت رغما عني وعدت أدراجي لأقبل جبينها!!.. لا يمكن أن تصدق جدتي ما أعيشه في حياتي من أهوال.. بل لا يمكن أن أصدق أنها لا تعرف شيئا عما حدث ويحدث لي.. طرحت تلك الأفكار جانبا.. وخرجت بعدها إلى مخفر (الجابرية) كما وعدت المحقق من أجل استكمال التحقيق في قضية تسمم الدكتور (وليد)!!.. لم أخبرهم بالحقيقة.. لأنني أعلم جيدا أن أحدا لن يصدقني.. فأخبرتهم بأنني أصبت بالخوف من الظلام ومن وجودي مع الجثث ومن تسمم الدكتور فأغمى علي!!.. ولم أخبرهم بالطبع عن ذلك الاتصال الهاتفي بسبب التهديد الذي تلقيته من المتصل.. فقد أردت أن أفكر وأزن الأمور بنفسي أولا..

ذهبت بعدها إلى الكلية.. وهناك سألت عن الدكتور (وليد) وعرفت أنه سيأتي بعد الظهر!!.. هذا الرجل يعشق عمله بحق.. فلو كان طبيبا آخر لربما طلب إجازة طبية لثلاث سنوات بعد حادثة التسمم التي تعرض لها!!!.. ذهبت بعدها إلى محاضراتي.. أحاول التركيز.. أحاول الانتباه.. ولكن هيهات.. ما زلت أعيش فيلم رعب لم ينته.. ما زلت تحت التهديد شاعرا بقلق حقيقي قلب كياني تماما.. ماذا سيحدث بعد كل ما حدث؟!.. ماذا سيفعل الأوغاد أكثر مما فعلوه؟؟.. الله يستر!!.

لحسن الحظ.. حضر الدكتور بالفعل في فترة الظهيرة.. تحديدا في الثانية ظهرا.. وكانت صحته قد تحسنت كثيرا.. لم يكن أحد يعلم ما حدث له سوى قلة قليلة جدا وجدتهم عند باب مكتبه يهنئونه على سلامته بكلمات سريعة!!.. انتظرت حتى انتهى الجميع.. عندها فقط طلبت التحدث إليه على انفراد!!.. ودون أن يجيبني بالرد أو الإيجاب دفعته دفعا إلى مكتبه بأسلوب غير لائق إطلاقا أثار استغرابه كثيرا!!.. ودون أن أنتظر ردة فعله.. أقفلت الباب علينا وقلت بجدية بالغة توحي بخطورة الأمر:

-دكتور (وليد).. هناك أمر خطير أريد أن أحدثك بشأنه ولا أحد يستطيع أن ينقذني سواك.. ولكن أخبرني أولا.. ماهو تفسيرك لما حدث بالأمس؟!..

قال في حيرة:

-أعتقد....

قاطعته بحدة غير لائقة أبدا:

-لا أريدك أن تعتقد.. أنا أستطيع أن أعتقد.. أريدك أن تخبرني بتفسيرك لما حدث!!.

نظر إلي باستغراب شديد لهذه الطريقة الوقحة في حديثي معه.. فانتبهت إلى وقاحتي.. وقلت له مغمغما:

-أرجو المعذرة يا دكتور.. هناك أمور كثيرة تجثم على صدري وتزلزل كياني.. أرجوك المعذرة!!.

مط شفتيه علامة الاستغراب.. ثم قال بحيرة شديدة لا تتناسب أبدا مع اعتداده الشهير بنفسه:

-لا عليك.. أما بالنسبة لسؤالك.. فليتني أستطيع إجابتك يا (خالد)!!..

ثم أردف بجدية يشوبها بعض القلق:

-لا أعرف أحدا يكرهني إلى درجة أن يضع السم في شرابي!!.. ثم.. كيف عرف من وضع السم في الماء أن من سيشربه هو أنا؟!.. هل كان يقصدني أنا بالفعل؟!.. أم أنت؟!.. أم يقصد شخصا آخر؟!.. لقد طرحت تلك التساؤلات على رجال الشرطة.. لكن لا أحد يملك الإجابة.. وما زال التحقيق جاريا على كل حال.

ثم زفر بقوة وكأنه يطرد توتره:

-الحمد لله.. لقد خضعت لغسيل معدة.. والأمور الآن على ما يرام.. كنت محظوظا حين تناولت جرعة قليلة من الماء.. فلو زادت الكمية قليلا لما نجوت!!..

ثم سألني باهتمام وكأنه تذكر شيئا:

-هل أستطيع أن أسألك سؤالا؟؟..

أكره حين يسألني الناس إن كان باستطاعتهم سؤالي سؤالا!!!.. فقط وجه سؤالك.. بالطبع لم أقل هذا.. بل نظرت إليه منتظرا السؤال.. و:

-لماذا يبدو عليك الخوف والتوتر بهذه الصورة؟!.. تبدو لي وكأنك تحت ضغط رهيب!!..

وكأنه ضغط على زر تشغيل ماكينة الكلام عندي.. فانفجر بركان الكلام من فمي.. وأخبرته بكل شيء.. كل شيء دون إهمال أي تفصيل!!.. فكان يصغي إلي باهتمام وهو يعبث بقداحة في يده -على الرغم من أنه لا يدخن -فيشعلها ويطفئها بلا انقطاع!!.. انتهيت من حديثي دون أن ينتبه إلى ذلك إلا بعد مدة!!.. وقبل أن يقول ما يود قوله.. قلت له بنفاد صبر:

-دكتور.. لست أحمق.. ولست نصابا إن كان هذا ما يدور في ذهنك.. ما ذكرته لك هو الحقيقة.. ولو كنت واهما بشأن نهوض الجثث فإن تهديدات جماعة (أخوة الدم) لي واقعا لا شك فيه!!..

هنا نظر إلى السقف بشرود.. ثم:

-ولكن.. لو صح كلامك فإن هذا معناه أنك ضائع تماما.. إنهم يملكون إيذاءك في أي وقت يشاءون..

صحت في غيظ:

-أنا أعرف كل الجوانب الساحرة لهذا الموضوع فلا تستعرضها لي أرجوك!!

شعرت بأنني تجاوزت حدودي في كلامي معه.. فسكت قليلا وبدا على وجهي علامات الخجل.. ثم سألته بعينين دامعتين:

-دكتور؟ ؟!.. هل أنت واثق أن الموتى كانوا بالفعل موتى؟!..

قال بحزم:

-إن من يعجز عن تشخيص الموت لا يستحق لقب طبيب!!.. ثم إن هذه الجثث موجودة في المستشفى منذ فترة.. وقد رأيت إحداها بنفسك.. إنك واهم يا (خالد) بخصوص نهوض الموتى من على موائد الفحص.. لا بد أن الشعور بالخوف بسبب وجودك وحيدا في المشرحة -ومع سقوطي مغشيا علي -جعلك تتوهم أشياء غير حقيقية!!.

فقلت له وأنا أضع يدي بين خصلات شعري وأزفر بقوة مفرغا كل انفعالاتي:

-يا دكتور.. لو فقدت الثقة بحواسي فماذا سيتبقى لي؟!.. صدقني.. لقد نهض الموتى من على موائد الفحص و..

قاطعني بشيء من الغضب:

-كف عن خيالك المريض يا (خالد).. إن ما تقوله هذا مستحيل.. الموتى لا ينهضون إلا في يوم الحساب.. وبأمر خالقهم لا بأمر أحد!!.. أما بالنسبة للتهديد الذي تلقيته عبر الهاتف.. فإنني لا أجد حلا أفضل من إبلاغ الشرطة!!..

قالها واتجه ناحية جهاز الكمبيوتر في مكتبه!!.. يا إلهي.. لا أريد أن أواجه هذه المشكلة وحدي.. فأتعذب وحدي وأجن وحدي.. بينما يعود كل واحد إلى داره مسرورا يحمد الله على أنه ليس أنا!!.. لقد وضعت مشكلتي في يد الدكتور فأعادها إلي قائلا أنها مشكلتي وحدي!!.. يا له من شعور مرعب.. ولكن مهلا.. ها هو الدكتور يلتفت إلي مرة أخرى ويرمقني بصمت.. قبل أن يلتقي

حاجباه بشكل يدل على أنه يتذكر شيئا مهما.. ثم قال لي ببطء وعيناه ترمقان أبعادا أخرى:

- هل تعلم يا (خالد) أنك تذكرني بأمر ما.. نعم (أخوة الدم).. هذا الإسم يذكرني ب.. بقصة قديمة رهيبة سمعتها منذ فترة طويلة جدا.. هل تعرف الصحفي الشهير (....)؟ ؟!..

قلت له بحيرة واستغراب:

-نعم.. وما دخله في هذا الأمر؟ ؟!..

-إنه صديق لي.. وقد أخبرني منذ سنوات عديدة عن جماعة دينية تطلق على نفسها اسم (أخوة الدم) !!.. لا أدري إن كان الأمر يستحق المحاولة.. ربما يجدر بنا أن نتحدث معه..

أخرج هاتفه النقال باحثا عن رقم ما.. ثم سألني وهو يجري اتصالا:

-هل أنت مشغول؟!..

-لا!!..

قلتها له بسرعة ولهفة وقد شعرت أخيرا أن هناك من سيقف معي في هذه المصيبة.. رغم أنني ما زلت أجهل ما ينويه الدكتور!!.. دارت محادثة هاتفية بينه وبين صديقه الصحفي.. وبعد هراء طويل عما فعلته السنون بهما.. وعن أحوال الدنيا.. اتفق معه الدكتور (وليد) على زيارته في مقر الجريدة في الخامسة مساء.. أي بعد ساعتين من الآن.. أنهى المكالمة.. و..:

-(خالد)!!.. هذا الصحفي يعرف شيئا عن الموضوع.. لقد تذكرت أنه حدثني منذ سنوات طويلة عن جماعة دينية تطلق على نفسها اسم: (أخوة الدم).. فلنستمع إليه.. ربما يخبرنا بما يفيد!!..

وهكذا خرجنا معا في سيارتي دون أن أخفي الشعور ببعض الاطمئنان بسبب بقاء الدكتور (وليد) معي.. وتوجهنا إلى شارع الصحافة.. وإلى مقر الجريدة التي يؤسفني أنني لا أستطيع ذكر اسمها.. الغريب أنك عندما تدخل مقر الجريدة.. سوف يثير ذهولك الجو العام الموحي بالفقر والبؤس!!.. أنت تسمع عن تلك الجريدة وترى أعدادها في كل مكان.. ولكن لا يمكنك أن تتوقع أن يكون هذا المبنى المتهالك البائس من الداخل هو مقرها!!.. و.. وصلنا أخيرا إلى مكتب ذلك الصحفي الشهير الذي ما إن رأى الدكتور حتى انفرجت أساريره.. وصرخ بحماس:

-أهلاااااان!!!..

ثم قبلات ووعود وصراخ وحديث ممل سخيف عن حال الدنيا وعن أيامهما الجميلة معا.. كما هو الحال دائما عندما يلتقي صديقان قديمان لم يلتقيا منذ زمن.. وقام الدكتور بتقديمي إليه على أنني أفضل تلاميذه المتفوقين.. فرحب بي وطلب لنا بعدها فنجانين من القهوة وصلا بعد لحظات قليلة.

رحت أحملق في سطح فنجاني الرقراق قبل أن أبدأ برشفه.. أما الدكتور (وليد) فقد رشف رشفة سريعة: شف ف ف.. وبشفتين ملوثتين بالبن الأسود الثقيل.. وبصوت لا يوحي بخطورة الموقف.. سأل صديقه الصحفي عن جماعة أو تنظيم (أخوة الدم) !!..

عقد ذلك الصحفي حاجبيه بشدة وكأنه لم يتوقع قط سؤال الدكتور.. ثم قال بوجوم:

-لماذا تريد معلومات عن تلك القضية؟!..

قلت له بتوسل:

-إن الأمر خطير جدا.. أخبرنا بما لديك.. أرجوك..

نظر الصحفي إلى الدكتور (وليد) الذي نظر إليه هو الآخر نظرة من طراز (فلتسمع -كلام -الصبي -ولتخبرنا -بما -لديك -يا -صديقي)..

فكر الصحفي للحظة!!.. ثم أشار إلينا بأصبعه كناية عن الاستئذان.. لينهض بعدها إلى دولاب صغير في غرفته يحوي عشرات الأوراق والوثائق!!.. وأخذ يعبث في الأدراج قرابة العشر دقائق.. إلى أن انفرجت أساريره وأخرج مظروفا قديما أصفر اللون، حكومي الطابع، كئيب الشكل.. ليأخذ منه بعض الأوراق.. ثم زفر وكأنه ينوي إلقاء محاضرة طويلة.. وكانت بالفعل محاضرة طويلة جدا.. وشائكة جدا.. و:

-كان ذلك قبل الغزو العراقي بسنتين تقريبا!!..

بدأ الصحفي قصته بهذه العبارة.. ثم صمت وأطرق برأسه أرضا وكأنه يحاول استعادة تلك الذكرى القديمة.. قبل أن يردف قائلا:

-حين بدأت سلسلة حوادث اختطاف غريبة أحاطت وزارة الداخلية حولها تعتيما إعلاميا قويا حتى لا تصل إلى العامة!!.. حوالي خمسة أشخاص في مرحلة العشرينيات من العمر اختطفوا خلال أيام متقاربة!!.. لم يكن يربط بين هؤلاء سوى أنهم من فئة الشباب من الجنسين!!..

سكت قليلا وكأنه يرى تأثير كلامه علينا.. فاستطرد بعدها:

-وبعد تحقيقات عالية المستوى بناء على أوامر من وزير الداخلية آنذاك.. قبضت السلطات على شاب له علاقة بحوادث الاختطاف تلك.. عندما أخبرهم بكل فخر أنه يتبع تنظيما دينيا يحمل اسما مخيفا.. (أخوة الدم).. حيث يقوده شخص مجهول الهوية يدعي النبوة ويطلق على نفسه لقب (الأعور)!!.. وهو الذي يقود عملية خطف الشباب وغسل أدمغتهم من أجل الحصول على ولائهم.. واعترف ذلك الشاب أنه يعمل كشافا لدي (الأعور).. أي أنه يبحث عن الشباب الذين يصلحون للانضمام لهذا التنظيم!!.. كما اعترف أنه قام بقتل شابة لا يتجاوز عمرها العشرين من أجل إثبات ولائه لهذه الجماعة!!.. وعندما علم ذلك الشاب أن الإعدام سيكون مصيره دون أدنى شك.. لم تهتز له شعرة.. بل تلقى قرار إعدامه بضحكة شيطانية ساخرة.. وصاح بتحد أنه لا يخشى الموت!!.. لأنه...

سكت قليلا ووضع يده على رأسه كناية عن هول الموقف.. ثم قال:

-لأنه سيعود إلى الحياة بعد أن وعده نبيه المزعوم (الأعور) بذلك!!.. وفي المحكمة.. في الجلسة السرية التي لم يعرف عنها الرأي العام شيئا.. صدر حكم القاضي بإعدامه.. ومن العجيب أن ذلك الشاب تلقى حكم الإعدام بضحكة منتصرة وكأنه عريس في ليلة زفافه!!.. بل وعند صعوده إلى منصة الإعدام لاحقا.. ضحك بفرح لأن مسألة عودته إلى الحياة محسومة لا شك فيها كما وعده (الأعور)!!.. وقد ظل محتفظا بضحكته الساخرة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بعد تنفيذ الحكم!!.. وأقولها لكما بكل وضوح.. ذلك الشاب كان مؤمنا بكل كلمة يقولها.. لا يوجد أدنى شك في ذلك!!.

-يا إلهي الرحيم!!!..

قلتها بفزع.. بينما بدا الوجوم واضحا على وجه الدكتور (وليد) الذي سأل الصحفي بقلق:

-كيف.. كيف عرفت كل هذا ؟!..

رد ببساطة:

-لقد كان لي صديق مقرب جدا من المسئولين.. وأخبرني بالقصة كاملة.. وقمت بعدها باستغلال علاقاتي مع كبار الضباط وعرفت الكثير عن الأمر.. فأعددت تقريرا كاملا عن تلك القضية على أن أنشره في الصحف.. ولكن رئيس التحرير رفض تماما نشر القصة خاصة مع الأوامر العليا بالتعتيم الكامل على القضية كي لا نتسبب بإثارة موجة من الذعر.. حتى أنني استغربت كثيرا أن أمرا كهذا يحدث في (الكويت).. فكانت هذه المرة الأولى التي نسمع بها عن حركة دينية منحرفة في مجتمعنا!!.. وعن شخص يدعي النبوة.. بالطبع هذا قبل أن تبدأ حركة عبادة الشيطان بالظهور في (الكويت) في فترة التسعينيات ([23]).. وقد أجريت تحقيقات موسعة لكشف شخصية ذلك (الأعور).. ولكن دون جدوى!!.. ثم نسي الجميع القضية تماما بعد حدوث الغزو.. وتحرير البلد..

سألت الصحفي باهتمام شديد يشوبه التوتر:

-كيف.. كيف يفعل (الأعور) هذا؟!.. كيف يقنع الناس أنه نبي؟!.. أرى أن الأمر مبالغ به إلى حد كبير!!..

انحنى الصحفي ناحيتي حتى قارب رأسه رأسي كأنما يريد أن يجعل كلماته أكثر تأثيرا:

-لقد سألت طبيبا نفسيا عن هذا الأمر.. فقال أن من يجرؤ على ادعاء النبوة لا بد وأن يكون شخصا قوي التأثير.. رجل من الطراز الخشن العنيف الذي لا يملك أي شهوة سوى السلطة والنفوذ.. هذا الطراز من الرجال يقسو على نفسه كثيرا.. ولا يهتم أين ينام أو ماذا يأكل.. كل ما يريده هو أن يرى أفكاره تتحقق والناس يمتثلون له!!.. من المؤكد أنه مارس الكثير من الحيل وربما السحر لإقناع الناس بأن أفعاله هي معجزات نبي!!.. وهو دائما يصطاد الشباب.. فيبحث عن ضعاف الشخصية الذين هم دائما بحاجة إلى من يأمرهم ويقودهم.. شرط أن يكونوا على درجة لا بأس بها من الثراء حتى يتبرعوا لتلك الجماعة!!.. إنه يستخدم خطة طويلة المدى نسبيا قد تمتد إلى ثلاثة شهور لتجنيد الشاب.. خطة تمتد إلى عدة مراحل يقوم بها أفضل أعوانه وأكثرهم حنكة.. وهم كالكشافة الذين يبحثون عن الشباب الذي يمكن تجنيده.. إن خطواتهم هي ذاتها التي يستخدمها رجال الاستخبارات في عمليات غسيل المخ.

انتهى من كلامه.. لكن تساؤلاتي لم تنته!!.. ما هي عمليات غسيل المخ هذه وما هي مراحلها؟!.. نقلت له هذا التساؤل.. فقال ببساطة:

-عملية غسيل المخ هي عملية تطويع وإعادة تشكيل عقل الإنسان ضد رغبته وضد إرادته.. بل وضد ما يتفق مع أفكاره ومعتقداته وقيمه!!.. وقد شاع استخدام غسيل المخ بعد الثورة الصينية وأثناء الحرب الكورية.. ويلخص الخبراء طريقة غسيل المخ بما يلي: أولا: عزل الفرد اجتماعيا عزلا كاملا في سجن أو غرفة موصدة بحيث يجهل تماما مكان سجنه.. ومناداته باستمرار برقم محدد وليس باسمه.. واستخدام كل المؤثرات من تجويع وتعب وسهر وخوف وإرهاق وصدمات كهربائية وعقاقير مخدرة ومشروبات كحولية.. وكل ما يضعف قدرة الفرد على التحكم في إرادته حتى يصاب باكتئاب شديد.. ثم يتم بعدها تشكيكه في أصدقائه وذويه والمعتقدات التي يؤمن بها. ثانيا: يأتي بعد هذا العذاب النفسي الرهيب دور اللين والهوادة والتساهل والرفق والراحة.. و.. الاعتذار عن المعاملة السابقة وإظهار الصداقة.. حيث يتم إخراج الفرد من مكان سجنه ويُناقش في أفكاره ومعتقداته الدينية والسياسية بلطف.

ثالثا: تبدأ بعدها مرحلة إقناعه بوجهة النظر المراد غرسها.. من خلال زعزعة كل الأفكار الدينية والسياسية الراسخة عنده.. وكل هذا بدعوى الإصلاح!!.. والإصلاح كلمة يقبلها كل الناس ولا تسبب الذعر لأحد!!.

رابعا: محاولة تغيير مفهوم الذات واستخدام أساليب متنوعة مثل التنويم المغناطيسي أو الإيحاء النفسي.

خامسا: يتم تقديم الأفكار الجديدة ويشجع الفرد على تعلم معايير سلوكية معينة ليتم بعدها تحويله إلى إنسان جديد يدين لتلك الجماعة.. ولزعيمها..

هذه غالبا ما تكون الخطوات المعتادة لعمليات غسيل المخ ([24]).. وبالطبع لا بد من لمسات إضافية أخرى بعد ذلك.. كأن يتم دعوة الشباب بعد عملية غسيل المخ تلك إلى مزرعة أو شقة أو بيت.. حيث يعيشون ساعات لا تنسى بوجود فتيات جميلات من بائعات الهوى اللاتي يدفع لهن بسخاء لكسب ود هؤلاء الشباب.. فتيات من الطراز الذي يخلب لب الشاب ويجعله متلهفا للعودة إلى تلك الأجواء.. فيجعلونه يشعر بحاجته الدائمة إليهم.. حيث لا بد أن تربطه مع إحدى الفتيات علاقة وطيدة لا تسمح فيها الفتاة بأي تماد حتى يكون الشاب دائما ساعيا خلفها!!.. لا تستغربوا من هذا.. فنحن نرى حالات كتلك بصور مختلفة قليلاً ولكن الهدف من ورائها واحد.. فترون كيف يغرر بعض المتطرفين بالمراهقين ويقنعونهم بالقيام بأعمال إرهابية والتضحية بحياتهم نفسها!!.. إن الأمر لا يختلف كثيرا هنا.. ولا ننسى أيضا بعض الشعائر الرهيبة التي أخذها تنظيم (أخوة الدم) من عبدة الشيطان.. إحداها أن تضع كفك على شمعة وأنت تتلو قسمك وولاءك لهم ولنبيهم المزعوم (الأعور).. أو أن تضع أصبعك في حلقك وتعبث به إلى أن تتقيأ في كل مرة تقابله فيها من أجل إثبات ولائك له ([25])!!!.. طقوس عجيبة بحق.. لكنهم يفعلونها عن قناعة.

سكت طويلا بعد هذه المحاضرة.. ونظر إلينا وهو يقول:

-أحيانا يتجاهلون كل خطوات غسيل المخ التي ذكرتها لكم.. ويستخدمون الترهيب مباشرة!!.. فإذا وجدوا أن الشاب المراد تجنيده مهزوزاً ضعيف الشخصية إلى حد مروع وسهل الانقياد.. فإنهم يخيفونه ويعرضونه لمواقف غريبة جدا لا تصدق.. هي في الواقع أقرب إلى السحر!!!.. بل ويقومون بتهديده حتى ينضم إليهم.. وإلا.. فالويل له.

طبعا لا تسألوني عن الذعر الذي أصابني.. ولا عن التقزز الذي دهاني.. فهذه أشياء أصبحت مألوفة مفروغا منها في هذه القصة.. فعلى حسب كلام الصحفي.. إن هذا التنظيم يستخدم معي أسلوب الترهيب لأنهم يرونني ضعيفا سهل الانقياد!!.. لا أصدق.. لا أصدق أن شيئا كهذا يحدث هنا في (الكويت).. والواقع أنني لم.. لم أتصور أبدا أن تلك الجماعة بهذه القوة!!..

هذه القصة هي عالم من الألغاز!!.. إنها تكاد تندرج تحت روايات الأحجية Riddle حيث لا يعرف الحل أحد.. حتى المؤلف نفسه..

سألت الصحفي وأنا منهار تماما:

-ولماذا.. ولماذا يفعلون هذا؟!..

مط شفتيه قائلا:

-النفوذ!!.. القوة!!.. لا يمكن معرفة طريقة تفكير رجل كهذا.. إن العصابات القوية المنظمة تفعل العجب.. وربما هذا ما كان يحاول (الأعور) فعله.. تنظيم عصابة رهيبة منظمة في (الكويت) على غرار عصابات المافيا.. فللعصابات الكبيرة هذه قدرات جبارة لا تصدق.. إذ يحكي لنا التاريخ عن استعانة الرئيس الأمريكي (روزفلت) بالمافيا لأنه كان يزمع إنزال القوات الأمريكية في (صقلية)!!.. وقد كانت العملية خطرة جدا، متوقع أن يذهب ضحيتها الكثير من الجنود.. فاتصل الرئيس الأمريكي بزعماء المافيا في (نيويورك).. واتفق معهم على تسهيل عملية إنزال القوات الأمريكية على الجزيرة بلا مقاومة.. وكان هذا سهلا بالنسبة للمافيا لأن (صقلية) هي بلد أبناء عمومتهم.. وقد تقاضت المافيا ثمن الصفقة 25 مليون دولار في ذلك الوقت.. وعندما نزلت القوات الأمريكية في (صقلية) كانت العائلات تستقبلها ملوحة بالأعلام الأمريكية لدرجة أن المشهد كان مؤثرا ([26])!!!!.. إنها حقيقة لا تغيب عن الأذهان.. قدرات تلك العصابات مخيفة بحق!!..

سأله الدكتور (وليد) بقلق:

-وأين أجهزة الأمن؟!.. لماذا لم تلاحق هؤلاء وتقبض على مدعي النبوة هذا؟!..

قال الصحفي ببساطة:

-كما أخبرتكم.. الغزو والتحرير وإعادة إعمار البلد.. كلها أمور شغلت السلطات تماما عن هذه القضية.. دعك من أنه لم يظهر أي أثر لتلك الجماعة وأنشطتها المنحرفة بعد التحرير.. فماتت القضية مع مرور الأيام.

سألته باهتمام شديد:

-ومن برأيك هذا (الأعور)؟!.. من يكون؟!..

مط الصحفي شفتيه وقال:

-لا أحد يعلم.. ربما يكون ذو منصب كبير وخطير في الدولة.. وربما مجرد موظف حكومي بسيط!!.. لقد كان (آل كابوني) ملك الجريمة في أمريكا.. لكنه في الظاهر كان مجرد تاجر أثاث مستعمل ([27])!!..

قلت للصحفي بتوتر يشوبه بعض الشك:

-لا أصدق أن أحدا يغير معتقداته بهذه السهولة ويصدق تلك الأكاذيب الشيطانية!!.. حتى مع عمليات غسيل المخ.. كيف يصدق أي إنسان عاقل خزعبلات مدعي النبوة هذا؟ !!..

ابتسم الصحفي ابتسامة العالم ببواطن الأمور.. ثم قال:

-إن النفس البشرية بحر غامض مخيف ومثير بنفس الوقت!!.. أمواجه تارة تتكسر بنعومة وانسيابية على رماله الباردة.. وتارة أخرى تهدر بعنف ضاربه صخور شاطئه بمنتهي القسوة ومحطمه لكل ما يظن المرء أنها ثوابت حياته..

سكت قليلا وسط نظرات عدم الاقتناع التي كانت واضحة على وجهي.. ثم أردف:

-لقد تأسست حركة عبادة الشيطان منذ فترة قصيرة نسبيا.. منذ عام 1966.. ومع ذلك فإن أكثر من خمسين ألف شخص ينضمون إلى تلك الحركة كل عام من مختلف أنحاء العالم ([28]).. بينهم

مسلمون ومسيحيون ويهود.. كيف برأيك اقتنع كل هؤلاء؟!.. كيف برأيك امتدت حركة عبادة الشيطان إلى (الكويت) نفسها ؟!.. إنها حركة شبيهة جدا بتنظيم (أخوة الدم).. بل إن تنظيم (أخوة الدم) نفسه ليس سوى مزيجا من عبادة الشيطان مع حركات منحرفة أخرى!!.. كيف يجندون كل هؤلاء الشباب؟!.. كما قلت لك.. إنهم يبحثون عمن يعانون من أزمات اجتماعية أو نفسية.. و.. مع وسائل غسيل المخ التي شرحتها لك.. يصبح بعدها كل شيء ممكنا.. وأخيرا.. الفارق بين عبادة الشيطان وتنظيم (أخوة الدم) أن الأولى تهدف في النهاية إلى انتحار الفرد ظنا منه أنه سيذهب إلى جنة الشيطان المزعومة.. بينما تنظيم (أخوة الدم) يهدف إلى كسب ولاء الشباب وجعلهم يفدون (الأعور) بأرواحهم.. هذه الحركة تفعل ما فعله (الحسن بن الصباح) الذي كان أول من جاء بفكرة (الفداوية) أو (البودي جارد) في التاريخ ([29]).. الفارق أن (البودي جارد) يفعل ما يفعله نظير راتب.. بينما (البودي جارد) التابع لـ(الأعور) يفدي نبيه المزعوم هذا عن قناعة كاملة!!.. و.. لم يعد لدي ما أقوله.. لأنني كنت أنتفض.. أنا.. أنا لا أستطيع احتمال جو المؤامرات هذا!!.. سأموت هلعا.. ارحموني عليكم اللعنة!!..

شكر الدكتور (وليد) صديقه الصحفي الذي سألنا بحذر:

-أخبرني يا (خالد).. هل هناك من تعرض لك من تلك الجماعة؟!.. لا شك أن هذا قد حدث.. وإلا.. لماذا يبدو عليك القلق هكذا؟!.. ثم.. ما سبب زيارتكم لي والسؤال عن تلك الجماعة تحديدا؟!.. ربما يجدر بك أن تذهب إلى الشرطة.. إنني مستعد للذهاب معكما إلى المخفر إن أردتما.. ماذا تقول؟!..

قلت له بضراعة:

-أرجوك يا سيدي أن تنسى تماما أمر زيارتنا هذه.. أرجوك.. فحياتي نفسها ستكون معرضة للخطر إذا أبلغت الشرطة.. لقد تلقيت تهديدا صريحا بذلك..

مط شفتيه استنكارا.. وكأنه يشعر أنه يستحق أن يعرف المزيد بعد أن أخبرنا بكل ما لديه.. ربما معه حق في هذا.. لكني لم أهتم.. فاستأذنته بكلمات سريعة.. وخرجت من مكتبه وأنا أسمع الدكتور (وليد) يشكره بدوره ويعده باتصال آخر قريب!!.. فخرجنا معا من مبنى الجريدة حيث كنت غارقا في أمواج بحر لا وجود له!!.. الأمواج تعلو وتعلو حتى أكاد ألفظ بسببها أنفاسي الأخيرة.

لا أصدق أنها التاسعة مساء!!.. لقد قضينا أكثر من أربع ساعات مع هذا الصحفي.. فمرت الساعات وكأنها ثوان.. أشعر أنني فقدت إحساسي بالوقت نهائيا.. و.. وصلنا إلى حيث تركت سيارتي عند مواقف الجريدة.. ففتحت باب السيارة بيد مرتجفة لم تعد ذات ارتباط قوي بجهازي العصبي الإرادي!!.. لكنني لم أركب.. بل قلت للدكتور بصوت لم آلفه:

-اسمح لي.. أريد أن أنفرد بنفسي قليلا..

ودون أن أنتظر منه الرد.. أدرت له ظهري وبدأت في البكاء!!.. لم يركب الدكتور السيارة.. بل اتجه ناحيتي عندما لاحظ أنني منهار.. فوضع يده على كتفي محاولا تهدئتي بكلمات لا أذكرها.. ترى.. ترى هل أنا في فيلم سينمائي؟!.. هل سيظهر فجأة المخرج من ركن ما ويصرخ: اقطع.. انتهينا اليوم من التصوير!!.. لو كنت أشاهد فيلما أو مسرحية بهذا الغموض.. لوجدت أن طريقة (الإله من الآلة) ([30]) هي أنسب حل لما يحدث!!.. أكاد أن أجن.. لا بد من حل لما يحدث هنا.. لقد

أصبح لهذه الجماعة حاجز نفسي مخيف.. صرت أخشاهم كالموت ذاته.. إنني في مأزق مخيف.. مخيف.. إنهم -الأوغاد -يجدونني فريسة سهلة يتلاعبون بها ويقنعونها أن المستحيل ممكن!!.. ماذا بوسعي أن أفعل؟!.. لا أجرؤ على تخيل ما سيحدث لي بعد شريط الفيديو إياه ونهوض الموتى.. ماذا ستكون لعبتهم القادمة يا ترى؟!.. لا أستطيع أن أظل متربصا قلقا هكذا خلال الأيام القادمة!!.. إنني أفضل الموت على أن أعيش بهذه الصورة.

وبصوت باك سألت الدكتور (وليد) وأنا أجفف دموعي:

-ماذا سنفعل؟!..

لم يجب على سؤالي.. لأنه لا يعرف ما سنفعله بالتأكيد.. وأعتقد أن الدكتور نفسه لا يجرؤ على إبلاغ الشرطة بالأمر.. لأنه يعرف أنه قد يكون مهددا هو الآخر!!.

ركبنا السيارة بعد أن هدأت قليلا.. وبدأنا رحلة العودة إلى الكلية كي أوصل الدكتور إلى سيارته!!.. كان الوقت ليلا.. فقد قضينا قرابة الأربع ساعات عند ذلك الصحفي كما ذكرت.. ولم أنس أن أتصل بجدتي لأخبرها بأنني سأتأخر.. ليتها تعرف المصائب التي أعيشها.. لا يمكن أن تصدق أنني أمر بما أمر به من أهوال دون أن تعلم هي أي شيء عنها!!!.. كنت غارقا في خواطري والشوارع مبتلة تماما بسبب تساقط الأمطار في شتاء (الكويت) الحزين!!.. و.. هل تعرف تلك اللحظات.. عندما تخطر إلى ذهنك فكرة مجنونة كومضة مصباح؟ !!.. فتطرحها جانبا ثم تعود وتلح على عقلك؟!.. نعم.. هذا ما حدث لي.. فكرة جنونية طرأت على ذهني المكدود فجأة!!.. وأصبحت الفكرة بعد دقائق قليلة قرارا خطيرا رهيبا ولكنه ضروريا!!.. نعم.. لا بد من هذه الخطوة.. صدقوني.. ستشعرون بالدهشة مما قد تستطيعون عمله عندما تتحول حياتكم إلى جحيم!!.. تنحنحت بحرج ثم قلت للدكتور (وليد) بحذر:

-لماذا نجلس هنا نتحسر على حالنا دون أن نلجأ إلى خطوة أراها مهمة ومنطقية للغاية؟ !!..

سألني مستغربا:

-وما هي هذه الخطوة؟!..

قلت متجنبا النظر إليه:

-فلنتأكد أن رفات ذلك الشخص الذي أعدم قبل الغزو ترقد بأمان في قبره في مقبرة (الصليبخات) كما أخبرنا صديقك الصحفي!!!!.. لقد كان يسخر من الجميع ويقسم أنه سيعود إلى الحياة.. أليس كذلك؟!.. فلنتأكد!!!..

بدا وكأن الدكتور لم يستوعب ما قلت.. فسألني بدهشة:

-معذرة.. أنا لم أفهمك جيدا.. هل.. هل.. هل تحدثت عن نبش القبر؟!!!..

أجبته بإصرار دون أن أنظر إليه:

-هو ما قلته تماما..

ساد الصمت لدقائق طويلة بعد اقتراحي هذا.. ثم قال الدكتور (وليد) بحدة وصرامة:

-إنني أرفض هذا الاقتراح تماما.. فلن يملك بشر مهما بلغت قوته أن يبعث بأحد إلى الحياة مرة أخرى..

قلت له بعينين دامعتين والصراع داخلي بلغ الذروة:

- إننا لن نخسر شيئا يا دكتور.. أرجوك.. أحتاج إليك.. لا أستطيع أن أخوض هذه الحرب وحدي!!..

رفض تماما.. لكني لم أيأس.. بل ظللت أتوسل وأتوسل إليه ودموعي تنهمر دون خجل!!.. وهو صامت كالسلاحف.. يشيح بوجهه ناحية نافذته.. إلى أن قال أخيرا بعد تفكير عميق:

-نعم.. ربما.. ربما لن نخسر شيئا!!..

هتفت غير مصدق:

-حقا يا دكتور؟؟!!.. ستفعل هذا من أجلي؟!..

لم يعرف كيف يرد.. فهمهم بكلمات غير مفهومة!!.. لا شك أنه شعر بالشفقة تجاهي.. هذا هو الدافع الوحيد الذي يجعله يقدم على خطوة كتلك.. أو ربما شعر أنه هو نفسه في دائرة الخطر بعد أن قاموا بوضع السم له في الماء ويريد أن يعرف أبعاد تلك القضية.. لا أعلم.. و.. لم أكذب خبرا.. فغيرت وجهة السيارة بسرعة إلى مقبرة (الصليبخات) قبل أن يغير الدكتور رأيه.. لكنه أصر أولا على الذهاب إلى أحد المطاعم لشراء بعض السندويتشات.. ومعه حق في ذلك.. فنحن لم نأكل شيئا منذ الصباح!!.. على أن نتجه بعدها في وقت متأخر نسبيا إلى المقبرة حتى يقل الازدحام المروري ولا يلحظ أحد دخول سيارتنا إلى طريق المقبرة المقفر!!.. لا نريد أن نقع في مشاكل نحن في غنى عنها!!.

وبالفعل.. توجهنا إلى أحد مطاعم الوجبات السريعة.. وجلسنا نأكل دون شهية تقريبا على الرغم من أننا لم نذق شيئا منذ الصباح كما أخبرتكم!!.. ثم بدأنا الحديث عن أمور جانبية.. و.. الحادية عشرة مساء.. رأينا أن الوقت الآن مناسبا جدا للذهاب إلى المقبرة.. فلا شك أن زحمة الشوارع القريبة من مقبرة (الصليبخات) قد هدأت إلى حد كبير.. سنوقظ الحارس ونحاول إقناعه بنبش القبر!!.. حتى لو تطلب الأمر رشوته!!.. وهذا ما كنت أنوي فعله في واقع الأمر!!.

كنت أقود السيارة متجها إلى المقبرة.. في حين تعربد العواصف والأمطار في الخارج!!.. لو كنت في مزاج رائق لبدا لي هذا رائعا.. أحب ذلك الشعور الطفولي الرائع بالأمان!!.. قطرات المطر تنهال على الدروب وتتكسر المرئيات عبر خيوط الماء المنزلقة فوق زجاج النافذة ببطء.. فأدير المساحات وأستمر في القيادة وسط شوارع (الكويت) المبتلة.. إن الأمر مقلق بحق!!.. فالاعتماد على النفط فقط لن يكفي.. لا بد من موارد أخرى للبلد.. خاصة وأن... ماذا أقول؟؟!!.. ما علاقة هذا في الموضوع ؟!.. إنني أخرف لا أكثر.. لقد فقدت قدرتي على التفكير السليم لأنني لم أنم بشكل جيد منذ يومين أو ثلاث.. لا أذكر!!.

كانت حدة الأمطار تتصاعد شيئا فشيئا منذرة بالويل لكل الحمقى الذين لن يعودوا لديارهم خلال ساعة.. ونحن حمقى بالطبع.. لذا لم نعد لديارنا!!.. الشوارع زلقة مبتلة.. من المؤكد أنكم تسمعون معي صوت (السبلاش) الذي يحدثه الماء وهو ينتشر كالموج من تحت عجلات السيارة!!.. و.. بدأنا ندخل شارعا أضيق وأقل نظافة.. لنصل أخيرا إلى المقبرة.

أوقفنا السيارة عند البوابة.. وترجلنا منها بعد أن أطفأنا المحرك.. متجهين إلى غرفة الحارس.. آمل أن نكون قادرين على إقناعه بنبش القبر!!.. قطرات المطر تنهمر فوق رؤوسنا اللامبالية!!.. كنت أرتدي ملابس ثقيلة جدا وتحت بنطلوني سروال قطني سميك.. لكني برغم ذلك كنت أرتجف من

هول الأحداث لا من البرد!!.. و..

-(خالد)؟!..

وضع الدكتور يده على كتفي مناديا لي.. فوثبت في مكاني هلعا وبدأت أبسمل وأحوقل..

فقال متهكما:

-يالك من أبله.. إننا لم نبدأ بعد.. دعني أتولى أمر الحديث مع هذا الرجل.

هززت رأسي موافقا.. كنت على ثقة أننا سنجد الحارس ميتا.. لماذا؟!.. لأنني أعرف أنني شخص منحوس إلى حد لا يصدق!!.. رفعت يدي مترددا وطرقت الباب.. لا رد.. طرقة أخرى.. لا رد أيضا.. في النهاية جاء الصوت من الداخل أخيرا..

-لحظة.. إنني قادم..

الحمدلله أنه لم يمت بعد!!.. نظرت إلى الدكتور في قلق.. فربت على كتفي مطمئنا.. قبل أن يفتح الباب رجل عجوز من جنسية عربية.. له وجه مسن مفعم بالتجاعيد ولحية طويلة بيضاء.. وكان يرتدي سترة صوفية قديمة رثة، تبرز شعيرات بيضاء من تحت ياقته العالية مع غطاء رأس (شماغ) يغطي به رأسه دون عقال.. ولكن تحت هذا الرأس الواهن هناك جسد قوي لم تذبل عضلاته بعد!!.. على الأقل هو أقوى من جسدي أنا..

قال لنا بابتسامة عذبة لم تخل من الاستغراب:

-من أنتما؟!.. وماذا تريدان؟!..

كان ظهري يرتجف من البرد ووجهي ينعم بالدفء القادم من داخل الغرفة.. حتى أنني شعرت برغبة عارمة كي أدخل لأنام قليلا!!..

قال له الدكتور (وليد) بابتسامة ودود مصطنعة:

-هل لنا أن ندخل قليلا.. أنا دكتور.. فلا تخشى شيئا!!..

وأخرج الدكتور هويته للحارس الذي أفسح لنا المجال للدخول مرحبا دون أن ينظر إلى الهوية وهو يقول:

-أهلا وسهلا.. تفضلا!!..

كانت غرفة الحارس بسيطة رائعة.. ومن الغرف التي تجعلك تشعر بأن الحياة تستحق أن نحياها.. خاصة مع مدفأة (الكيروسين) القديمة التي أعطت الغرفة سحرا ودفئا لا حد لهما مقارنة مع دوي هزيم الرعد وصوت تساقط الأمطار!!.. حقا إن لدينا كل ما يلزم قصة رعب جديدة وجيدة.. البرد.. الظلام.. الأمطار.. ودراما المكان الواحد حيث يجتمع مجموعة من الأشخاص يتوقعون الشر..

تحدثنا ونحن واقفين.. فقال الدكتور (وليد) بملامح توحي بخطورة الموقف:

-هل يمكننا معرفة أسماء الوفيات في تاريخ 1990/1/3؟!..

لحسن الحظ أن الصحفي قد أعطانا موعد تنفيذ حكم الإعدام لذلك الشاب.. لذا من المنطقي أن يدفن بنفس اليوم.. أو اليوم الذي يليه في أسوأ الأحوال.. و.. نظر إلينا الحارس متفهما.. ومن دون

أن يجيب.. اتجه إلى دفتر ضخم موجود في ركن الغرفة.. وهم بالبحث فيه لفترة بدت لي دهرا قبل أن ينظر إلينا باهتمام.. ويقول:

-لقد تسلمنا جثمانين.. أحدهما لشخص كان محكوما عليه بالإعدام!!.. والآخر لشخص مات متأثرا بالسرطان..

أومأ الدكتور برأسه متفهما ونظر إلي نظرة من طراز (نحن – في – الطريق – الصحيح -إذا).. ثم تنحنح قليلا وقال بحرج: -نريد أن ننبش قبر الشخص الذي أعدم شنقا!!..

تغيرت نظرة الحارس تماما وتحفز وهو يقول بشيء من الاستغراب:

-هل لديك أمر من المحكمة؟!..

-لا..

رد بحزم:

-إذن أعتذر.. لا أستطيع فعل هذا..

كنت أتوقع هذا الرد.. فعرضت عليه مبلغا من المال لا بأس به على الإطلاق!!.. نعم.. رشوة إن أردتم الدقة!!.. نظر إلى المال.. ثم نظر إلينا باشمئزاز.. وقال:

-آسف.. لا مجال لمناقشة الأمر..

أخرجت من جيبي كمية أكبر من المال.. ثم قلت:

-قبل أن ترفض.. تذكر شيئا!!.. إن المال الذي أعرضه عليك قد يوازي راتبك.. ونحن لن نفعل شيئا سوى نبش ذلك القبر.. وسنعيد بعدها كل شيء إلى ما كان عليه.. ثم ستحصل على مالك ولن يعلم مخلوق بما جرى.. صدقني إننا نفعل هذا لصالح الخير.. أقسم لك.. هه.. ماذا تقول؟!

فكر قليلا.. ولكنني ظللت أزين له الأمر وأصر عليه.. وأمام إلحاحي.. وافق!!.. فخرجنا جميعا من الغرفة.. وذهبنا مشيا إلى المقبرة التي كانت غارقة في الوحل بسبب هذه الأمطار الغزيرة.. وسبب عدم ذهابنا بالسيارة هو خوف الحارس من أن يرى أحدهم أضواء السيارة وهي داخلة إلى المقبرة!!.. أما الدخول بالسيارة والأضواء مطفأة فمستحيل بالطبع لأن الظلام يطغى تماما على كل شيء في الداخل.

ها نحن نمشي في المقبرة متجهين إلى ذلك القبر المرتقب.. أنا والدكتور (وليد) والحارس.. قطرات المطر تنهمر فوق رؤوسنا غير مبالية!!.. البرد شديد.. حتى شعرت أن الهواء نفسه تجمد!!.. والظلام نفسه تجمد!!.. وخيل إلي أن الموتى سينهضون من قبورهم هنا أيضا كما فعلوا في المشرحة.. نعم.. لا بد للخيال البشري أن ينشط في هذا الزمهرير!!..

كانت المقبرة كئيبة كالكابوس.. مع أصوات قادمة من الظلام من وسط المقابر التي لا يجرؤ إنسان على المشي بينها ليلا!!.. شواهد باردة بما عليها من كلمات صار من العسير قراءتها.. أسماء لموتى تكاد تظن أنهم لم يعيشوا يوما واحدا.. هنا قبر.. هناك قبر.. عشرات المقابر تمتد على مرمى البصر.. ظلام دامس.. برك ماء تلعب نفس الدور المخيف الذي تلعبه المستنقعات في قصص الرعب..

كان الحارس يتقدمنا بين الشواهد ويحمل بيده مصباح يدوي وفي اليد الأخرى رفش.. ويقارن

أرقام القبور مع رقم القبر المطلوب الذي كتبه على ورقة في يده.. و..

-ها هو!!..

هتف بانتصار مشيرا إلى قبر عادي لا يحمل شاهده أي اسم!!.. شعور غريب ينتابني بسبب هذا العمل الأخرق الذي أقوم به!!.. ولكن الأوان قد فات للتفكير وإعادة النظر.. لا أصدق أن ثلاثة أيام فقط مرت منذ غرقي في بحر تلك القصة.. ثلاثة أيام عشت فيها كوابيس لم أعشها في حياتي.. ثلاثة أيام بدت لي دهرا.. ها هو الحارس يعطي الدكتور المصباح ويشمر ذراعه ثم يبدأ الحفر!!.

وبدأ الرفش يعمل في إزالة التراب ونبش القبر.. التراب يتراكم.. ويتراكم!!.. أخيرا بدأت معالم الحفرة تتضح.. وبثياب مبللة تماما.. كان عقلي مشغولا ويعمل بجنون إن صح التعبير.. وشعرت لوهلة بأنني أختنق عندما خطر لي خاطر مفزع!!.. ماذا لو وجدنا القبر خاويا!!.. لا.. مستحيل.. هززت رأسي نفيا بقوة.. سنجد هيكلا عظميا!!.. بعون الله سنجده!!..

كان البرد ينخر عظامنا بالفعل!!.. والحارس يرتجف ويسعل.. ويلهث حتى شعرت بشفقة حادة تجاهه.. خاصة وأننا نملك رفشا واحدا فقط.. ولكن شفقتي ناحيته زالت تماما عندما توقف فجأة عن الحفر وهو يقول بغلظة وبصوت لاهث:

-أنا أحفر وحيدا.. لم لا يساعدني أحدكما.. هذا الولد مثلا؟ ؟!..

نظرت إلى الدكتور (وليد) مستنجدا.. لكنه نظر إلي نظرة من طراز (معه -حق) !!.. يبدو أنه لا مفر!!.. حسنا إذا.. سأحفر إلى أن أصل إلى أقرب نقطة للكفن.. عندها سأتوقف لأن أعصابي لن تحتمل.. سأطلب بعدها من الحارس أن يستكمل البقية الباقية..

فركت يدي ببعضهما طلبا للدفء.. وبيد مرتجفة أمسكت الرفش.. ورحت أحفر.. وأحفر.. وعقلي هو الذي يعمل وليس قلبي.. فقلبي كان على وشك التوقف!!.. أحاول بين لحظة وأخرى أن أعب في جوفي أكبر قدر ممكن من الهواء النقي المبلل بالمطر!!.. كما أن ثيابي لم تعد مهندمة بالطبع.. فقميصي غادر السروال.. وتحولت ثيابي بسبب الوحل إلى خرقة مبتلة تصلح لتنظيف السيارات!!.. لكننا ننبش قبرا على كل حال فليست الأناقة بالشيء المهم الآن.. ولا أنسى رفيق الدرب الحبيب.. التوتر!!.. دائما التوتر.. والمخاط الذي يسيل من أنفي من شدة البرد.. دعكم من بخار الماء الذي يخرج من فمي.. وصوت اللهاث واصطكاك الأسنان.. و.. اقتربت أخيرا من المنطقة المحظورة.. فغادرت القبر دون أن أنطق بحرف.. وقلت للحارس لاهثا:

-لقد اقتربنا كثيرا من الكفن.. أرجوك أكمل عني الحفر..

نظر إلي الحارس وهز رأسه.. وكأنه يأسف لجبني!!.. فنزل إلى القبر دون أي كلمة.. أما الدكتور (وليد) فكان يرقب كل ما يحدث بصمت وتوتر.. إلى أن قال الحارس أخيرا وبوجه مبتل:

-أحب أن أحذركما قبل الوصول إلى الجثة.. إنها مدفونة منذ سنوات طويلة.. ولن يسركما ما سيقع بصركما عليه!!..

أجابه الدكتور (وليد) وقد بلغ توتره مبلغا:

-أكمل يا رجل.. أكمل بالله عليك..

بعدها بلحظات وصلنا إلى الكفن.. ولم أنس بالطبع أن ألتقط نفسا عميقا مهدئا نفسي تحسبا لما

قد أراه.. لا أستطيع أن أرى الحارس لأنه يغطي الكفن بجسده.. لذا لم أنتبه إلى أنه قد كف عن اللهاث.. وأن نظراته تصلبت!!.. وأن الوجوم والاكفهرار الشديد قد غمرا سحنته!!.. ثم انتبهت أخيرا.. انتبهت إلى أن شيئا ما أصابه برعب حقيقي.. نعم.. لقد كان القبر خاليا!!.. خاليا كعقل طفل رضيع.. بل وبدا أن هناك من مزق الكفن وخرج منه منذ سنوات طويلة!!!!.

عزيزي القارئ.. عندما عدنا إلى غرفة الحارس.. لم تكن أجسادنا قد توقفت عن الارتجاف بعد.. ليس بسبب البرد هذه المرة.. بل من هول ما رأينا!!!.. لأول مرة أرى الدكتور (وليد) وقد فقد كل وقاره واعتداده بنفسه.. حتى بدا بثيابه المبللة أقرب إلى المشردين!!..

كنت مستندا إلى الجدار محاولا ألا أفقد الوعي وعيناي تدوران حول محجريهما بجنون!!.. في حين قطرات الماء تهوي من ثيابنا إلى الأرض لتبلل الغرفة في مشهد درامي مخيف.. أما الحارس فقد احتقنت عروقه واحمر وجهه.. وانفجر في بكاء حار مما جعلنا نبدو كوغدين جاءا يضايقان هذا الرجل البائس!!.. وبعد مرور أكثر من نصف ساعة.. سألت الحارس سؤالي الذي سألته إياه سابقا ثلاث مرات على الأقل:

-أرجوك أجبني.. هل يمكن لأحد التسلل إلى المقابر وسرقة إحدى الجثث دون أن تدري؟!..

صرخ بي الحارس ثائرا وقام بدفعي بقسوة حتى أنني وقعت على الأرض وهو يقول واللعاب يتطاير من فمه من شدة الغضب والانفعال والبرد:

-نعم أيها الصبي.. نعم.. نعم.. نعم.. لقد أجبت على سؤالك السخيف هذا ألف مرة.. لا توجد أي إجراءات أمنية هنا.. فنحن لسنا في بنك.. ولا أحد سيفكر في سرقة جثة!!..

ثم شرع يبسمل ويحوقل.. فأمسك الدكتور (وليد) ذراعي وهو يبعدني عن الحارس قائلا بحدة سببها توتر الموقف:

- دعه يا (خالد).. دعه.. فلنخرج من هنا.. الأمر واضح.. لا أعتقد أن أحدا قد سرق الجثة كي يوهمنا بشيء.. وكيف لأحد أن يظن أن هناك من سيفكر بنبش القبر أصلا؟!.. لا تنسَ أننا نبشنا قبرا عمره أكثر من سبعة عشر عاما!!..

وقفت متصلبا على الجدار دون أن أنطق بحرف أمام هذا الرد المنطقي.. كنت أرتجف كورقة من فرط انفعال كاد أن يقتلني.. قطرات العرق على جبيني بالرغم من قسوة البرد!!!.. يا إلهي.. حقا أنني أحمل لهذه القصة أسوأ ذكرى ممكنة.. لحظات.. لحظات توقفنا فيها عن الحديث.. ولا صوت هناك سوى صوت قطرات الماء التي تنزل من ثيابنا.. عندما رأيت الدكتور يمشي بهدوء ناحية براد ماء صغير ويصب لنفسه بعض الماء.. ثم يجرع الكوب كله من شدة العطش.. هذا.. هذا يذكرني بشيء.. يذكرني بأمر خطير لم أنتبه إليه في البداية!!.. هل.. هل ما خطر ببالي له أي معنى؟ ؟!.. إنه أمر سخيف وتافه جدا.. لكنه جدير بالتفكير!!!..

هذا المشهد جعل لقطات خاطفة كـ (فلاش باك) السينما تضيء في ذهني.. لقطات ولقطات غير مفهومة ومشاهد تتركب لتكوّن فيلما واضح المعالم في عقلي المكدود.. هل هذا ممكن؟!.. هل هذا ممكن؟!.. راح عقلي يعمل بسرعة البرق.. هناك إجابات لكل تساؤلاتي متى ما ربطتها بهذا الأمر تحديدا.. حقا أن الترتيب المنطقي يقود إلى الحل دائما.. و.. انتصبت قامتي فجأة بعد دقائق قليلة من التفكير.. والتفت إلى الدكتور (وليد).. ثم قلت له بلهجة تفوح منها رائحة الغموض:

-أنت تشعر بالعطش الشديد هذه المرة فعليا يا دكتور.. وليس كالمرة السابقة التي تسممت فيها..

أليس كذلك؟؟!!..

التفت إلي الدكتور متسائلا دون أن يفهم قصدي!!.. لكني واصلت الكلام قائلا:

-إنني غبي يا دكتور.. غبي.. أو ربما لا يجدر بي أن ألوم نفسي لأنه من الصعب تخيل وجود هذا العقل المريض!!..

-عم تتحدث أيها الأحمق؟!..

سألني الدكتور بحدة.. ولكن.. أنا من كنت هادئا هذه المرة عندما قلت له ساخرا:

-((هذه هي العبقرية يا (خالد).. أن ترى وجها آخر للحقيقة.. أن ترى (استراليا) في شمال العالم وليست في جنوبه)).. هل تذكر كلامك هذا يا دكتور (وليد) ؟!.. وهل تعرف ما قاله جميع أساتذتي عني؟!.. جميعهم قالوا أنني أملك نظرة تحليلية رائعة للأحداث.. جميعهم قالوا أنني عبقري.. ليس هذا غرورا أبدا.. لكن هذا ما قالوه وما قلته بنفسك عني!!..

سكت قليلا لأزدرد لعابي وسط نظراته المتسائلة.. ثم أردفت:

-لقد جعلتني أحداث تلك القصة أغرق في عالم مظلم مخيف تتحكم فيه جماعة (أخوة الدم).. إنها جماعة مخيفة بحق.. وقوية جدا.. لدرجة أنها تمكنت وبكل سهولة من اقتحام شقتي لتصوير كل ما فيها.. فقط لإشعاري أنها تملك مصيري تماما بأسلوب عصابات المافيا.. لقد عشت في بحر هائل من التساؤلات التي كادت أن تغرقني.. فمن ذلك الزائر الدخيل الذي اقتحم شقتي؟!.. وماذا عن خلو القبر من جثة ذلك الشاب الذي تم إعدامه.. والأهم من كل هذا.. ماذا عن نهوض الموتى من على موائد الفحص؟ ؟!.. هذه أحداث خارقة تفوق قدرات الإنسان العادي.

سكت قليلا منتظرا منه أن يقاطعني.. لكنه لم يفعل.. بل ظل واقفا يحدق بي بغموض لم أفهمه.. فاستطردت قائلا:

-هل تعرف كيف كشفت أمرك؟ ؟!.. لقد جعلت الأحداث تتوالى داخل عقلي وتربط كل شيء بك أنت!!.. لماذا أنت بالذات؟ ؟!.. هل تذكر عندما طلبت مني في المشرحة أن آتيك بزجاجة الماء؟!.. كنت وقتها تدعي العطش الشديد.. ورغم ذلك فأنت رشفت القليل والقليل جدا من الماء!!..لأن الماء مسمم بالطبع ولن تقتل نفسك بشرب كمية كبيرة منه!!.. هذه ملاحظة صغيرة جدا وتافهة لم أنتبه إليها إلا عندما رأيتك قبل لحظات قليلة تجرع الماء وكأنك تكاد تموت عطشا!!.. هذه الملاحظة التافهة جعلتني أربط جميع الأحداث بك أنت تحديدا!!.. لكن عقلي توقف فجأة عند معجزاتكم المزعومة.. أهمها صحوة الموتى في المشرحة!!.. كان هذا ما يجعلني على حافة الجنون.. وقريبا من تصديق هذه الجماعة المخبولة التي تطلق على نفسها اسم (أخوة الدم).. لكنك قلتها.. ما من بشر مهما أوتي من قوة قادر على إحياء الموتى.. بالفعل.. ما من بشر يقدر على ذلك.. إذا كيف فعلتها؟!.. كيف جعلتني أرى الموتى ينهضون من على موائد الفحص؟!.. الجواب سهل جدا.. سهل إلى درجة أنني لم أنتبه إليه لبساطته.. فباستبعاد المستحيل وهو نهوض الموتى من على موائد الفحص ستتبقى لدينا حقيقة واحدة.. وهي أنني كنت واهما.. من أين جاء هذا الوهم؟!.. أعتقد أنني أعرف السبب الآن.. لقد استغللت خوفي وجبني.. ووضعت في قهوتي التي شربتها في مكتبك عقار للهلوسة ([31]).. إن عقاقير الهلوسة قادرة على هذا وأكثر.. أليس كذلك؟!.. لقد أعطى عقار الهلوسة لهذه القصة صبغة غير عادية لأمور عادية تماما.. ربما رشوت عامل الكافتيريا ليفعل هذا.. وربما الرجل الذي جاء بالقهوة إلى مكتبك

قبل دخولنا إلى المشرحة ليس عاملا في الكافتيريا أصلا!!.

لم ينطق الدكتور بحرف.. بل سكت تماما وهو ينظر إلي بهدوء.. أما الحارس فكان يجهل تماما ما نتحدث عنه بالطبع.. فأخذ يحدق بنا ببلاهة!!..

واصلت كلامي قائلا:

-إنكم جماعة مخيفة جدا.. لكم نفوذ مخيف.. وربما لهذا استطعتم الحصول على مفتاح شقتي بكل سهولة.. ربما حصلتم عليه من أحد كبار الضباط.. كون وزارة الداخلية تمتلك مفاتيح لكل الأقفال.. لا أستبعد أن يكون أحد كبار الضباط من جماعتكم.. فأنت أحد أفراد تلك الجماعة على الأرجح رغم أنك دكتور في الجامعة تملك شهادة عليا.. قد يبدو هذا غريبا.. لكن الاستغراب سيزول لو عرفنا أن هناك بعضا من عبدة الشيطان ممن يحملون شهادات عليا ([32])!!!.. فلماذا يختلف عنهم تنظيم (أخوة الدم).. كلها تنظيمات منحرفة مجنونة ورغم هذا هناك من يعتنقها من أصحاب الشهادات العليا مع الأسف.. ثم هل تذكر لقاءنا بذلك الصحفي؟!.. أكاد أجزم أنه لا يعرف حقيقتك وأنك أردت منه أن يخيفني فقط بذكر قصة ذلك الرجل الذي كان يدعي أن الأعور سيعيده إلى الحياة!!.. لكنك فوجئت به يخبرنا بعمليات غسيل المخ وكل ما يتعلق بتنظيم (أخوة الدم) مما كشف بعض أسراركم.. لهذا رأيت الوجوم واضحا على وجهك.. لأنك لم تتوقع أنه يعرف كل هذه المعلومات.. أليس كذلك؟!..

سكت ملتقطا أنفاسي منتظرا منه أن يرد.. لكنه ظل يحدق بي بهدوء مستفز.. فأكملت بحدة:

-لقد أردت أن تسبب لي ضربات متتالية كما يفعل الملاكمين حتى أسقط بالضربة القاضية وأصبح تابعا لكم خلال أيام قليلة.. كما تذكرت الآن أمرا بالغ الأهمية.. أنت تحدق كثيرا بالشباب لتختار منهم من تظن أنه يناسب جماعتكم.. لهذا أنت تحدق بي دائما!!.. لماذا لم تخضعني لعملية غسيل المخ التي تحدث عنها الصحفي؟ ؟!.. لأنك أردت أن تختصر الطريق.. حيث ارتأيت أن الوسيلة الأنسب هي إخافتي لكي أنضم إليكم!!.. ربما لأنني سهل الانقياد ضعيف الشخصية يتيم الأبوين.. ولايوجد هناك من سيسأل عني سوى جدتي العجوز!!.. كما أنني أملك المال.. أليس هذا ما خطر ببالك عندما أردت تجنيدي؟!.. فعصابة مافيا في (الكويت) تعطي لنفسها صبغة دينية ستحتاج إلى المال دون شك.. أليس كذلك؟!.. هل تذكر ما قاله صديقك الصحفي؟!.. عصابات المافيا تسعى دائما إلى النفوذ.. إلى القوة.. والمال مطلوب للحصول على القوة والنفوذ؟!.. ولا أنسى أن أذكر ما حدث في المقبرة قبل قليل.. إذ لا شك أنكم قد استخرجتم جثة الشاب الذي تم إعدامه بعد دفنه بفترة بسيطة.. ربما فعلتم ذلك على سبيل الاحتياط.. فقد تضطرون يوما ما لنبش القبر.. وقد جاء هذا اليوم!!.. أليس كذلك؟!.. لقد لعبت معي دورا رائعا يا دكتور عندما رفضت فكرة نبش القبر.. لكن.. السؤال الذي أجهل إجابته.. من هو (الأعور)؟!.. مؤكد أنه ليس أنت.. فمستحيل أن يتكبد (الأعور) كل هذا العناء من أجلي!!.. أقول أنك أحد رجاله.. أحد كشافته إن صح التعبير!!.. أنت ممن يبحثون عن أعضاء جدد لتضمهم إلى تنظيم (أخوة الدم)..

انتهيت من كلامي.. والغريب أن الدكتور لم ينكر شيئا على الإطلاق.. بل قال لي بهدوء غريب:

-حقا.. حقا.. حقا أنك ذكي.. لم أقابل في حياتي أحدا يمتلك عقلية تحليلية رائعة للأمور بهذه الصورة!!.. لكنك لم تسأل نفسك لماذا انضممت أنا لجماعة (أخوة الدم).. حسنا.. دعني أخبرك بسر صغير يا (خالد)؟!.. إنني عبقري.. أؤكد لك هذا.. ولكن ما الذي نلته من عبقريتي تلك ومن

شهادتي الجامعية العليا؟!.. لا شيء.. لا شيء سوى الإحباطات في بلد يحارب الكفاءات وكأنها عدوى!!.. إلى أن التقيت ب(الأعور).. وهو مجرد لقب وليس اسمه الحقيقي بالطبع.. إنه إنسان رائع بحق.. من الطراز الذي تعرض عليه مشكلتك.. فتشعر أنها أصبحت مشكلته هو!!.. لذا فنحن مدينون له إلى حد مرهق.. لقد ساهم في ترقيتي.. وأعطاني المال لبناء مختبرا كاملا لأبحاثي.. إنه لا يتردد أبدا بدعمي بكل الوسائل المادية والمعنوية.. ويفعل ذلك مع كل من يعمل معه.. إنه رجل رهيب.. من الطراز الذي يشعرك بتضاؤل حقيقي!!.. له وجها حليقا عظيم التأثير وعينان واسعتان قويتان.. وهو لا يقدم إجابات.. لكنه يلقي أسئلة تحفز الناس على التفكير بدينهم ودنياهم!!.. وله صوت مليء بالحكمة.. صوت لا يجب أن تمزح معه.. بل لا تستطيع المزاح معه!!.. لقد قام (الأعور) بمعجزة حقيقية عندما أسس تنظيم (أخوة الدم) من خلال سعيه لتجنيد الشباب.. فهناك وحش داخل كل شاب.. هذا الوحش هو ما نحاول أن نحرره من داخلهم.. لنجعلهم عبدة للجنس والخمر والمخدرات وكل ما يضعف إرادتهم ويضمن ولاءهم لنا بعد عمليات غسيل المخ التي عرفت عنها والتي نجريها في مكان سري.. هؤلاء الشباب يدفعون بسخاء من أجل تنظيم (أخوة الدم).. ومستعدون للدفاع عن (الأعور) بحياتهم لأنهم اقتنعوا تماما أنه نبي!!..

سكت قليلا ليلتقط أنفاسه.. ثم استطرد باستخفاف:

-كنا نخطف الشباب الضعفاء الذين ينتمون إلى أسر مفككة وميسورة الحال في نفس الوقت.. من تلك الأسر التي يغيب عنها أبناؤها بالأيام دون أن يسألوا عنهم.. وهو أمر عسير جدا كما ترى.. لهذا أوجدنا فريق كامل من الكشافة لنبحث عن هؤلاء الشباب.. ثم نخضعهم بعد ذلك لعمليات غسيل المخ التي حدثك عنها ذلك الصحفي.. ومع ازدياد عدد المنتمين إلى (أخوة الدم).. أصبحنا نحتاج إلى تبرعات من هؤلاء الشباب من أجل الحفلات الماجنة التي نقيمها لهم بين الحين والآخر..

سألته بحذر:

-وماذا عن دخول أحد أعوانكم إلى شقتي وتصويرها؟ ؟!.. كيف عرفتم أن جدتي وأنا نياما وأننا لن نستيقظ مثلا أثناء وجوده؟ ؟!..

مط شفتيه بلا مبالاة.. ثم اقترب مني قليلا قبل أن يقول:

-لقد فكرت بالأمر ووجدت أنها تجربة ستجعلك تعيش في رعب حقيقي.. لذا فقد كانت تستحق المحاولة.. أما لو استيقظت من النوم كما تقول.. فمن المرجح أن أقصى ما ستفعله هو أن تملأ الدنيا صراخا.. عندها سيفر الدخيل بكل بساطة.. فحسب معرفتي التامة بشخصيتك.. أنت رعديد.. ولست من النوع الذي سيصارع ذلك الدخيل.. إن أفضل ما ستفعله هو الهرب إلى غرفة جدتك وإقفال الباب عليكما.. أليس كذلك؟ ؟!..

و.. لقد كنت أتوقع المزيد من الحوار.. أو نوعا من التلاعب.. لكنه انقض علي بشكل مفاجئ!!.. هكذا دون سابق إنذار!!.. فهوى بقبضته على وجهي.. ومع شخص هزيل مثلي فإن الأمر كان أشبه بالاصطدام بمقدمة قطار مسرع!!.. لتنهال علي الضربات من الجهات الست.. ركلات.. لكمات.. فتمزقت أجزاء من ثيابي.. وأخرج الدكتور بعدها مطواة فاخرة من جيبه ليطعنني بها!!.. أمسكت يده بذعر شديد وقلبي يكاد أن يتوقف من شدة الرعب.. حتى أنني بدأت أفقد الشعور بضرباته بسبب الخوف!!.. و.. عضضت يده الممسكة بالمطواة بكل قوتي!!.. إن هذا كاف في

السينما كي يترك الوغد السلاح.. إلا أن الواقع أكثر تعقيدا بكثير مع الأسف!!.. فهو لم يترك المطواة.. بل ازداد تشبثا بها!!.. كان يبتسم بقسوة وثقة مما زعزع ثقتي بنفسي (وهو تأثير كان يتعمده طبعا) !!.. لكني واصلت الإمساك بيده كالمسعور.. و.. وجدت بجانبي صخرة يضعها الحارس عند باب الغرفة ليبقي الباب مفتوحا.. مددت يدي إليها لأمسكها.. فرفعتها وهويت بها على رأس الدكتور بأرق ضربة استطعت أن أوجهها له لأنني لا أريد أن أفجر رأسه.. لا تسألوني عن حجم الدم الذي انفجر فجأة!!.. لا يمكن أن يكون هذا من تأثير ضربتي!!.. لا.. إنه.. إنه الحارس.. لقد هوى المسكين بالرفش على رأس الدكتور لينقذني.. كان ظهور هذا الرجل العجوز دراميا!!.. إذ سرعان ما تراخت قبضة الدكتور.. وتهالك جسده فجأة والدماء تفور من رأسه!!.. فدفعته بكل قوتي.. وظللت مستلقيا على الأرض بضع دقائق وأنا ألهث وأبكي وأصرخ وأشهق و.. إلخ.

لا أعلم حقا متى ينتهي هذا الكابوس.. متى أذهب إلى شقتي حيث الدفء والأمان؟!.. أما زال هناك أمان في هذا العالم حقا؟؟!!.. تمالكت أخيرا البقية الباقية من أعصابي.. وبيد مرتجفة نهضت لأتحسس نبض عنق الدكتور الذي امتلأ رأسه ووجهه بالدماء.. هل.. هل يلفظ أنفاسه الأخيرة ياترى؟ !!.. لا أعلم.. أما حارس المقبرة فقد شحب لونه تماما.. وقال وهو واقع على الأرض لا يقوى على النهوض:

-لم يكن هناك حل آخر.. كان سيقتلك.. كان سيقتلك.. كان سيقتلك..

ظل يرددها دون سكوت.. أما أنا فرحت بدوري أبكي بخفوت شديد واضعا يدي على رأسي كناية عن عدم تصديق ما يحدث!!.. كنت منهارا!!.. إنها المرة الأولى في حياتي التي أتعرض فيها لتجربة كتلك!!.. ماذا سأفعل؟!.. أأذهب إلى الشرطة؟!.. مستحيل.. لا يمكن أن تصدق الشرطة هذه القصة.. لدي الجريمة ولدي المتهم.. ولكن لن يقبل أحد قصتي حتى بشهادة هذا العجوز.. لا يوجد ما يدين الدكتور على الإطلاق.. ثم:

- يجب أن نخرجه من هنا.. سنكون في مأزق رهيب إن لم نتخلص منه الآن.. سيموت في أي لحظة..

لم يرد الحارس!!.. فقط نظر إلي بذعر هائل وكأنه فأر وقع في مصيدة.. لم أنتظر منه أي رد فعل.. بل نهضت من مكاني وجسدي يرتجف بشكل ملحوظ.. ثم اتجهت إلى باب الغرفة وفتحته.. ظلام الليل ما زال يخيم على المكان.. إن الساعة تقترب من أذان الفجر.. كنت أرتجف كفرخ طير مبتل.. التفت يمينا ويسارا قبل أن أخرج.. لا أحد هناك.. حملنا الدكتور والدماء تملأ وجهه ورأسه ووضعناه في صندوق سيارتي.. وخرجت أخيرا بالسيارة إلى الشارع تاركا الحارس منهارا تماما في غرفته.. الدكتور (وليد)؟؟!!.. كيف خدع كل هؤلاء الطلبة والناس الذين حوله.. بل.. بل كيف يعتنق أناس بهذه الشهادات العليا وهذه المراكز الاجتماعية عقائد غريبة منحرفة؟!.. كيف يعتنق أكثر من خمسين ألف شخص سنويا حركات عبادة الشيطان وغيرها؟!.. لم أجرب عمليات غسيل المخ.. لكن مفعولها قويا دون شك.. لا أنكر أنني أنا نفسي وجدت عقلي يبدأ بتصديق خرافات ذلك النبي المزعوم.. لكن الضغوط التي تعرضت لها خلال الأيام القليلة التي مضت كانت هائلة فعلا عجز عقلي وكياني عن تحملها.. رباه.. أنا الذي حسبت أنني رأيت كل شيء في هذا العالم!!.

لقد كنت أظن أن المصائب ستبتعد عني لو ابتعدت أنا عنها.. ولكن يبدو أن الشر لا يعتنق هذا الشعار أبدا!!.. دائما ما يتصادف أنني الشخص الخطأ في المكان الخطأ في الوقت الخطأ!!..

ودائما ما أنجو لأن أجلي لم يحن بعد.. وليس لأنني شجاع مثلا.. لكني لا أنكر أن عقلي ساعدني كثيرا في كشف الغموض المحيط بتلك القصة.. تماما كما حدث في تجاربي السابقة.

كانت الشوارع نظيفة براقة بسبب الأمطار.. ولا يعكر صفوها سوى شخص واحد يقود سيارته بجنون وفي صندوقها رجلا ينزف بجنون أيضا إن صح التعبير.. هل مات ؟!.. لا أعلم.. كنت متجها به إلى إحدى المناطق التي لم يصل إليها الزحف العمراني بعد حتى أتركه هناك!!.. أتوقف عند إشارة المرور بقلق.. لا أريد أن يراني متطفلون أو رجال شرطة.. فلو لم يرتاب رجال الشرطة بشخص مبلل مرتبك ثيابه مليئة بالوحل في الساعة الرابعة صباحا فبمن سيرتابون إذا؟ ؟!.. ضوء النهار في بدايته.. و.. أخيرا وصلت إلى الجهة المقصودة.. لأدخل بعدها إلى شارع غير مسفلت.. أتوقف وأنزل وجسدي كله ينتفض.. أفتح صندوق السيارة وأسحب الدكتور بقوة جعلت أوردة عنقي تكاد تنفجر بسبب بنيتي الضعيفة.. إنه ما زال يتنفس.. لكن أعتقد أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة..

تمكنت من إخراجه من سيارتي.. وتركته هناك مرميا على الأرض لأعود مسرعا إلى البيت وكل ذرة من جسدي تنتفض والدموع تملأ وجهي!!.. حمدا لله أن موعد استيقاظ جدتي لم يحن بعد.. وعلى كل حال كنت سأخبرها أن عطلا أصاب سيارتي.. هذا أسهل الأعذار.

وصلت إلى شقتي وطوحت بالحذائين في غرفتي.. مستشعرا تلك النشوة التي يبعثها التحرر من الحذاء بالجوارب المبللة.. وأخذت حماما سريعا ساهم بتهدئة أعصابي قليلاً.. لو فكرت قبل سنتين بأنني سأمر بقصص كالتي أمر بها الآن لذهبت بنفسي إلى مستشفى الأمراض العقلية!!.. حقا أنها قصة غريبة تتحدى التصديق لأنه من العسير أن يتصور المرء أن يكون هناك بشر نفوسهم مريضة إلى هذا الحد!!..

ذهبت بعدها إلى الفراش عازما على النوم لثلاث ساعات فقط ومن ثم الذهاب إلى محاضرتي في الجامعة!!.. لا بد أن أتصرف بشكل طبيعي.. فسيكون غريبا أن أغيب عن محاضراتي لأول مرة في غياب الدكتور المؤكد!!.. انسل جسدي تحت الغطاء السميك.. عالما أن لحظات دامية ستمر قبل أن يدفأ الفراش وتدفأ قدماي.. أسناني تصطك بردا وخوفا.. أشعر أن روحي نفسها تؤلمني من فرط التوتر والترقب.. أحك ذقني الخشنة التي لم أحلقها منذ ثلاثة أيام.. وأفكر.. ربما سيصلون إلي.. ربما سيقتلونني.. ربما سينتقمون.. فحتى لو مات الدكتور.. سيعرفون لا شك.. إنهم جماعة منظمة قوية مخيفة ويحكمون العالم السفلي في (الكويت) كما يبدو.. ترى هل سيعدون كمينا لي؟!.. كيس من المخدرات في غرفتي مثلا كما يحدث في الأفلام!!.. حقا لا أدري ما يجب فعله.

لقد فكرت بالذهاب إلى ذلك الصحفي وإخباره بكل شيء عله يساعدني.. لكن البارانويا سيطرت على عقلي تماما.. وبدأت أخشى أن أكون مخطئا وأن يكون هو نفسه واحدا من تنظيم (أخوة الدم).. إنني ضائع تماما.. ولو افترضنا أنني سأنجو منهم.. فربما سأفتح باب شقتي غدا أو بعد غد لأجد ثلاثة من رجال الشرطة بنظرات مليئة بالشكوك.. ويطلبون مني الذهاب معهم إلى المخفر لاتهامي بقتل الدكتور (وليد).. لينتهي مستقبلي.. لقد ازداد عبء ما أحمله على كاهلي من أسرار حتى صرت مرهقا فعلا.. وبسبب هذا الإرهاق نمت أخيرا!!.

بعد الاستيقاظ شعرت أنني في أسوأ حال ممكن.. فكنت أسعل وأعطس بشكل متواصل والمياه تتدفق سيولا من أنفي!!.. كان رأسي يترنح.. وكل هذه الأمور متوقعة بالطبع بعد الوقوف وسط الأمطار والوحل طوال الليلة الماضية.. إلا أن ضوء الشمس الحبيب أزاح الكثير من الرعب!!.. فجلست على مائدة الإفطار مع جدتي ألتهم الزيتون والجبن الأبيض..

كانت جدتي تقف وظهرها لي.. فأطبقت عليها بيديّ أحتضنها وأقبلها.. نظرت إلي مبتسمة وقالت:

- ما الذي حدث؟!.. أراك في حالة مزاجية جيدة اليوم.. هل حصلت على درجة جيدة في اختباراتك؟!..

فأجبتها:

-بل أهم من ذلك.. لقد اكتشفت كم أنا محظوظ لكونك أمي!!..

ضحكت جدتي ضحكتها الفاتنة التي أعشقها.. واحتضنتني بالمقابل.. كنت مبتسما لأنني استسلمت لقدري تماما.. فليحدث ما يحدث.. لن يجدي القلق!!.. سأنتظر مصيري وليكتب الله ما فيه الخير!!.. لأول مرة في حياتي أشعر بالصفاء على وجهي.. صفاء الراحة التامة.. ربما هي نفسها الراحة التي تظهر على وجوه الموتى قبل أن يموتوا بساعات قليلة.. وذلك عندما تتلاشى هموم الدنيا كلها ويعود الإنسان كما ولدته أمه.. بلا هموم..

ماذا جرى بعدها؟!.. لم يحدث شيء!!.. ظللت شهورا طويلة أنتظر أن يقرع الشرطة باب شقتي.. أو ينتقم مني هؤلاء الأوغاد.. لكن شيئا من هذا لم يحدث.. يبدو أنهم وجدوني طريقا إلى تحقيقات قد توقعهم في متاعب.. لا أدري.. ربما توقعوا أنني سألتزم الصمت وسأتوارى تماما عن الأنظار خوفا من انتقامهم..

من هو (الأعور)؟!.. لا أدري أيضا.. الحق أن هذا الرجل لغز.. ويبدو أنه رجل مهم في الدولة يحلم بتكوين جماعة دينية قوية هي أقرب إلى عصابات المافيا.. ويملك بعض الكشافة الذي يبحثون عن الشباب المترف كما علمنا جميعا.. أو يبحثون عمن يخشون من ظلهم مثلي أنا مع الأسف.. أما الدكتور (وليد).. فلا أعلم ما جرى له.. ظللت أبحث في الصحف عن خبر وفاته.. ولكن.. لا شيء.. اختفى تماما.. هل عثروا عليه؟!.. هل أنقذوه؟!.. هل مات وتكتموا على قضيته؟!.. لا أعلم حقا.. لقد أثيرت العديد من التساؤلات في الكلية حول اختفائه لكن سرعان ما تناسى الجميع الأمر مع مرور الأيام.

إن نهاية هذه القصة مفتوحة على مصراعيها.. وقد جعلتني أحداثها أعتزل البشر تماما.. فلم أفعل شيئا منذ نجاتي من هذه المغامرة سوى الذهاب إلى الكلية.. والعودة إلى البيت.. والعكس صحيح.. لم أعد أخرج على الإطلاق.. ولم أعد أحتك بالبشر نهائيا سوى بجدتي بطبيعة الحال.. فظللت منكمشا على نفسي شاعرا بذلك الشعور البغيض لمن يتعامل مع الشياطين!!.. فالشيطان لن يتغير إذا تعاملت معه.. هو الذي سيغيرك!!.

إن وجود جماعة حرة طليقة نفوذها مخيف كهذه قد جعلني أمشي بجانب الحائط كما يقولون.. أنتظر أن أسمع يوما عن تلك الجماعة.. أنتظر أن أقرأ في الصحف عن الكشف عن تنظيم خطير يطلق على نفسه اسم (أخوة الدم).. لكن لا شيء.. وعلى كل حال فإن الأمور دائما هكذا في (الكويت).. القضية تبدأ بشرارة تطرحها الصحف.. ثم تجدها على قنوات التلفزيون.. وبعدها لن تجد أيا من وسائل الإعلام تتحدث عنها.. لأنك ستجد القضية في الشارع وأمام عينيك.. عندها فقط سيتحرك المسؤولون.. أو ربما لن يجدوا الوقت ليتحركوا.

والآن.. وبعد سنتين من تلك الحادثة.. أعتقد أن تنظيم (أخوة الدم) يتحرك ببطء شديد ولكن بنجاح باهر.. كيف لم يكشف أحد هذه المؤامرة الهائلة؟ ؟!.. ربما لأن المؤامرة الجيدة هي التي لا

تستطيع كشفها..

الله سبحانه وتعالى وحده يعلم ما سيحل بهذا البلد الحبيب خلال السنوات القادمة.. إنني أخشى حتى التفكير في هذا.. إن وطننا ينحدر في جميع المجالات.. حتى الأمنية منها كما هو واضح.. هل سأتحرك وأفعل شيئا.. أم أهاجر إلى الغرب وأرى كيف ينهار بلدي عبر شاشات ال CNN؟!.. ماذا أختار؟!.. ما زلت عاجزا عن الاختيار.. لكني على كل حال شعرت أن تلك التجربة قد أعطتني بعض الثقة بالنفس كوني انتصرت على الدكتور (وليد).. أحد أعضاء تنظيم (أخوة الدم).. فشعرت بأنني ربما لا أستطيع أن أقاتل كمحاربي الساموراي.. لكني أستطيع أن أموت كواحد منهم.. وهذا يكفيني تماما.

هذه هي قصتي.. وإنني لا أعرف في واقع الأمر إن كنتم ستصدقونني.. لكني حقا لا أرغب بإبهاركما.. بل وجدتها فرصة سانحة كي أتحدث مع أحد حول تجاربي تلك.. لماذا وافقت على الحضور إلى بيتك يا (لينا)؟!.. لأنني استبعدت تماما أن تكون رسائلك عبر البريد الإلكتروني هي رسائل من تنظيم (أخوة الدم).. فهذه الجماعة لن تثأر مني بعد مرور سنتين من تلك الحادثة.. ولو كانوا يريدون الانتقام لانتقموا مني في حينها.. ثم إنهم يستطيعون الوصول إلي متى شاءوا بدلا من رسالة مبهمة في البريد الإلكتروني..

لقد شعرت بأنني سأتحدث إلى أناس يشبهونني في كل شيء تقريبا.. وأنني سأجد لديهم دفء الأصدقاء والأسرة الواحدة كما ذكرت لك في البداية.. بعد أن كنت طوال السنوات القليلة الماضية وحيدا حزينا مقهورا لا أطيق أحداً.. حتى شعرت بأنني سأقف يوما وسط الزحام.. وأغلق عيني وأصم أذني وأصرخ:

-كفى !!!!!!..

لكن حمدا لله أنني لم أجن بعد.. إنني أريد أن أشكرك يا (لينا).. أشكرك بعمق حتى تغرقي.. بحرارة حتى تذوبي.. فلا أعتقد أن هذه الليلة الجميلة ستتكرر.. ولا أعتقد أنني سأعيش يوما جميلا كهذا.. فأشكرك كثيرا يا أختي العزيزة.

القصة الثالثة:

الحياة.. من جديد

يحكيها: سالم

انتهى (خالد) من قصته.. ولم ينته ذهولي من وجود تنظيم مخيف كهذا في (الكويت)!!.. إن ما قاله مخيف جدا.. وبصراحة شعرت أنا نفسي بعدم الأمان.. فسألته بإشفاق شديد:

-كيف كنت تعيش أيامك الأولى بعد أن نجوت من الدكتور؟!..

ابتسم (خالد) بحزن وهو يقول:

-كما ذكرت لك.. استسلمت لمصيري تماما.. وكنت متوقعا اعتقالي في أي لحظة.. أو انتقام هذه الجماعة المخيفة.. ولكن شيئا لم يحدث.. لماذا؟!.. لا أدري.. حقا لا أدري..

أومأت برأسي متفهمة.. ونظرت إلى ضيفي الثاني.. السيد (سالم).. وقلت له مبتسمة بحرج:

-المعذرة يا سيدي.. أنت أكبرنا سنا.. ورغم ذلك فإنك لم تنطق بحرف حتى الآن.. ولم تبد رأيك بما سمعته منا.. كما أنك طلبت أن تكون آخر من سيروي قصته.. فلم هذا الغموض؟!..

ابتسم السيد (سالم) ابتسامة هادئة جدا.. وقال ببساطة تنم عن طيبة قلب:

-لا عليك يا ابنتي.. لقد كنت أخشى في واقع الأمر أن أكون أول من يتحدث في هذه الأمسية خوفا ألا تصدقاني.. خاصة وأن قصتي قد تكون الأغرب على الإطلاق.. وهي بعيدة كل البعد عن التصديق.. لكن.. لا مصلحة لدي في المجيء إلى هنا للكذب وإبهار اثنين في عمر أبنائي.. لذا فكل ما سأخبركما به هو حقائق عشتها ولمستها بنفسي.. مهما بدت قصتي خيالية.

أومأت برأسي متفهمة.. أما (خالد) فقال:

-ما رأيته في السنوات الماضية جعلني على استعداد لتصديق أي شيء الآن يا سيدي.. تأكد من ذلك..

نظر إلينا السيد (سالم) مبتسما.. ثم تنحنح واعتدل.. وكأنه سيروي لنا قصة طويلة معقدة.. لذا فسنفسح له المجال كاملا الآن ليمسك دفة الحديث ويخبرنا بقصته.. و.. لنستمع إليه.

قبل أن أبدأ.. لا بد وأن أذكر أنه قد لفت انتباهي التشابه الكبير بين شخصيتيكما.. فأنتما الاثنان حزينان.. ضعيفان.. جريحان.. وهو أمر توقعته قبل لقائي بكما.. فحسب معرفتي بشباب الجيل الحالي.. لن يضيع أحدهم وقته في عطلة نهاية الأسبوع ليجلس مع أناس لم يلتق بهم من قبل ويتبادل معهم تجاربه غير السارة.. كنت واثقا أنني سألتقي بشابين عاشا ورأيا ما لم يره أحد في مثل سنهما.. وبدا هذا واضحا من التجارب التي تعرضتما لها.. حقا أن عمر المراهقة بما يحويه من تقلبات وتغيرات في حياة الإنسان يترك تأثيرات كبيرة في نفسه.. فأول نجاح في عمر المراهقة يبقى للأبد.. أول صديق في عمر المراهقة تتذكره دوما.. أول فتاة أحببتها وشعرت نحوها بالانجذاب لن تنساها أبدا!!.

عموما.. سأبدأ الآن بسرد قصتي.. ولكن.. أرجوكما أن تنصتا إلي جيدا.. فقصتي شائكة ومعقدة

جدا.. وستنقلكما بأحداثها إلى عوالم وأزمان بالغة الغرابة.. إن قصتي قادرة على إلهاب مشاعركما بأحداثها التي ستجعلكما تغتسلان فيها اغتسالا!!!.. ولكن قبل أن أبدأ.. علي أن أحذركما أولا.. ستكون هناك ثغرات عديدة في قصتي.. لكن كل شيء سيتضح في النهاية.. أرجوكما تذكرا هذا.

إن عمري يتجاوز السبعون عاما.. رغم أنني قد أبدو وكأنني في الخمسينيات من العمر.. وبالطبع فأنا لست ابن هذا الجيل كما هو الحال معكما.. إنني أنتمي إلى الزمن القديم.. إلى (كويت) ما قبل النفط.. عندما كان الناس بسطاء طيبين لا يفكرون بشيء سوى لقمة العيش.. حيث يخرجون من الفجر وكلهم إيمان بعدالة توزيع الأرزاق.. وأن من خلقهم لن ينساهم.. وعندما كان خطباء المساجد لا يتحدثون إطلاقا عن حقوق الجار.. لأن حقوق الجار مترسخة في نفوس الأهالي.. فلم يكن أحد بحاجة لتذكيرهم بها..

إنها أربعينيات القرن العشرين حيث كنت لا أتجاوز وقتها الخامسة عشر من العمر.. وكانت مشاكلنا كمراهقين في تلك الأيام تختلف كثيرا عن مشاكل مراهقي الزمن الحالي.. ولو سألت أي مراهق في ذلك الوقت: من هي فتاة أحلامك؟!.. لنظر إليك ببلاهة وغباء!!.. لأنه لا توجد فتاة.. بل ولا توجد حتى أحلام!!.. فالحياة عموما في تلك الفترة صعبة جدا وبعيدة تماما عن أدنى وسائل الرفاهية كما تعلمون.. إذ كانت كلمات مثل (تلفزيون) أو (سيارة) أشياء من عالم الخيال لا يملكها أحد.

وفي ظل حياتنا الخشنة القاسية.. لم يكن هناك مجال للانحراف!!.. بل وعلى العكس تماما.. فقد كان سن المراهقة يعتبر سن المسئولية والرجولة المغلفة بطابع الخشونة!!.. إذ تجد مراهق ذلك الزمان يعيش حياة قاسية صقلته صقلا ونحتته نحتا.. وملابسه متواضعة جدا يكاد أن يختفي لونها الأصلي من كثرة الاستعمال.. بل إن هناك من المراهقين من ركبوا البحر للبحث عن الرزق من بين خضم الأهوال وهم لم يتجاوزوا الثالثة عشر!!.

ما زلت أتذكر جيدا بيوت الماضي الضخمة البائسة.. باب طويل.. نوافذ طويلة.. شروخ تجد دربها بكل سهولة على الجدران الطينية.. بل إن أغلبية البيوت كانت متآكلة آيلة للسقوط!!.. ورغم صعوبة الحياة وقسوتها في تلك الأيام.. إلا أن لها ذكرى جميلة وعبق لا يمكن أن أنساه.. ربما بسبب بساطة الحياة.. ربما بسبب حب الناس للخير ولبعضهم بعضا.. أشعر أن الخير قد اختفى تماما من المواطن الكويتي في زماننا الحالي.. فحتى الإنسان الخيّر تجد بداخله ألف شيطان.. وأفكاره أبعد ما تكون عن الخير.. إلا أنه يحاول السيطرة على نفسه ليراه الناس ملاكا!!.. وهذا لا يقنعني.. فالإنسان الخيّر يجب أن يكون خيّرا من الداخل أيضا.

كنا في تلك الأيام السعيدة نعيش أوقاتا لا يمكن أن يعيشها أبناء الزمن الحالي أو يشعروا بلذتها.. منها تلك الساعات التي نجتمع فيه جميعا حول (الدوّة) ([33]) على شكل حلقة سمر.. حيث يتحدث أكبر الجالسين عن قصص الجن والعفاريت والأساطير.. في حين يستمع إليه الجميع مستمتعين بالدفء والإحساس بالغموض المحيط بالمكان.. فكان الاستماع إلى تلك القصص بمثابة مشاهدة فيلم أجنبي في أفضل قاعات السينما!!.

وعندما يأتي الليل.. كانت (الكويت) تتحول إلى مدينة أشباح.. لا تنسوا أننا نتحدث عن جيل ينام في وقت مبكر جدا من الليل بسبب الظلام الدامس الذي يخيم تماما على الطرقات والبيوت لعدم وجود الكهرباء إلا في أماكن محدودة.

ورغم كل ما قلته عن المراهقين في تلك الأيام.. إلا أنني كنت مختلفا عنهم دون شك.. فقد كنت

إنسانا حساسا مرهفا رقيق المشاعر يتدفق سيل من العواطف الجياشة في ذاتي ويزلزل كياني ليجعلني منزويا تماما عن من هم في مثل سني!!.. كما كنت أملك خيالا خصبا جعلني أشعر بالخوف وعدم الاستقرار كأي طفل يجهل مكانه فى هذا العالم!!..

ولا شك أنكم تعلمون أن سطح البيت في تلك الأيام كان مكانا للنوم بسبب حرارة الجو.. فأتذكر جيدا أنني لم أكن أخلد إلى النوم مبكرا.. بل أمضي جل الوقت بمراقبة السماء.. أتأمل عظمة الكون.. وأسمع موسيقاه السرمدية التي يعزفها على أوتاره.. وأرى النجوم وتشكيلاتها الجميلة ولمعانها الأخاذ.. وأتوسل إليها باكيا أن تأخذني معها إلى الكون اللامتناهي حيث شاطئ الأبدية المجهول.. وأحيانا أخرى كنت أحلم أن أعيش كصقر.. أجول في الوديان والغابات.. وأسافر إلى عوالم لم يزرها بشر.. نعم.. هذه كانت مشاعري.. مزيجا من الخيال والرومانسية.

وعندما يغلبني النعاس بعد هذا العذاب الاختياري.. كنت أصحو في أوقات متقطعة على عراك القطط التي تقوم بجولات ما بين أسطح البيوت.. فأتأمل النجوم مرة أخرى.. وتتكرر تلك الخواطر والأحلام!!..

لقد تغير العالم كثيرا الآن.. ففي الماضي كنا نرى البرق ونسمع الرعد.. ونرى قوس قزح في طفولتنا.. متى كانت آخر مرة رأيتم فيها قوس قزح؟!.. أعتقد أن الجيل الحالي لم ير هذه الأشياء قط.

وبالطبع مشاعر كتلك هي أشبه بالزهرة الرقيقة التي تنمو في كهف مظلم حيث تتوفر كل العوامل التي ستسهم في موتها.. فالمجتمع قاس جدا.. ولقمة العيش صعبة.. ولو عرف أحد بمشاعري لاتهمني بالتشبه بالنساء وسخر مني!!.

ولا ينكر أحد أن قسوة الحياة قد ألقت بظلالها على عدد كبير من آباء ذلك الزمن.. منهم والدي بكل تأكيد.. فقد كان رجلا شديد القسوة والصرامة في تعامله معي ومع والدتي.. يحاسبنا على أخطاء أقل ما يقال عنها أنها تافهة.. أحيانا بالصراخ والتوبيخ.. وأغلب الأحيان بالضرب بكل ما تصل إليه يده.. بل ويتفنن في ضربنا لأسباب أجزم أنها واهية جدا لا تستحق كل هذا الحماس في العقاب.. هل كان رجلا ساديا؟!.. لا أعرف.. فالبعض يرى تصرفات آباء الجيل القديم طبيعية جدا بسبب طبيعة الحياة نفسها.. لكني أصر على أن والدي كان صعب المراس وقاسيا حتى قياسا بآباء الجيل القديم.. أذكر جيدا أنني كنت أخشاه كالموت ذاته.. ولو استعرضت معكم المواقف العديدة التي تعرضت فيها للضرب والتوبيخ لما انتهيت..

ولا أنسى أبدا ما حدث عندما كنت طفلا في الرابعة لا أفقه شيئا.. حيث تسحبت يوما إلى جوار أبي كي أقبله وهو نائم.. فما كان من أمي إلا أن عنفتني كي لا أزعجه.. فصحا والدي من النوم غاضبا منا نحن الاثنين ودفعني بقوة وقسوة لأخرج وأتركه نائما!!.

أما مناقشته بأي أمر فهو مستحيل بالطبع.. فمن الممكن أن تحدثه والدتي لساعات يكون فيها الكلام مثل موج البحر يعلو ويهبط.. بينما أبي كالصخرة الكبيرة في وسط البحر لا تتزحزح أبدا مهما تلاطمت بها الأمواج!!..

هذه هي الواجهة الخلفية لقصتي.. وفي زمن كذلك الزمن.. ومع مراهق مرهف الإحساس مثلي.. يكون الوقوع في الحب أمرا لا مفر منه وسهلا جدا لا يحتاج إلى جهد.. لأن الحب هو الوسيلة الوحيدة لتفريغ تلك العواطف المتفجرة.. فكان حبي ل(مريم) هو القصة التي جعلتني محبا للحياة رغم أنني أتعذب في تفاصيلها ليل نهار.. هكذا هو الحب.. إنه لا يصنع المعجزات كما

يقولون.. بل هو في حد ذاته معجزة!!.

لم تكن (مريم) فتاة أحلام أسطورية أو خيالية كما قد يظنها البعض.. بل هي مثل أي فتاة في (كويت) ما قبل النفط.. تسير حافية طوال الوقت.. وترتدي غطاء الرأس الأسود البسيط الطويل الذي كن ترتدينه الفتيات عندما يلعبن في الحي أو (الفريج).. كانت هي الفتاة الوحيدة تقريباً التي أراها أغلب الأوقات وألعب معها في فترة النهار.. لذا لم يكن من الصعب الوقوع في حبها..

لم أصارحها بشيء في البداية.. ربما بسبب خوفي من ردة فعلها وعدم أخذها لهذا الأمر مأخذ الجد.. لكنها بدأت تفهم مشاعر الحب دون أن أصارحها بشكل مباشر.. ربما من نظراتي لها.. ولأنني أفتقدها كثيراً عندما لا تكون معي.. وأكون أفضل حالا معها.. لذا.. شيئا فشيئا.. ولدت قصة حب بيننا.. قصة حب لم يعلم بها أحد على الإطلاق.. لكنها كانت الشرارة التي أشعلت النار بكل ما يحيط في حياتي!!.

كنا نلتقي أحيانا كثيرة في لقاءات تشوبها السرية والتوتر الشديد.. فمجتمع بسيط كالمجتمع الكويتي القديم يرى الحب حرام ورذيلة كبيرة جدا.. وكثير من الزيجات كانت تتم دون أن يرى الزوج زوجته إلا في ليلة الزفاف!!.. لذا فما كنا نفعله يضعها هي تحديدا في مصاف الفاجرات..

كنت أبوح لها بأشعاري التي أجدها رائعة في ذلك الوقت ومضحكة الآن!!.. فلم أكن نابغة في الشعر ولا في أي شيء آخر.. لكن الشعر هو الملاذ الوحيد في زمن لم تظهر فيه أشرطة الكاسيت.

ما زلت أذكر كلامي البريء لها:

-أتساءل إذا كنت تفكرين بي..

فتقول:

-طبعا أفكر فيك طوال الوقت..

فأقول لها مبتسما بحنان:

-لم أنته من كلامي بعد..

لترد مبتسمة بدورها:

-آسفة..

فأكمل حديثي:

-أتساءل إذا كنت تفكرين بي بنصف القدر الذي أفكر فيك به!!.

فكانت تبتسم بحياء.. وتسألني:

-لماذا تحبني؟!..

فأقول لها بصدق:

-لأنني أشعر بأنني حي عندما ألتقي بك.. إنك كل ما أملك في هذا العالم.. ومثلك يا حبيبتي من حقها أن تكون الوحيدة على عرش أي قلب.. إنك.. إنك نعمة من الله يا حبيبتي!!..

وبالطبع علاقة كتلك كانت تفريغا قويا لعواطفنا الجياشة.. وبالطبع أيضا فإن لقاءات سرية كتلك

معرضة للكثير من المخاطر.. مخاطر افتضاحها.. وهذا ما حدث بالفعل!!.. وهو نقطة التحول في قصتي هذه واليوم الذي غير حياتي تماما ونقلني من المجتمع الكويتي القديم ببساطته إلى مجتمع جديد بعيد كل البعد عن هذا العالم البائس!!.

فبعد أسابيع قليلة.. رآني والدي ممسكا بيد (مريم) في أحد الممرات الضيقة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت وأعيننا تقول قصائد في الحب.. لم يكن عسيرا عليه أن يفهم ما يحدث.. فقد كان وقوفنا بهذه الصورة لا يعني سوى شيء واحد.. إننا نحب بعضنا.. إننا فاجران!!.. و.. ما الذي حدث بعد ذلك؟؟!!.. لن أخبركم.. بل سأترك المجال لخيالكم!!.. فلم يكن جري من قفاي إلى البيت أسوأ ما حدث.. ولم يكن ضربي بالعقال على رأسي هو أسوأ ما حدث أيضا.. لقد بدا لي أن والدي لن يتوقف عن ضربي أبدا.. وهو يصرخ مستخدما كل قاموس الشتائم القديم.. فكان يردد شتيمة (الهيس الأربد) ([34]) كثيرا كحال معظم الآباء في ذلك الوقت.. كنت أشعر أن الكدمات ستمتلئ في جسدي وتنطبع فوق كدمات أخرى لعدم وجود مكان جديد لها من شدة الضرب!!.. أذكر جيدا أن والدتي كانت ترجوه وتتوسل إليه أن يرحمني.. لكنه دفعها بعيدا بقسوة وهو يصرخ ويأمرها أن تبتعد وإلا نالت نصيبها من الضرب!!..

وأمام هذه القسوة.. لم أجد بدا من الهرب.. فجريت مسرعا إلى باب البيت محاولا الخروج.. بينما هو يركلني بقدمه ويضربني بعصا غليظة يحتفظ بها لتأديبي!!.. قبل أن أتمكن من الإفلات أخيرا ومن ثم الخروج بثيابي التي تمزقت في أكثر من موضع وسط صراخه وتهديداته ووعوده باستكمال مسلسل الضرب حال عودتي!!..

كنت أركض حافيا كعادة كل من هم بمثل سني في ذلك الوقت.. وبثياب قذرة للغاية كحال الجميع في ذلك الوقت أيضا.. لم أجد مكانا أذهب إليه.. ولم أجد من أثق به.. حبيبتي (مريم)!!.. ماذا حدث لها؟!.. ترى.. هل سيعرف والدها بأمر علاقتنا ؟!.. هل سيخبره والدي؟!.. لا أعلم.. كنت أجري والدموع تنهمر من كل فتحات وجهي دون أن ألتفت لنظرات باقي الأطفال المتسائلة.. إنني أعجز تماما عن التحكم بعواطفي.. ففي أمور كتلك.. لا أتماسك ولا أكون قوياً.. بل وعلى العكس.. أبكي بقدر استطاعتي.. أخرج كل ما بداخلي.. و:

-(سالم)!!.. (سالم)!!..

التفت مذعورا.. وإذا ب(مريم) تطل من شباك بيت قديم مهجور وتناديني بهمس متوتر!!.. لم أفكر.. اتخذت قراري سريعا ودخلت إلى البيت وأنا ألهث وأنفاسي تتقطع..

كنت في حالة بائسة جدا.. فوضعت حبيبتي يدها على وجهي وهي تقول بأسى:

-ماذا فعلوا بك يا حبيبي؟!..

نظرت إليها مقهورا لا أجد ما أقول.. فأمسكت بيدي بقوة.. وظللنا هكذا لحظات متشابكي الأيدي ونحن نفكر بالكارثة التي حلت بنا!!.. فعودتي إلى البيت أمر مستحيل.. لن أعود مهما حدث.. أما (مريم) فقد عرفت منها أنها لم تعد إلى بيتها أصلا!!..إذ يعلم الله ما قد يفعله والدها بها رغم أن أسوأ ما فعلته كان الإمساك بيدي!!.. ظللنا ساعات قليلة نفكر بيأس بما يجب فعله قبل أن يقترب الليل!!.. وبدأ القلق ينهش قلوبنا ونحن نجهل مصيرنا تماما.. كنت في مأزق مخيف.. أما حبيبتي (مريم) ففي كارثة حقيقية..!!.

ظللت أفكر وأفكر بأحد نلجأ إليه.. نعم.. لا بد أن نحتمي بأحد.. هذا أفضل الحلول.. ولكن.. بمن

سنحتمي؟!.. من.. من؟ ؟!.. قلت بلهفة:

-ماذا عن ذلك الانجليزي؟؟!!..

وكلمة (انجليزي) كنا نقولها عن أي رجل أزرق العينين أشقر الشعر.. حتى لو كان من (استراليا) مثلا!!..

سألت (مريم) بلهفة.. فنظرت إلي مستغربة وسألتني بقلق:

-ماذا عنه؟!..

قلت لها بحماس ولهفة:

-لم لا نذهب إليه؟؟.. دعينا نطلب منه حمايتنا!!..

سألتني بتوتر:

-وكيف سنخبره بقصتنا؟!.. نحن لا نتحدث لغته!!..

قلت لها بلهفة وقد راقت لي الفكرة كثيرا:

-دعينا نحاول على الأقل.. لا يوجد لنا منفذ آخر..

كان هذا (الانجليزي) انجليزيا بالفعل.. فهو موظف بريطاني يعمل في إدارة المستشفى الأمريكي في (الكويت) في تلك الفترة.. وهو رجل طيب القلب بشوش الوجه.. كثيرا ما يوزع الحلوى بالمجان على الأطفال الذين يتهافتون حوله.. نعم.. هذا الرجل هو الخيار الأنسب والوحيد دون شك!!.. سيكون الأمر صعبا للغاية لأنني لا أتحدث الإنجليزية على الإطلاق.. لكن لا خيار لدينا.. يجب أن نحاول..

وافقت (مريم) بعد أن راقت لها الفكرة!!.. وخرجنا من ذلك البيت المهجور في وقت متأخر من الليل حيث تبدو (الكويت) وكأنها دولة أشباح بسبب خلو شوارعها تماما من الناس فلا تسمع سوى صوت نباح الكلاب الضالة!!.. كنت ممسكا بيد حبيبتي بقوة ونحن نجري حافيي القدمين إلى منزل ذلك البريطاني بالقرب من المستشفى.. ونتساءل عن القلق الذي حل بأهلنا بسبب غيابنا حتى هذه الساعة المتأخرة.. و.. عندما وصلنا.. كنا نلهث وتكاد أقدامنا تنفطر من شدة التعب والإرهاق.. والجوع يقتلنا قتلا!!.. توقفنا أمام باب بيته مترددين قبل أن أحسم الأمر.. طرقت الباب بتوتر.. طرقات خجولة خائفة.. لحظات قليلة قبل أن أسمع صوتا متثائبا خلف الباب يقول شيئا لم أفهمه!!..

تنحنحت وأنا أقول باللغة العربية:

-هل لك أن تفتح الباب يا سيدي؟!..

لم يرد.. بل فتح الباب بهدوء وآثار النوم واضحة على وجهه.. كان رجل طويل القامة كحال معظم الأوروبيين ويملك شاربا طويلا يشبه شوارب الباشاوات في (مصر)!!.. نظر إلينا بعين نصف نائمة.. قبل أن يتثاءب ويقول شيئا بالإنجليزية لم أفهمه بطبيعة الحال.. تبادلت مع (مريم) نظرات متوترة.. وكل منا ينتظر من الآخر أن يبدأ بالكلام.. قبل أن يسألنا الطبيب مرة أخرى مبتسما:

-ماذا تريدان؟!..

آه.. إنه يتحدث العربية!!!.. هذا رائع.. تنفسنا الصعداء.. وتحدثت إليه ببطء شديد كي يفهمني.. فقلت له:

-إننا نحتاج مساعدتك.. أرجوك ساعدنا..

حك رأسه باستغراب وهو يقول:

-لماذا تحتاجان المال في هذه الساعة المتأخرة؟ ؟!..

لوحت بيدي قائلا:

-لقد أسأت فهمنا.. نحن لا نحتاج المال.. بل نحتاج حمايتك!!.

بدا الاهتمام على وجهه.. فأخرج رأسه من الباب والتفت يمينا ويسارا ليتأكد من خلو المكان.. ثم طلب منا الدخول!!..

جلست مع حبيبتي (مريم) في غرفته.. وبدأت في محاولة شرح ما يحدث معنا.. بالطبع كانت تصعب عليه الكثير من الألفاظ.. لكني كنت أحاول وأحاول وأبذل جهدا جبارا في الشرح.. إلى أن فهم قصتنا أخيرا بكل تفاصيلها!!.. لكنه لم يقل شيئا.. إذ ظل صامتا دقائق طويلة وعلى وجهه علامات تفكير عميق.. في حين تترقبه أعيننا بلهفة شديدة منتظرين منه أن ينقذنا من هذه المصيبة!!.. ظل يفكر بعمق.. أو هذا ما بدا لي على الأقل.. قبل أن يقول بهدوء شديد وعلى ملامحه علامات الخطورة:

-(سالم).. هل تحب (مريم)؟ ؟!..

قلت له بحماس المراهقين:

-إنها أجمل ما في حياتي!!.. إنني مستعد للموت من أجلها!!..

احمر وجه (مريم) بشدة.. فأشاحت به قبل أن يسألها ذات السؤال.. لم تجب.. ولكن ملامحها قالت الكثير.. الكثير جدا.. فأحيانا يكون الصمت أبلغ من أي كلام!!.. هز الطبيب رأسه متفهما.. قبل أن يقول بهدوء مهيب:

-لماذا لا تتزوجان؟ ؟!..

صعقت لهذا السؤال غير المتوقع.. لكني قلت بحزم وصدق:

-إنني أحلم بهذا وأتمناه.. ولكن لن تكون الأمور بهذه السهولة!!.. لقد شرحت لك ما حدث.. فقد ارتكبت (مريم) خطيئة كبيرة بنظر والدها.. وهي لم تعد إلى البيت حتى الآن.. ولا شك أن أهلها يبحثون عنها كالمجانين!!.. أما أنا فواضح جدا من الكدمات التي تملأ جسدي ما فعله بي والدي.. لذا.. لا تظن أنني سأدخل إلى غرفته وأتحدث معه كرجل وأبدي رغبتي في الزواج من (مريم).. هذا هو المستحيل بعينه!!.

كانت (مريم) تهز رأسها موافقة بأسى مع كل كلمة أقولها.. لذا فقد هز البريطاني رأسه متفهما هو الآخر.. وسكت طويلا مرة أخرى.. ربما لخمس دقائق أو أكثر وكأنه يزن أمرا ما في عقله.. قبل أن يقول ما لم أتوقعه إطلاقا:

- ماذا ستقولان إذا منحتكما هدية العمر؟ !!.. هدية ستغير حياتكما رأسا على عقب.. ماذا لو ساعدتكما على الهرب إلى مكان أفضل من هذا؟!.. مكان جميل نظيف رائع تملأه الأشجار

والخضرة وتفوح منه رائحة الزهور.. حيث تتزوجان وتعيشان فيه سعيدين إلى الأبد!!..

قلت له مبهورا:

-لن أطلب شيئا في حياتي بعد ذلك!!..

التفت بسرعة إلى (مريم) لأرى تأثير كلامه عليها.. فوجدتها تنظر إليه بأنفاس مبهورة هي الأخرى وتمسك -لا شعوريا-يدي بقوة.. نعم.. نعم يا سيدي!!.. نحن الاثنان نحلم بمكان كهذا!!..

وأمام أنفاسنا التي توقفت تماما.. قال وعلى ملامحه علامات الخطورة:

-سأخبركما بسر هائل.. سر لا يعرفه سوى عدد قليل جدا من الناس.. هناك مكان بعيد كل البعد عن هنا!!.. ستختفيان فيه إلى الأبد ولن يعثر عليكما الشيطان نفسه.. مكان جميل رائع طاهر بعيد تماما عن كل صراعات الحياة.. تستطيعان أن تتزوجا وتعيشا هناك بأمان.. بل وتنجبا الأطفال.. ستعيشان مع أناس لهم طموحكما.. كل ما يريدونه هو مجتمع نظيف يعيشون فيه بأمان مع من يحبون!!.. سيعتبرونكم أخوة لهم.. إن المكان هو جنة حقيقية.. فهل ترغبان في هذا؟!..

توقفت أنفاسنا تماما ونحن نحدق به غير منتبهين إلى أنه قد انتهى من كلامه فعليا.. قبل أن ألتفت إلى (مريم) بلهفة:

-(مريم) حبيبتي.. أريد أن أعيش معك إلى الأبد.. لن أفتقد شيئا هنا.. لن أفتقد والدي إطلاقا.. ربما سأفتقد والدتي.. لكني.. لكني لا أريد الحياة في مجتمع كهذا.. أريد أن أعيش مع من أحب.. أريد أن أتزوجك.. أريد أن أعيش معك إلى الأبد يا حبيبتي.. أرجوك لا ترفضي عرضا كهذا!!.. إننا نتحدث عن فرصة العمر هنا.. فرصة قد لا تتكرر أبدا..

سكتت مفكرة وهي تنظر إلى الأرض!!.. وساد المكان صمتا مهيبا وسط أنفاسي المتلهفة.. قبل أن ترفع رأسها وتقول بتردد:

-أنا أيضا أريد أن أعيش مع من أحب.. أريد أن أذهب معك!!.. ثم أن الطبيب يعرض علينا أن نعيش معا في جنة كما يقول.. فمن يرفض عرضا كهذا؟!.. ولكن.. سيموت والداي قلقا علي.. كيف أفعل هذا بهما؟!.. كما أنني سأفتقدهما كثيرا.. و..

لم تجد ما تقول لتكمل كلامها.. فصمتت وأطرقت برأسها إلى الأرض مرة أخرى وعلامات التفكير تملأ وجهها..

كان البريطاني ينظر إلينا دون أن ينطق بحرف.. فوجدت أن مسئولية إقناع حبيبتي (مريم) تقع على عاتقي وحدي.. فقلت بضراعة:

-(مريم) إننا نتحدث عن فرصة العمر هنا.. فرصة قد لا تتكرر أبدا.. ثم إنك لا تعلمين ما سيفعله والدك لو عرف بأمر علاقتنا.. لا شك أن والدي سيخبره بكل شيء.. عودتك إلى البيت مغامرة مخيفة.. أنت تعرفين هذا يا حبيبتي..

فقالت بصوت متخاذل:

-وكيف تعرف أن هذا الرجل لا يخدعنا ؟!..

لم يرد البريطاني على هذه الإهانة وإن كنت واثقا أنه فهمها.. لكني أجبتها بثقة:

-ولماذا يخدعنا يا حبيبتي؟!.. لا يوجد سبب يدفعه للكذب.. نستطيع أن نترك لأهلنا رسالة مع هذا الرجل الطيب نخبرهم فيها بأمر زاوجنا ورحيلنا إلى جهة غير معلومة؟!.. فنحن لن نفعل شيئا محرما.. سنتزوج وننتقل لمكان أفضل!!..

لم تقتنع (مريم) بسهولة.. فظللت أكثر من ساعتين محاولا إقناعها.. أمام البريطاني الذي لم يعلن عن تذمره إطلاقا.. بل كان صامتا طوال الوقت يراقبنا بهدوء غريب دون أي رد فعل.. و.. بعد محاولات مستميتة مني.. وافقت (مريم) أخيرا.. وافقت حبيبتي.. فأمسكت بيديها بقوة.. ووعدتها بأنني لن أتركها وسأكون معها إلى الأبد.. وعدتها صادقا أنها لن تندم أبدا على هذا الخيار.. ثم.. تحدث البريطاني أخيرا بهدوءه المعتاد:

-إذا كنتما ترغبان بذلك.. فلم لا تختبئان عندي.. وسنخرج في وقت مبكر جدا من الفجر دون علم أحد!!.. سآخذكما بسيارتي إلى خارج سور (الكويت) متجهين إلى المكان الذي أخبرتكما عنه.

سألته بحذر:

-لحظة.. إلى أين ستأخذنا بالضبط؟!..

رد ببساطة:

-لدي صديق طيب القلب يعيش حياة جميلة بسيطة ورائعة.. ولا يبتغي شيئا من هذا العالم سوى مساعدة البائسين والمحبين الذين يريدون أن يدعهم الناس وشأنهم.. مثلكما تماما!!..

سكت قليلا.. ثم أردف بصدق:

-ستجدان لديه سعادة أبدية.. لقد قام هذا الصديق بتأسيس قرية صغيرة جدا لمن يودون الهرب من هذا العالم القاسي.. سآخذكما إلى هناك.

سألته بشك:

-ولكن.. أين هو هذا المكان؟!..

- إنه في أعالي أحد جبال (إيران).. تستطيع أن تقول أنها منطقة سرية لا يعرفها سواي ومن يعيشون فيها بطبيعة الحال..

سألته بقلق:

- ولكن.. كيف سندخل البلد دون أي أوراق رسمية؟!.. ألن نحتاج إلى أوراق رسمية لدخول (إيران)؟ ؟!..

-لقد أخبرتك.. دع الأمر لي..

نظرت له بامتنان شديد جدا قبل أن أقول:

-لماذا تساعدنا بهذه الصورة؟ ؟!..

قال بحنان أبوي:

-لا أقبل أن تنتهي قصة حب بريئة قبل أن تبدأ.. إنكما تبدوان لي وحيدين تماما وتحتاجان إلى من يقف معكما.. وأنا لن أخسر شيئا سوى يوما من عمري نظير إيصالكما لتلك المنطقة.. ستكون رحلة شاقة.. وستستغرق ساعات طويلة في السيارة.. تستطيعان أن تقضياها في النوم وتتركا كل

شيء آخر علي.

ولم يعد هناك ما يقال.. إننا لا نملك خيارا آخر.. كما أن عرضه مغريا إلى حد لا يصدق.. إنه يعرض علينا حياة جديدة في مكان أروع وأجمل وأنظف من المكان الذي نعيشه كما يقول.. إنه يعرض علي الزواج من حبيبتي والعيش معها طوال العمر!!.. أرجوكم لا تنسوا أنني كنت في الخامسة عشر فحسب.. وعرضا كهذا يفوق خيال أي مراهق.. و.. أرجوكم أن تتذكروا أيضا ما قلته لكم في البداية وهو أن قصتي هذه تحوي العديد من الثغرات والتساؤلات.. لكني سأكشف كل شيء في النهاية.

تركنا أمرنا تماما لهذا الرجل الطيب الذي شكرناه بحرارة وكدت أن أقبل يديه امتنانا.. ولا أنسى أبدا الساعات التي سبقت خروجنا من بيته.. فقد كنا نرتجف خوفا من هذه التجربة.. فتغيير حياتك بأكملها ليس بالأمر الهين!!.. حتى وإن كان هذا التغيير للأفضل!!..

قضينا ساعات قليلة في منزل ذلك البريطاني حيث قدم لنا بعض الخبز الذي التهمناه كالمسعورين بسبب الجوع.. وفي الثانية فجرا طلب منا أن نركب معه في سيارته.. لنذهب معا إلى جنته الموعودة.. إلى العالم الجديد.. إلى حياتنا الجديدة!!.. فخرجنا معا تحت جنح الظلام.. وركبنا السيارة وآثار القلق والترقب واضحة على ملامحنا.. بالطبع ثيابنا لم نبدلها منذ زمن.. لذا فأنا واثق أن رائحتنا كانت قريبة من رائحة فئران المجاري.. لكن ترف الحمامات الساخنة والثياب التي تبدل كل يوم لم يكن متاحا في ذلك الوقت.

انطلقت السيارة في رحلتها المهيبة وعقلي المضطرب لا يتوقف أبدا عن التساؤل عما قد يحدث لنا.. كنت جالسا في الخلف مع حبيبتي (مريم).. بينما البريطاني الذي لم أسأله حتى عن اسمه يقود السيارة متوجها إلى جنتنا الموعودة.. في رحلة ستمتد إلى ساعات طويلة كما أخبرنا.. وبسبب الإرهاق الشديد.. كان لا بد أن نستسلم تماما للنوم.. وبالفعل.. شيئا فشيئا.. غالبنا النعاس.. إلى أن غبنا تماما في عالم الأحلام.. ولم يفتني قبل النوم أن أستلذ بكل لحظة وضعت فيها حبيبتي (مريم) رأسها على كتفي!!.

وهكذا تركنا مصيرنا كله في يد ذلك البريطاني الطيب.. قبل أن أبدأ بالاستيقاظ بعدها بساعات بدت لي دهرا.. والشعور بالبرد الشديد يسيطر علي!!!.. من أين جاء هذا البرد؟!.. لا أعلم.. لقد كنت منشغلا بالآلام المبرحة في ظهري وساقي نتيجة الجلوس الطويل في السيارة.. فقد شعرت أن ظهري متيبسا تماما بسبب الرحلة الطويلة.. قبل أن أنظر حولي قليلا لأصاب بذهول ما بعده ذهول.. هززت كتف (مريم) بعنف غير مقصود ولساني عاجز تماما عن النطق!!.. قبل أن تستيقظ وتنظر إلي بقلق.. لكن سرعان ما زال القلق عنها.. فما رأيناه معا يفوق الوصف.. يفوق الخيال!!.. إنه.. إنه مكان رائع.. رائع.. رائع.. أنا.. أنا لم آرَ في حياتي شيئا كهذا!!.. لقد وصلنا دون شك.. فالخضرة تنتشر في كل مكان.. والهواء بارد تشعر به وهو يغسل روحك نفسها.. لم أقف في أعالي أي جبل في حياتي بطبيعة الحال.. بل ولم آرَ جبلا في حياتي.. لذا فقد كان كل شيء يبدو غريبا باهرا بالنسبة لي.. الغيوم تحيط بالجبل وتبدو لي وكأنها أرض يمكن أن أترجل من السيارة وأمشي عليها!!.. هذا المنظر يذكرك بالصور التي نراها على بطاقات المعايدة في زماننا الحالي!!..

وبأنفاس مبهورة وشهقات غير مصدقة من روعة المكان.. سألت البريطاني سؤالا غبيا:

-هل.. هل وصلنا؟!..

رد بابتسامة أبوية عذبة:

-أنظر حولك لتعرف الإجابة!!.. لقد نمتما لساعات طويلة.. يبدو أنكما كنتما مرهقين جدا.. وعلى كل حال فأمامنا مسافة طويلة نسبيا سنقطعها سيرا على الأقدام.. فالسيارة لن تستطيع الوصول إلى القرية بسبب أشجار الغابة الكثيفة المتشابكة وبسبب وعورة الطريق!!..

ثم اكتست ملامحه فجأة بالجدية وهو يقول:

-اسمعني جيدا يا (سالم).. ستعيشان في هذا المكان طوال العمر.. فالخروج من هنا أمر مستحيل تقريبا.. أنت لا تملك أي أوراق رسمية.. أي أنك مقيم بصورة غير قانونية في هذا البلد.. لذا فلن تستطيعا الخروج من هنا أو العودة إلى (الكويت) بعد الآن.. ولكن.. تأكد أنكما بمأمن.. فأنتما في أعالي الجبال.. ولن يصل إليكما أي مخلوق.. لقد أسديت لك خدمة العمر.. حيث استغليت نفوذي وعلاقاتي في (إيران) لآتي بك إلى هنا دون أن تتعرض لنا السلطات.. فأرجوك.. لا تضيع تلك الفرصة من حياتك.

سكت قليلا.. ثم أردف باهتمام:

-لن تكونا وحيدين هنا.. ستعيشان في قرية صغيرة جدا مع أربعة أولاد وأربعة بنات جاءوا من مختلف دول الخليج.. جميعهم عاشوا قصة حب شبيهة بقصتكما.. حيث ساهم زملاء لي بتهريبهم إلى هذا المكان منذ أيام قليلة.. إنكم جميعا جدد على هذا المكان.. وجميعكم تملكون فرصة البدء من جديد.. إن البداية الجديدة لهي حلم الملايين من البشر.. وقد حصلتما على هذه الفرصة على طبق من ذهب!!.. فاستغلاها جيدا.. ستجد مع (مريم) في هذا المكان أناس يحبونكما وتحبونهم.. ستكونون معا مجتمعا مثاليا مع هؤلاء الشباب لتصبحوا أسرة واحدة.

سكت مرة أخرى ليقول أهم ما في الأمر:

-ولكن.. تذكر جيدا أنه لا بد لكل مجتمع من شخص يقوده.. وهذا الشخص سيكون (الشيخ).. نعم.. إنه لقب الرجل العجوز الذي يحكم هذا المكان.. وهو رجل طيب القلب إلى حد لا يصدق وسيعاملكم كأبنائه!!.. كما أنه إنسان زاهد إلى حد لا يصدق أيضا ولا يبتغي شيئا سوى أن تعيشوا جميعا معه بسلام.. ولكن.. أرجوكما ألا تعصيا له أمرا.. فكل ما قد يأمركما به هو لمصلحة الجميع.. تذكرا هذا جيدا!!.

سكت منتظرا مني أن أرد.. لكني لم أقل شيئا.. إن ما رأيته قد أخرس لساني تماماً.. هذا يفوق كل ما أحلم به.. لا تنسوا أن الحياة هنا أفضل بكثير من الحياة في (كويت) ما قبل النفط.. فهنا سأعيش مع حبيبتي في مكان أشبه بالجنة.. إنني في وسط الخضرة.. والماء.. والوجه الحسن -وهو وجه حبيبتي-كما يقولون.. فماذا أريد أكثر من ذلك؟؟!!..

ترجلنا من السيارة التي توقفت وسط أشجار كثيفة للغاية متشابكة الأغصان لنكمل طريقنا سيرا إلى القرية.. خواطر جميلة تملأ عقلي وكياني وأنا أمشي ممسكا بيد (مريم) متجهين ناحية وطننا الجديد!!..

مشينا قرابة النصف ساعة يقودنا البريطاني بنشاط ملحوظ بسبب الهواء الرائع الذي غسل روحه هو الآخر دون شك.. وبسبب الخضرة التي تحيط بكل شيء.. فتسلقنا بعض المرتفعات التي لا يمكن أن تصل إليها السيارة بطبيعة الحال.. قبل أن نجد أنفسنا أخيرا على أرض تخلو من أي أشجار ولا تغطيها سوى الأعشاب الخضراء.. تماما كالصور التي نراها في بطاقات المعايدة.. أرض

منبسطة خضراء تماما صغيرة المساحة نسبيا هي في واقع الأمر قرية صغيرة جدا قوامها ستة أكواخ صغيرة أنيقة جدا مصنوعة من الخشب وتوحي بالدفء.. حتى بدت لنا وكأنها من عالم ألف ليلة وليلة الذي رسمناه في خيالنا!!.. أحد هذه الأكواخ سيكون دون شك لحبيبين على وشك الزواج: أنا و(مريم)!!.

كانت الأكواخ تحيط بساحة جميلة يتوسطها بئر صغير هو مصدر المياه الوحيد كما عرفنا فيما بعد.. حيث تنحدر كمية هائلة من مياه الجبل للترسب في ذلك البئر.. لذا فالمياه تكفي لأجيال قادمة.

كانت القرية محاطة تماما بأشجار كثيفة تكاد لا تستطيع أن ترى من خلالها!!.. كما أنها بعيدة كل البعد عن البشر كما علمتم!!.. حتى أنك لا تستطيع مشاهدة أي عمران على مد البصر.. فكل ما تراه هو جبال تليها جبال و.. تليها جبال.. يستحيل تماما رؤية ما خلف ذلك!!.. إننا حقا بعزلة تامة عن العالم الخارجي.. ولكن.. ما الذي سأريده من العالم الخارجي؟!.. فهذا المكان الخلاب يجعل من أي إنسان نابغة في الشعر.. فالطبيعة هنا رائعة حتى تكاد أن تكون لها أنغام.. وتشعرك بأنك تطير إلى السماء وتحلق بأجنحة الخيال!!.. رائحة الخضرة جميلة تجعلك تبذل كل ما تستطيع حتى تستنشقها بكل قوتك وتملأ بها كيانك!!.. حقا لقد أحسن ذلك البريطاني الطيب الاختيار في إيصالنا إلى هذا المكان..

أما عن المجموعة التي تعيش معنا في القرية فلن أتحدث عنها كثيرا.. فكل ما يهمنا معرفته هو أنهم أربعة أولاد مع زوجاتهم!!.. جميعهم في سن المراهقة!!.. جميعهم عاشوا قصص حب شبيهة بقصتي مع (مريم).. وهربوا من المجتمع ومن أهلهم إلى هنا.. ولم يصلوا إلى هذا المكان إلا منذ أيام قليلة فقط!!.. حيث أحاطوا بنا أنا و(مريم) عند وصولنا وابتسامات الترحيب الودية تملأ وجوههم.

كنت مرتبكا تماما.. خاصة وأنني لم أعتد أبدا الاستحواذ على اهتمام الناس حتى وإن كانوا ودودين!!.. وقبل أن يتفوه أحد بحرف.. خرج رجل عجوز من أحد الأكواخ الستة.. وأصابني هذا بذهول شديد.. إذ لا يمكن أبدا أن أصدق أن هناك رجلا بهذا العمر!!.. كنت أسمع عن أرذل العمر لكني لم أتصوره من قبل.. هذا (الشيخ) يتجاوز عمره المائة دون شك!!.. يرتدي ثيابا بيضاء فضفاضة كالتي نسمع ونقرأ عنها في الأساطير القديمة!!.. وله شعر طويل أبيض تماما ولحية بيضاء طويلة تصل إلى صدره.. ثمة نظرة أبوية بالغة الحنان في عينيه الذابلتين خلف منظاره البدائي.

أما وجهه فشبيه بتفاحة ذابلة.. إذ يمتلئ بتجاعيد كثيرة خصوصا على جانبي فمه وعلى جبينه الحكيم.. مما أكسبه لمحة أبوية محببة للنفس.. وكان ضعيف البصر لكنه ليس كفيفا.. إذ ظل يتحسس طريقه بعصا غليظة محاولا -وببطء شديد سببه كبر السن-الوصول إلى مكان تجمعنا.

أخفض الجميع رؤوسهم احتراما له!!.. فتقدم ناحيتي أنا و(مريم) وهو ينظر إلينا مبتسما بحنان بالغ.. لقد.. لقد شعرت وهو ينظر إلي.. وكأنه ينظر إلى عقلي وكياني!!.. نعم.. لقد كانت عيناه ثاقبتان تحدقان بي وكأنهما تخترقان كل أسراري.. وهذا لم يزعجني كثيرا.. بل وعلى العكس تماما.. فقد شعرت بأن هذا (الشيخ) بمثابة جدي ويمكنني أن أخبره بكل شيء!!.. فتح ذراعيه وكأنه يريد معانقتي.. بالفعل.. هذا ما يريده.. مددت يدي أنا الآخر.. وتعانقنا أخيرا!!.. ثم تعالت صيحات الجميع حولي و(مريم) مرحبين بنا بعبارات أخوية أخجلتني كثيرا.. شكرتهم كثيرا وعرفتهم بنفسي

مستعملا يدي أثناء الكلام شأن أي شخص خجول.. هكذا يفعل الخجولون عندما يشعرون أن الكلمات لا تطيعهم.. فيساعدونها بالأيدي!!..

لقد شعرت لأول مرة بقيمة الابتسامة.. وأنها مثل النظر في المرآة.. فإذا أعطيت الناس ابتسامة فإنك على الأرجح ستأخذ واحدة منهم أيضا.. أليس كذلك؟!.

قال (الشيخ) بصوت أبوي مؤثر وبلغة عربية توحي وكأنه من أهل الشام:

-أولادي.. لقد قمت بتأسيس هذا المكان منذ ثلاثون عاما تقريبا.. كنت أبتغي مكانا مثاليا هادئا أعيش به سعيدا مع زوجتي العزيزة بعيدا عن كل متطلبات الحياة وقيودها!!.. فهاجرنا إلى هنا وعشنا معا عشرين عاما تقريبا دون أن ننجب بسبب مرض كانت تعاني منه زوجتي.. قبل أن تموت وتتركني وحيدا.. عندها خطرت لي فكرة بناء مجتمعا مثاليا في هذا المكان بعيدا عن زحمة الحياة وحب المادة!!.. أردت أن يجتمع المتحابون العاجزون عن الزواج بسبب عاداتهم وتقاليدهم.. أردتهم أن يجتمعوا هنا ويساهموا باستمرار هذه الجنة الصغيرة.. لكن كيف؟!.. كيف أجد من يستحقون الحياة هنا؟!.. بل كيف أصل لأي إنسان وأنا في أعالي الجبال ولا سبيل للوصول إلى أي منطقة مأهولة كما ترون؟ !!..

سكت قليلا وهو يلهث.. يبدو أن كثرة الكلام تصيبه بالتعب.. ساد المكان صمت مهيب قبل أن يقول:

- ظللت وحيدا أكثر من ثمانية أعوام بعد وفاة زوجتي.. قبل أن يجدني بالصدفة البحتة أحد المتسلقين.. كان أول إنسان ألتقي به منذ وفاة زوجتي!!.. فأخذته في ضيافتي وأطعمته وأكرمت وفادته.. ووعدني ألا يخبر أحدا بأمري على الإطلاق.. لكني طلبت منه أن يفعل.. وأن يخبر أقرب أصدقائه والذين يثق بهم ثقة عمياء حتى يأتوا إلي بكل عاشقين عجزا عن الزواج لأي سبب.. وكان شرطي الأساسي أن يكونوا مراهقين يملكون روح الشباب والحماس والرغبة ببناء مجتمع جديد مثالي.. وهكذا قام أقرب أصدقاء ذلك المتسلق بمساعدته ومساعدتي بالدرجة الأولى في بناء هذا المكان.. إنهم يفعلون ذلك رغبة في الخير فقط.. وهكذا بدأتم تتوافدون شيئا فشيئا طوال الثلاث شهور الماضية.. وأعتقد أنني سأكتفي بهذا العدد.. أنتم عشرة أفراد الآن تمثلون خمس أسر.. هذا يكفي تماما..

صمت أخيرا ليعرف مدى تأثير كلامه علينا.. كان الجميع يعرف تلك القصة سواي أنا و(مريم).. وها نحن الآن عرفنا السر!!.. فقد كنت أتساءل منذ التقيت بهذا العجوز الطيب عن كيفية وصوله إلى أعالي الجبال.. و.. قطع (الشيخ) حبل أفكاري مرة أخرى وهو يقول:

-ستعيشون معي هنا إلى الأبد.. ولكن.. أرجوكم أن تتذكروا أنه لا بد من قائد لهذه القرية الصغيرة.. فهذا المجتمع الصغير سيكبر مع مرور الأيام.. إذ سرعان ما ستنجبون أطفالا تمتلئ بهم القرية.. وعندما يكبر أي مجتمع.. ستبدأ مشاكله بالظهور.. هذه قاعدة معروفة.. لذا فلابد من قائد.. قد أبدو لكم كبيرا في السن.. لكنني بصحة جيدة للغاية.. ولدي سنوات لا بأس بها لأعيشها.. إن الحياة في الجبل تجعل صحتك هائلة بسبب الهواء النقي والطعام الصحي.. وعندما أقول أنه لا بد من قائد.. فهذا يعني أنكم ستستمعون إلي وإلى نصائحي ولن تعارضوها أبدا.. فليكن هذا اتفاقا غير مكتوب بيننا.. لن أطيل عليكم أكثر من هذا.. فمن فنون الخطابة أن ينهي الإنسان كلامه قبل أن ينهي الناس استماعهم.. أليس كذلك؟!.

وهكذا بدأنا معا رحلة جديدة.. وحياة جديدة.. فمن الحياة الصحراوية القاسية في (الكويت).. إلى

أعالي الجبال في (إيران) في ليلة وضحاها!!.. وفي مكان رائع هو أشبه بجنة على الأرض!!.. شعرت أنني أعيش في عوالم البلور المخملية.. حيث تحررت فيها من كل أغلالي وقيودي.. وحيث أضحك ملء روحي.. أية لذة ونشوة غمرتني وأنا أرتاد هذا العالم البكر.. حيث يبقى الندى على الأوراق فلا يسيل ولا يجف.

لقد شعرت بأن الكون يتحدث معي في هذه الجنة الصغيرة.. ربما لأنني بدأت أتعلم الإصغاء أخيرا.. بعد أن عشت سنوات من الضياع في دروب الحياة والتنقل بين الوجوه التي أعرفها وتلك التي لا أعرفها.. لقد شعرت بأن ضباب الحياة في العالم الخارجي ينقشع عن ذهني شيئا فشيئا.. وكأنني في قصص الأطفال حيث نركب جميعا قوس قزح ليأخذنا إلى عالم آخر مبشرا بأمل جديد.. حقا أن الجنة هي كل مكان لا يلمسه إنسان.. فإذا لمسه.. سيقوم بتخريبه بكل تأكيد!!!.

لقد كان أول ما فعلناه بعد ترحيب الجميع بنا هو الحصول على ثياب ثقيلة وأحذية بدائية الصنع لكنها دافئة جدا.. وذلك بسبب برودة الجو الشديدة في الليل كما علمنا وشهدنا بأنفسنا.. وبالطبع قام بعدها (الشيخ) بتزويجي من (مريم)!!.. إن معلوماتي عن عقود الزواج وإجراءات التقاضي تشبه معلومات طفل.. بل هي معلومات طفل فعليا.. ولكن أظن أن ما فعلناه كان زواجا سليما شرعيا.. خاصة وأن أهم شروط الزواج هو قبول الطرفين كما نعلم جميعا.. وعلى كل حال فقد بدا ذلك (الشيخ) عارفا لكل علوم الدين والدنيا.. خاصة بالنسبة لمجموعة مراهقين جاءوا من مجتمع بدائي منغلق وبالكاد يستطيعون أن يكتبوا أسمائهم.

كما شعرت مع (مريم) بأننا نتأقلم على الحياة بعد مرور أيام قليلة فحسب على وجودنا في تلك القرية.. وبدأنا معا ببناء مجتمع مثالي سعيد مع أناس أحببناهم وشعرنا بألفة سريعة بينهم.. فبدا أن كل من يعيشون خارج هذا المكان ماديون جامدون كالحجارة..

كنا نعيش على أكل الفواكه والخضروات التي غرس (الشيخ) بذورها الأولى منذ سنوات طويلة.. فلم تكن هناك لحوم على الإطلاق لعدم وجود أي حيوانات جبلية.. ولم تكن هذه مشكلة.. فنحن ننتمي إلى جيل لم يعتد على الوجبات السريعة والموائد المليئة بكل ما لذ وطاب.. فكنا نقضي ساعات النهار في الزراعة والاهتمام بالحقل الصغير وهو مصدر طعامنا الوحيد حيث ألذ الفواكه والخضروات.. وفي بدايات الليل نجتمع في الساحة التي تتوسط أكواخنا الصغيرة.. حيث نلتف جميعا حول النار مرتديين ثيابنا الثقيلة.. لنتبادل الحديث والسمر ونستمع إلى حكايات (الشيخ).. ونرى النجوم تتلألأ في السماء ونحمد الله سبحانه وتعالى ألف مرة على هذه النعمة.. ثم يذهب كل منا إلى فراشه.. حتى نستيقظ مع بداية شروق الشمس في وقت مبكر جدا من الفجر للعمل.. وهكذا!!.

لقد أعطانا (الشيخ) بضعة قوانين يجب علينا أن ننفذها حتى تستمر الحياة بهذه الروعة وهذا الجمال.. وكنا ننفذها دون مناقشة.. كانت القوانين كالتالي:

-1 ألا نعصي له أمرا.

-2 العمل ثم العمل ثم العمل.

-3 أن نكون أخوة إلى الأبد.

-4 أن نتكاثر ونكون مجتمعا مثاليا.

وقد كنا نرى طاعته أمرا مقدسا لا يخضع لنقاش.. خاصة ونحن جميعا نعرف أننا ضائعون

بدونه.. فهو من يداوينا في حالة المرض وبأدوية مجهولة صنعها بنفسه من الأعشاب كما يقول.. وبالطبع لم يكن أي منا يعرف القراءة والكتابة.. لذلك فإن كل ما تعلمناه هو عن طريق التلقين من (الشيخ)!!.. فكان هو المعلم والطبيب والأب..

أما أهم وصاياه فهي تتمثل في ذكراه عندما يموت.. فقد قال:

-أبنائي.. سأموت يوما.. جميعنا سنموت.. وفي حالة موتي أرجوكم أن تتذكروني دائما.. أرجوكم أن تصنعوا تذكارا لي بالقرب من تلك الشجرة التي نجلس عندها كل يوم.

وعندما سأله أحد أفراد القرية عن سبب رغبته الغريبة تلك!!.. كان يبتسم.. ويقول بهدوء:

-مجرد ذكرى لتأسيسي لهذه القرية!!..

وبالطبع لا يمكن أبدا أن تسير الأمور بهذه السلاسة والبساطة.. فلا بد أن تتغير الأحداث.. ماذا تغير؟!.. كل شيء.. لأنني كنت أعيش وسط عالم من الغموض لم أنتبه له إلا مع مرور الأيام.. بل إنني أخبرتكم منذ البداية أنكم ستجدون الكثير من الثغرات والتناقضات والنواقص في قصتي!!.. أليس كذلك؟!.. متى بدأت أشعر أن هناك شيئا ليس على ما يرام؟!.. لا أذكر اليوم.. لأن الأيام السعيدة لا نحسب أوقاتها.. لذلك يشعر الإنسان دائما بأن ساعات الفرح تمر بسرعة لا تصدق.. المهم أن ما سأقوله لا يصدقه عقل.. أنا واثق من هذا.. وستتهمونني بالجنون.. ولكن هذا لن يقلقني كثيرا.. فلو كنت مكانكم لما صدقت تلك القصة!!.

ماذا كنت أقول؟!.. آه.. نعم.. بعد أكثر من شهر من الحياة في هذه الجنة الصغيرة.. استيقظت في وقت متأخر من تلك الليلة لسبب مجهول.. كانت المرة الأولى التي أستيقظ فيها في مثل هذا الوقت منذ وصولي إلى القرية..

ظللت أتقلب في فراشي.. أحاول العودة إلى عالم الأحلام دون جدوى.. إلى أن يأست من ذلك فقررت الخروج من الكوخ في هذا الوقت المتأخر لاستنشاق بعض الهواء.. وهو أمر لم أفعله طوال الأيام السابقة.. فقد كانت حياتنا بسيطة ننام فيها جميعا في وقت مبكر جدا من الليل.. ونستيقظ في ساعات الصباح الأولى للعمل وزراعة الحقل كما أخبرتكم.. نظرة سريعة إلى (مريم) لأجدها غارقة تماما في عالم الأحلام.. نظرة أخرى إلى المدفأة البدائية حيث النار الهادئة التي تبعث الدفء على الكوخ.. قبل أن أنهض من مكاني وأرتدي ثيابي الثقيلة..

خرجت من الكوخ.. والصمت مطبق تماما في الخارج.. ومشهد النجوم المتلألئة في السماء يجعلك تشعر وكأنك تقف في وسطها!!.. مشيت قليلا إلى ناحية الأشجار الكثيفة المحيطة بالقرية.. وبالطبع لم أجرؤ أبدا على المشي والتوغل فيها وسط الظلام.. فمنظرها مخيف جدا في الليل.. ولكن.. مهلا!!!.. انتبهت فجأة إلى ضوء غريب جدا بين الأشجار المتشابكة!!.. لا أعلم كيف واتتني الشجاعة للذهاب إليه لمعرفة مصدره!!.. فلا أحد يجرؤ على التوغل وسط الأشجار في الظلام الدامس.. ولكن.. رؤية ذلك الضوء الغريب أثار اهتمامي كثيرا.. فوجدت نفسي -وبفضول لم أكن أعرف أنني أملكه- أتوجه بهدوء مهيب ناحية ذلك الضوء!!.. أنفاسي أكاد لا أسمعها.. خطواتي حذرة بطيئة جدا حتى لا أدوس على أغصان متكسرة تفضح وجودي.. و.. وجدت مفاجأة هائلة!!!!!.. لقد كان (الشيخ) موجودا هناك.. وضوء قوي لم آرَ مثله في حياتي يحيط به ويشع بقوة.. قبل أن.. قبل أن يتلاشى تماما!!!.. هكذا بكل بساطة!!.. اختفى تماما وكأنه لم يكن.. فجعت بما رأيت!!.. ووقفت مشدوها مصدوما عاجزا عن التحرك من مكاني.. ماذا يحدث هنا؟!.. هل (الشيخ).. هل يتعامل مع الجن مثلا؟!.. هذا أول ما تبادر إلى ذهني!!.. رجعت بعدها

سريعا إلى الكوخ وقلبي يخفق بقوة.. وجلست بالقرب من النيران الجميلة في المدفأة أفكر بمعنى ما رأيت.. هل أوقظ (مريم)؟ !!.. لا.. لا يمكن أن تصدقني.. ظللت أفكر وأفكر دون أن أصل إلى نتيجة.. إن ما رأيته أمر يفوق الوصف.. يفوق الوصف بحق.

أمضيت الليل بجانب زوجتي وعلامات الحيرة محفورة على وجهي!!.. ما هي حقيقة هذا الرجل؟!.. وما الذي كان يفعله وحيدا في مثل هذا الوقت؟!.. كيف اختفى بهذه البساطة؟!.. وكيف سيعود؟!.. ظلت تلك التساؤلات تثقل عقلي حتى ثقلت جفوني شيئا فشيئا و.. غبت في عالم الأحلام.

في الصباح أخبرت (مريم) بما رأيت دون أن أكترث إن كانت ستصدقني أم لا.. فاستمعت إلي مذهولة غير مصدقة في باديء الأمر.. ثم سكتت طويلا وقد عقدت حاجبيها بشدة كناية عن التفكير العميق.. وقالت بعدها:

- إن ما تقوله أمر غريب يفوق الوصف!!.. ولكن.. ربما هذا الرجل هو أحد الأولياء الصالحين الذين نسمع عنهم وله كرامات ومعجزات..

سكتت قليلا مرة أخرى.. ثم أشرق وجهها وهي تقول باقتناع تام:

-نعم.. لا شك أنه من الأولياء الصالحين!!!!.

بالتأكيد.. بالنسبة إلى عقليات الناس في ذلك الوقت فهذا الجواب مقبول جدا.. ولكن.. لا أدري لماذا وجدت نفسي عاجزا عن تصديق شيئا كهذا.. وأن الأمر يفوق ذلك التفسير البسيط بكثير!!.

ظلت التساؤلات تلتهم عقلي التهاما.. وظلت تلك القصة تشغل تفكيري قبل أن أقرر تكرار ما فعلته في تلك الليلة.. نعم.. سأخرج من الكوخ في وقت متأخر من الليل مرة أخرى وأرى إن كان (الشيخ) سيخرج من كوخه ويكرر ما فعله.. و.. تماما كما توقعت.. لقد تكررت الحادثة مرة أخرى!!.. فقد رأيت الشيخ بالفعل في تلك الليلة يخرج من كوخه الصغير متجها نحو الأشجار المتشابكة في الغابة.. وإلى نفس النقطة التي توقف عندها في المرة السابقة.. ثم.. نفس الهالة الضوئية تشع من حوله.. ليختفي داخلها!!.

لقد جن جنوني.. وشعرت بأنني أمام أمر خارق للطبيعة يعجز عقلي عن استيعابه.. فرجعت مسرعا إلى الكوخ وعقلي يكاد أن يطير من رأسي!!.. ما الذي يحدث هنا؟!.. أين يذهب هذا الرجل؟!.. بل.. من هو هذا الرجل؟!.. هل أخبر باقي أفراد القرية؟!.. لن يصدقني أحد.. وأنا في واقع الأمر أخشى أن أخبرهم بأي شيء سلبي بخصوص (الشيخ).. لأنه يحظى باحترام هائل.. ويحبه الجميع ولا يمكن أن يشكك أحد بنواياه!!.. هل هو ساحر؟!.. ارتج قلبي لهول الفكرة.. ووجدت نفسي لا شعوريا أجلس متربعا على الفراش في الظلام محاولا ألا أوقظ (مريم).. عقلي يعمل بكل طاقته.. فما حدث جعل عقلي بثقافته المحدودة ينفض عن نفسه الغبار ويفكر!!.. وشيئا فشيئا بدأت الأفكار تتداعى إلى عقلي البسيط.. وبدأت ألاحظ أشياء كثيرة في منتهى الغرابة لم أنتبه لها في البداية.. فأنا لم آرَ أي طيور منذ مجيئي إلى هذا المكان!!.. هل يعقل ألا نرى طائرا واحدا في أعالي الجبال؟!.. وهناك نقطة بديهية أخرى لم أنتبه إليها في البداية.. كيف وصلت سيارة ذلك البريطاني إلى هنا!!.. لقد نمنا طوال الرحلة تقريبا.. فلم أشاهد الطريق المؤدي إلى الجبل.. وكل ما حولي لا يوحي بأن هناك سيارة تستطيع الوصول إلى المكان الذي كانت متوقفة فيه عندما استيقظنا!!.. دعكم من أنني انتبهت إلى حقيقة أخرى لم ينتبه إليها أحد.. فجميع الذين

أتوا إلى هذه القرية كانوا نائمين أثناء الطريق ولم يفتحوا أعينهم إلا عند وصولهم!!.. لكن أحدا لم ينتبه لهذه النقطة.. بل ولم يتكبد أحد عناء السؤال سواي!!!.

لم يحتمل عقلي كل هذه التساؤلات.. ففي اليوم التالي مباشرة.. ذهبت إلى كوخ (الشيخ).. و..:

-سيدي.. أرجوك اغفر لي تطفلي.. لكن.. لكن لدي سؤالا هاما أود أن أطرحه..

رد بهدوء شديد دون أن ينظر إلي:

-تفضل يا ولدي.. قل ما لديك..

تلعثمت كثيرا أمام طريقة رده المليئة بالغموض.. لكنني استجمعت شتات نفسي وقلت:

-سيدي.. كيف وصلنا إلى هذا المكان؟ !!.. كيف تمكنت سيارة ذلك البريطاني من الوصول إلى هنا؟ ؟!..

أقسم لكم بأن ملامح (الشيخ) قد تجهمت للحظة.. لا أعتقد أنه توقع سؤالا كهذا.. لكنه استعاد توازنه سريعا.. وتوجه بهدوء إلى باب الكوخ ليقفله.. إنه إنسان غريب بالفعل أشبه ببئر يخفي العديد من الأسرار.. أو جبل جليدي لا نرى منه إلا قمته كما يقول الإنجليز!!..

عاد بعدها وجلس على كرسيه الخشبي.. ثم نظر إلى عيني مباشرة وقال:

-(سالم).. أعلم أنك تبعتني أكثر من مرة.. ورأيت أمورا لم تفهمها.. لذا دعني أقول لك شيئا واحدا يا بني.. هناك أشياء كثيرة لن تفهمها ولن يسعها إدراكك.. و..

قاطعته بلهفة يشوبها الخوف في مزيج لم أشعر به من قبل:

-حاول أن تشرح لي.. سأفهمك حتما..

ابتسم بحنان أبوي وهو يقول:

-سعة إدراكك تفوق سعة إدراك قط صغير.. فهل تستطيع أن تشرح شيئا لقط صغير؟ ؟!.. كما قلت لك.. هذه أمور تفوق إدراكك كثيرا يا ولدي.. وأنا أطلب منك أن تنسى كل ما حدث وألا تخبر أحدا بما رأيت لأن الجميع سيتهمك بالجنون.. إنك تعيش في مكان لم تكن تحلم به إطلاقا ومع الفتاة التي تحبها.. فماذا تريد أكثر من ذلك؟!..

لم أجد ما أقول.. كدت أن أطرح عليه باقي تساؤلاتي.. لكني أحجمت عن ذلك.. لا أدري لماذا.. هاجس قوي جعلني أشعر أن هذا الرجل ليس بالصورة النقية التي نراه بها.. هناك أمور كثيرة يخفيها عنا.. لكن.. ماذا سأفعل؟!.. أخبر (مريم)؟!.. إنها تتبعه مفتونة وتقول أنه رجل ذو كرامات ومعجزات!!.. ماذا؟!.. تقولون لم لا آخذ بنصيحة (الشيخ) وأنسى كل ما رأيت؟!.. فعلا.. إنني أملك كل ما أحلم به في هذا المكان.. أملك حبيبتي.. أملك الأصدقاء.. أملك كل شيء.. إن الجميع قد استقروا هنا.. بل إن هناك أسرتين تنتظران مولودا جديدا خلال الأشهر القادمة!!.. نعم.. إننا نبني مجتمعا حقيقيا هنا.. ولكن ماذا عن شكوكي؟ ؟!.. ماذا عن عدم رؤيتي لأي طائر هنا؟!.. ماذا عن كيفية وصولنا إلى هذا المكان بسيارة؟!.. ماذا عن استغراقنا جميعا في النوم أثناء الطريق؟!.. ثم ماذا عن المسافة؟!.. كم تبعد جبال (إيران) عن (الكويت)؟!.. وهل نحن في (إيران) فعلا؟!.. لا يمكن أن أصدق أنني أنام ساعات طويلة في السيارة دون الشعور بأي شيء ودون الاستيقاظ على فترات متقطعة مثلا.

أتذكر جيدا أننا نمنا في السيارة نوما عميقا لم نشعر به من قبل.. حتى (مريم) ذكرت ذلك.. ثم ماذا عن ذلك البريطاني الذي جاء بنا إلى هنا؟!.. لم يشاهده أحد يغادر المكان.. لقد استيقظنا صباح اليوم التالي لوصولنا إلى هذا المكان وإذا ب(الشيخ) يخبرنا أن البريطاني قد رحل.. هكذا بكل بساطة!!.. تساؤلات.. تساؤلات.. وثغرات عديدة لا حل لها!!.. حقا أن هذا المكان لغز.. لغز هائل!!.. وهذا اللغز يجثم على روحي ويجعلني عاجزا عن التأقلم مع الحياة هنا..

أريد أن أعرف إجابات لأسئلتي.. فهذا الغموض جعلني لا أحب هذا المكان كثيرا!!.. إن الإنسان عدو ما يجهل.. ومن الصعب أن أرى أمورا تفوق تصوري وإدراكي ثم أقبلها بكل بساطة.. فالذي يحدث هنا خارقا للطبيعة ولا يمكن أن يتجاهله أحد.. لقد أصبح هذا المكان كالماء المالح.. كلما شربت منه كلما ازددت عطشا.

ظللت أفكر بضعة أسابيع بهذا الكم من الألغاز وأحاول في نفس الوقت التأقلم مع الحياة في القرية كما فعل الجميع.. لكني عجزت عن ذلك تماما!!.. حتى مضى على وجودنا فيها ثلاثة شهور تقريبا.. وأصبح موضوع الإنجاب حديث الساعة.. خاصة وأن كل أسرة هنا أصبحت تنتظر مولودا جديدا سوانا.. وهذا الأمر لفت انتباه (الشيخ).. فكان يسألني عن سبب عدم إنجابنا.. لأهز رأسي بأسى تمثيلي وأخبره أنه لا نصيب هناك وأن الأمر بيد الله.. لماذا يريدني أن أنجب الأطفال؟!.. لماذا يهتم كثيرا بهذا الأمر ؟!.. بل ولماذا كانت مسألة إنجاب الأطفال أحد وصاياه التي ذكرها لنا عند وصولنا إلى هذا المكان؟!.. لا أدري.. هذا أحد الألغاز العديدة التي تطل من كل ركن من هذه القرية.. والواقع أننا لم ننجب بسبب رغبتي أنا وبسبب احترام (مريم) لرغبتي.. حيث طلبت منها أن تبقي الأمر سرا وألا تخبر (الشيخ) بذلك.

ولأول مرة في حياتي أتساءل عن الأحوال في (الكويت).. كيف حال والدتي.. كيف حال الناس هناك؟ !!.. لأول مرة أشعر بنوع من الحنين لحياتي في (الكويت).. ماذا أفعل؟!.. الهرب؟!.. لقد راودتني تلك الفكرة.. لكنها فكرة سيئة للغاية.. هل تعرفون لماذا؟؟.. لأنها فكرة سيئة بالفعل!!.. فلا أعلم كم علي المشي حتى أصل إلى أقرب مكان يقطنه بشر.. ولا أعلم كم تبعد أقرب منطقة مأهولة.. ثم إنني لا أتحدث الفارسية.. ولا أملك أوراقا رسمية للسفر.. هذا إذا كنا في (إيران) أصلا!!.. شيئا في أعماقي يخبرني أننا في مكان بعيد جدا.. لا.. لا أستطيع أن أقود حبيبتي (مريم) إلى التهلكة في مغامرة هرب مجهولة لا يعلم مصيرها إلا الله!!.. حقيقة لا أعلم ما إذا كان القرار الذي اتخذناه بشأن هجرتنا إلى هذا المكان هو القرار الصحيح أم لا.. لقد بدا ما فعلناه حينها وكأنه الخيار الوحيد.. لكني الآن أتوق كثيرا للعودة.. الغريب أن حياتي في (الكويت) تبدو بعيدة وكأنها منذ زمن طويل جدا رغم أنه لم يمض على وجودنا هنا سوى بضعة شهور.. اللعنة.. كم أكره هذا الغموض الذي يجعلني على وشك الجنون.

ظللت صامتا تقتلني الأفكار والهواجس طوال تلك الأيام.. حتى جاء اليوم الذي غير كل شيء وفك اللثام عن الغموض الذي أعيشه هنا!!.. كان ذلك حين جاء (الشيخ) إلى كوخنا الصغير في زيارة مفاجئة.. فهو لا يزورنا كثيرا.. وغالبا ما نجتمع معه حول النار بالقرب من تلك الشجرة العملاقة ليلا كما تعلمون ليعطينا بعضا من حكمه ونصائحه وقصصه الرائعة.. لكنه هذه المرة يزورنا في كوخنا الصغير!!!.. رحبت به مع (مريم) بحرارة.. فأومأ برأسه مبتسما متواضعا كعادته.. وجلس بجوار المدفأة ليسألنا بصورة مفاجئة:

-لماذا لا تنجبان؟!..

هذا غير معقول!!.. لماذا يثير موضوع انجابنا اهتمامه لهذا الحد؟!.. فقالت له (مريم) ما اتفقت معها على إخبار الجميع:

-إن الله لم يكتب لنا ذلك بعد..

رد بشيء من الصرامة التي لم أعتدها أبدا:

- يجب أن تحاولا.. فالأطفال هم زينة الحياة وهم الأمل.. ولو قدر لهذا المجتمع أن يعيش ويستمر فسيكون هذا بأبنائكما..

كانت لزيارته تلك مفعولا قويا وكأنها دواء منشط للشكوك التي تحوم في رأسي طوال الوقت.. إن هذه الزيارة تعني أن أمر إنجابنا بالنسبة إليه في منتهى الأهمية.. وبالطبع لم تجد (مريم) أي مشكلة فيما يحدث.. فقد كانت ترى أن اهتمام (الشيخ) بنا بهذه الصورة أمرا طبيعيا جدا كونه بوجهة نظرها كأي جد.. يريد أن يفرح برؤية أحفاده.. كما ترون.. لقد كنت وحيدا في شكوكي تلك!!.. حتى أنني توقفت عن البوح بها ل(مريم) منذ مدة.. ولكن تلك الزيارة الأخيرة جعلتني كالمجنون!!.. وعندما تكون مجنونا.. تفكر كالمجانين!!.. نعم.. لقد قفزت إلى ذهني واحدة من تلك الأفكار المجنونة التي ستحسم كل شيء دون شك وتكشف لي الغموض المحيط بهذه القرية.. لكنها تحتاج إلى جرأة غير عادية لم أظن أنني أملكها يوما.. إلا أنني استجمعت شجاعتي.. وقررت أن أنفذها في أول فرصة.. فهي الحل دون شك لكشف كل شيء!!.. ما هي الفكرة؟!.. حسنا.. إن (الشيخ) يذهب إلى الغابة في وقت متأخر ويختفي هناك بهذه الهالة المشعة.. فلماذا لا أرافقه؟!!.. لماذا لا أذهب معه؟!.. تقولون أنه لن يوافق؟؟!!.. من قال أنني سأطلب رأيه؟ ؟!.. سأتبعه رغما عنه.. وأذهب معه حيثما يذهب رغما عنه أيضا.. كيف؟!.. ستعرفون بعد قليل.

عندما حل الظلام في تلك الليلة على وجه التحديد.. توجه كل منا إلى كوخه.. فانتظرت حتى عم السكون القرية تماما.. وظللت متقلبا في الفراش طوال الوقت أنتظر تنفس (مريم) المنتظم والذي سيدل على نومها دون شك.. حتى شعرت أنها نامت أخيرا.. فنهضت من الفراش بهدوء وارتديت ثيابي الثقيلة وخرجت بحذر شديد!!.. أتمنى ألا يكون (الشيخ) قد خرج من مكانه واختفى وإلا فسيكون علي الانتظار حتى الغد!!.

حاولت الاختباء خلف الكوخ محاولا ألا أحدث أي صوت.. وجلست أنتظر.. إلى متى سأنتظر؟!.. هل سأنتظر إلى ساعات الصباح الأولى قبل شروق الشمس مع زقزقة العصافير؟!.. لا.. لا أعتقد أنني أستطيع أن أقول (مع زقزقة العصافير).. لأنه لا توجد عصافير في هذا المكان كما تعلمون..

انتظرت لفترة طويلة قبل أن أشعر فجأة بحركة مريبة بالقرب من مكان اختبائي.. نعم.. إنه.. إنه (الشيخ)!!.. لقد خرج للتو من كوخه!!.. يبدو شكله مخيفا مهيبا وهو يمشي بهدوء شديد نحو الأشجار الكثيفة التي تحيط بالغابة.. إنه متجه إلى تلك النقطة تحديدا.. حسنا إذا.. هذا من حسن حظي.. أو ربما من سوء حظي.. لا أعلم!!.. تبعته بهدوء شديد محاولا أن أحبس أنفاسي نفسها.. وتوقف (الشيخ) عند نفس المكان حيث اختفى سابقاً!!.. وبدأت فجأة هالة مضيئة تظهر حوله.. إنها اللحظة الموعودة.. لحظة تنفيذ الفكرة المجنونة!!.. إذ هرعت مسرعا لأمسك بثيابه بكل قوتي!!.. لم تبد عليه الدهشة لأنه لم يجد الوقت أصلا ليشعر بالدهشة.. فقبل أن يتخذ أي ردة فعل.. اختفيت معه.. تلاشيت معه تماما!!!.

ماذا حدث بعد ذلك؟!.. لا أعرف.. لحظات شعرت فيها بأنني روح بلا جسد!!.. روح لها عقل وتفكر.. لكنها بلا جسد.. شعورا لذيذا لا يوصف لكنه سرعان ما تلاشى بدوره لأجد نفسي فجأة

ودون سابق إنذار بمكان غريب جدا لم آرَ مثله في حياتي.. ولا.. ولا حتى في خيالي!!!!!.. ثم..:

-لماذا يا (سالم)؟!..

التفت بحدة ناحية الصوت.. فوجدت (الشيخ) ينظر إلي بحزن ويهز رأسه بأسى!!.. ووجدت نفسي بالمقابل ألهث بقوة غير مصدق ما أراه حولي.. أجهزة وآلات غريبة جدا.. خاصة بالنسبة لشخص يعتبر التلفزيون نفسه معجزة قياسا بتلك الفترة من الزمان.. سألته بصوت مرتعش مضطرب:

-أين.. أين أنا؟ ؟!.. أخبرني!!.. ومن.. من أنت بالضبط؟ ؟!..

مط شفتيه وهو يقول بحزن:

-لقد أعطيتك عالما مثاليا لكنك رغم هذا تنازلت عنه.. تنازلت عن كل شيء.. بل وتنازلت عن زوجتك إلى الأبد!!.

قاطعته بتوتر مجنون وعيناي متسعتان على الآخر:

-أعدني إلى وطني.. أعدني مع (مريم) إلى وطني.. أرجوك أبعدني عن هذا المكان المخيف!!.

نظر إلي نظرة طويلة وكأنه يريد أن يرى تأثير كلامه علي.. قبل أن يقول:

-هل تظن أنك في أعالي جبال (إيران) بالفعل يا (سالم)؟ ؟!.. إنك في مكان آخر تماما.

لم أفهم.. ولم يحاول أن يشرح أكثر.. بل أمسك بيدي ليقودني إلى غرفة أخرى أعجز عن وصفها لكم.. غرفة تمتلئ بالآلات والشاشات العملاقة التي لم أعرف معناها في ذلك الوقت.. ذهب ليجلس على كرسي غريب الشكل.. وضغط زرا أحمر اللون.. لأسمع بعدها صوتا رهيبا خلفي مباشرة جعلني أقفز من مكاني هلعا.. فالتفت إلى الخلف بحركة لا شعورية لأرى حاجزا زجاجيا هائل الحجم.. ما الذي يعنيه هذا؟ ؟!.. إنني.. إنني في مكان مرتفع للغاية وأرى في الأسفل من خلال حاجزا زجاجيا غابة كثيفة جدا تحيط بقرية صغيرة!!!!.

هبطت علي الحقيقة ببطء شديد.. شديد جدا.. وشيئا فشيئا بدأت أفهم!!.. هذه الغابة الكثيفة.. هذه القرية الصغيرة!!.. إنني أميز كوخي بوضوح!!.. و.. مع اتساع عيني اندهاشا.. وقبل أن أنطق بحرف.. قال الشيخ بهدوء مهيب:

-إنك لست على كوكب الأرض يا (سالم).. إنك في سفينة فضائية.. نعم.. هذه الغابة الكثيفة.. تلك القرية.. الجبال المحيطة بكم.. النجوم.. إنها سفينة فضائية هائلة الحجم!!!!!!.. وأنت تجلس في سقفها الآن.. وتحديدا في غرفة القيادة!!!!!.

لم يكن مصطلح (سفينة فضائية) دارجا على الإطلاق في زمني.. فبدا لي كل شيء وكأنه من عالم ألف ليلة وليلة.. ثم.. تحدث (الشيخ) وكأنه يلقي محاضرة طويلة:

-لا أعلم إن كنت ستفهم ما سأخبرك به.. لكني سأحاول على كل حال.. فأرجوك أن تستمع إلي بانتباه شديد..

لم أنطق بحرف.. بل ظللت أحدق به ببلاهة.. فأردف:

-إنني أنتمي إلى كوكب آخر بعيدا جدا عن كوكب (الأرض)ويفوقكم علوما بمئات السنين.. بل ووصلنا بعلومنا إلى حدود لا يمكن لأحد من كوكبك أن يتخيلها.. لكن المشكلة أن عددنا تناقص

إلى حد مخيف بسبب حرب رهيبة حلت بكوكبنا منذ مئات السنين وأبادت كل سكانه سوى قلة قليلة جدا لا يزيد عددها عن المائتين تقريبا.. وبدت مسألة إعمار كوكبي مستحيلة.. فالخراب كان يعم كل شيء تقريبا.. والتلوث جعل الحياة على سطحه مستحيلة.. عندها فقط أعلن أحد العلماء الناجين عن فكرة هي بمثابة الأمل الأخير لإنقاذ البقية الباقية من شعبنا قبل أن ننقرض.. فقد قام هذا العالم وقبل بدء الحرب بسنوات ببناء سفينة فضائية هائلة الحجم بمساعدة زملائه العلماء.. إنها السفينة الفضائية التي نتواجد فيها الآن.. وذلك للهرب من كوكبنا إذا ما حلت به كارثة من أي نوع.. خاصة وأن تلك الحرب الرهيبة كانت تلوح بالأفق قبل نشوبها ببضع سنوات.. وكان الاقتراح المتداول هو أن نترك جميعا كوكبنا ونلجأ إلى كوكب آخر غير مأهول.. وبدا هذا مستحيلا.. فجميع الكواكب غير المأهولة لا تصلح للحياة أصلا.. لكن ذلك العالم الناجي كانت لديه فكرة عبقرية.. عبقرية بحق.. فقد كان يدرس كوكب الأرض باستمرار بواسطة أجهزة رصد بالغة التطور.. وقد عرف عنكم الكثير.. عرف أنكم معشر البشر تعملون بجد وتتدربون بسهولة.. كما أنكم أذكياء رغم أنكم في بداية سلم التقدم العلمي.. وهذه كلها أمور تجعلكم صالحين تماما للعمل في كوكبنا وإعادة بنائه.. نعم.. تماما ما سيخطر في ذهنك.. كنا نريد عبيدا يعملون لدينا وينفذون أوامرنا دون مناقشة من أجل إعادة إعمار كوكبنا!!.. لكن هذا الأمر يصطدم بطبيعة الإنسان نفسه.. فالإنسان كائن عنيد لديه الكثير من الكبرياء ولا يخضع لأحد بسهولة.. بل إننا لا نملك حتى القوة لإخضاعكم.. لذا فقد بحثنا عبر تاريخكم طويلا لمعرفة أي ثغرة قد نستطيع استغلالها لإخضاعكم لرغباتنا بكامل إرادتكم وجلب أعدادا هائلة منكم إلى كوكبنا للعمل فيه وإعادة بنائه.. كانت معادلة صعبة جدا.. فكيف نأتي بكم بإرادتكم وبأعداد هائلة كي تعملوا عندنا عبيدا برضاكم؟؟!!..

سكت (الشيخ) لثوان وهو يراني مصدوما تماما متجمدا في مكاني.. فأكمل بحزن:

-وجاء الحل على يد أحد الناجين من الحرب.. لكنه حل طويل الأمد.. إذ اقترح على البقية الباقية من سكان كوكبي أن يذهبوا جميعا إلى الأرض من خلال هذه السفينة الفضائية التي تستقر حاليا خارج غلافكم الجوي بمسافة بعيدة نسبيا وفي رحلة استغرقت خمسمائة عام للوصول إليكم مع إخفاء سفينتنا الفضائية عن أجهزة الرادار الخاصة بكم بالطبع وبوسائل متطورة للغاية.. لقد اقترح أن نرسل بعضا من أبناء قومنا إلى الأرض بطريقة نطلق عليها اسم (الانتقال الآني) ([35]).. ووجدنا أن تلك المنطقة التي تطلقون عليها (الخليج العربي) هي أفضل المناطق.. فهي منطقة آمنة بعيدة عن الحروب والصراعات.. وشعبها ما زال على الفطرة يعيش حياة بسيطة جدا ستسهل علينا مهمتنا كثيرا.. فكان ذلك البريطاني -كما تطلق عليه -الذي جاء بك مع (مريم) إلى هنا هو في الواقع أحد سكان كوكبنا.. كل من أرسلناهم إلى الأرض كانت لهم مهمة واحدة فقط.. إقناع مجموعة من سكانه للذهاب إلى ذلك المكان في أعالي الجبل!!.. حيث يستطيع كل المتحابين أن يعيشوا ويبنوا مجتمعا جديدا.. كنا نبحث عن أناس صغار في السن.. جهلة لا يفقهون شيئا حتى نسيطر عليهم بسهولة.. وهكذا أقنعنا عشرة منكم للهجرة إلى أعالي الجبل وأخبرناكم أنكم في منطقة جبلية في (إيران).. لقد قام كل مندوب من كوكبنا بتنويمكم بطريقة متطورة جدا طوال فترة الرحلة في السيارة.. وذلك للذهاب إلى منطقة قاحلة في صحراء الخليج حيث ترسلون إلى هذه السفينة الفضائية بواسطة (الانتقال الآني) أيضا.. وهي وسيلة شبيهة بالتي انتقلت فيها معي إلى غرفة القيادة قبل قليل.. و.. هكذا جئتم جميعا إلى هذه السفينة الفضائية التي ستبدأ بالانطلاق إلى كوكبنا بعد أسابيع قليلة من الآن حسب مقاييس زمنكم الأرضي.. على أن تصل إليه بعد حوالي خمسمائة عام من الآن.. وهي فترة طويلة جدا ستسمح بزوال التلوث عن كوكبنا وستسمح أيضا

بتكاثركم وتضاعف أعدادكم.. أي أننا عندما نصل إلى كوكبنا.. سيكون عددكم كبيرا جدا وستساعدوننا في بناء كوكبنا بأكمله.. لماذا لا نرحل إلى كوكبنا بواسطة وسيلة (الانتقال الآني) ؟!.. لأنها لا تصلح إلا لانتقال الكائنات الحية.. ولم نتوصل بعد لاستخدامها لنقل الجماد.. لماذا لا نبني كوكبنا بأنفسنا ؟!.. لأننا لا نتكاثر بالسرعة التي تتكاثرون بها.. فلو وصلنا إلى كوكبنا بعد خمسمائة عام.. سيكون عددنا تضاعف عشرون مرة فقط أو ربما أكثر قليلا..

سكت مرة أخرى منتظرا مني أن أقول شيئا.. لكني بالفعل كنت مشدوها عاجزا عن الرد.. فأكمل:

-كما أخبرتك.. كان لا بد أن نقود عقولكم لجعلكم تابعين لنا وتعملون لدينا بكامل إرادتكم.. لذا فقد أُرسلت لقيادة مجتمعكم الصغير وإعطائكم وصايا وتوجيهات لتقوموا بتنفيذها.. بل وتعطوها صفة القدسية.. وقد كانت هناك خطة طويلة الأمد لعبادتي.. أو عبادة صنمي!!.. هكذا بدأت عبادة الأصنام في كوكبكم.. فالكهنة والصالحون في الماضي السحيق في كوكبك كانوا يرأسون القبائل.. ويعتبرون كنزا قيما لأهل القرية أو القبيلة.. فيصبح الصالح منهم شيخا للقبيلة ويحكم بين أفرادها إن نشب بينهم أي خلاف.. وكان موت شخص كهذا يمثل فقدا عظيما للقبيلة.. فتحاول تعويضه بأن تتخيل روحه ما زالت تعيش بينهم وتحاول إرشادهم إلى ما فيه الخير.. وبالتدريج أصبح لمثل هذه الأرواح مكانة عظيمة في ثقافة هذه المجموعات من البشر.. ونتج عن هذا ما يسمى ب (عبادة الأسلاف).. وأرواح الأسلاف هذه كانت في العادة مرتبطة بأماكن معينة مثل صخرة أو شجرة كبيرة في وسط القرية.. فأدى هذا إلى تقديس هذه الأحجار والأشجار.. لتصبح بالتدريج رمزا لروح أحد أسلاف تلك القبيلة.. قبل أن يصنعوا لها أشكالا محددة حتى يسهل تذكرها ولتكون صورة لا تنسى في الأذهان.. ومن هنا تبلورت فكرة عبادة الأصنام ([36]).. لهذا طلبت منكم صنع تذكار لي بعد موتي.. تمهيدا لفكرة عبادة صنمي وتنفيذ وصاياي في المستقبل.

سكت (الشيخ) مرة أخرى.. قبل أن يقول بأسف:

-صدقني لم نجد حلا آخر لإنقاذ عالمنا سوى ما نفعله الآن.. أن نتحكم بكم من خلال إيمانكم.. وجيل بعد جيل ستظنون أنكم ولدتم لتكونوا عبيدا عندنا.. وأن (الشيخ) الذي أسس مجتمعكم هو إلهكم!!.. لكنك.. لكنك كنت مختلفا عن كل من معك في القرية وكشفت كل شيء بذكاء يثير الانتباه.. بل وتصرفت بشجاعة لم أتوقعها إطلاقا.

انتهى من كلامه.. وبالطبع لم أفهم كل ما قاله.. لكنني عرفت على الأقل أنني في مكان بعيد.. وبدأ عقلي يستوعب شيئا فشيئا أنني لست على كوكب الأرض.. بل في السماء.. ووسط ذهولي واستغرابي.. سألت (الشيخ) بقلق حقيقي:

-وماذا الآن؟ ؟!.. هل.. هل ستقتلني؟!..

ابتسم (الشيخ) بهدوء وهو يقول:

-بالطبع لا.. فنحن قوم مسالمون لا نقتل أحدا.. كل ما سنفعله هو أن نعيدك إلى كوكبك..

هكذا بكل بساطة!!!!.. صعد الدم إلى رأسي وصحت بغضب شديد:

-هل تدعون أنكم مسالمون؟!.. إنكم تأخذون الناس عبيدا عندكم!!!.. إنكم تجبرونهم على العمل وتلعبون بعقولهم.. إنكم.....

وسيلا هائلا من الاتهامات والشتائم التي لم تتوقف.. حتى بدوت أنني على وشك الجنون.. إن لم

أكن قد جننت فعلا!!.. لقد كنت أخاطبه وكأنه كائن مخيف مقزز مشعر يمشي على أرجل مخلبية.. ولا ألام أبدا لهذا.. فما يحدث لي يفوق الوصف.. ويفوق ما قد يحدث لأي إنسان سافر العالم كله ورأى كل ما يمكن رؤيته.. فما بالكم بشخص مثلي أتى من مجتمع بدائي وبالكاد يستطيع كتابة اسمه؟ !!.. وقعت على الأرض وأنا ألهث من فرط الانفعال.. لا أصدق أن شيئا كهذا يحدث.. إنني أنتمي إلى جيل لم يعرف شيئا عن الخيال العلمي.. فكان ما رأيته هو أقرب إلى السحر.. أقرب إلى.. إلى.. لا أعرف.. إنه شيء يفوق كل تصوري!!!.. و..

-سنعيدك إلى كوكبك.. إلى عالمك.. فبعد أن كشفت السر.. لا نستطيع أن نعيدك إلى القرية.. ستفضح كل شيء هناك.. الأمور تسير على خير ما يرام ولا نريدك أن تعكر صفو الحياة فيها.. خاصة وأن سفينتنا الفضائية ستنطلق بعد أسابيع قليلة من الآن كما أخبرتك.. لحسن حظك أننا لم نرحل بعد.. لأن وسيلة (الإنتقال الآني) لا تعمل إلا لمسافات قصيرة نسبيا.. فلم نكن نستطيع أن نعيدك إلى كوكبك لو كنا في أعماق الفضاء مثلاً.

صرخت به ملتاعا:

-ماذا عن زوجتي.. أعيدوها معي إلى وطني.. أرجوكم.. أعيدوها أيها الملاعين..

قال بهدوء شديد غير مكترث إطلاقا لعصبيتي:

- آسف.. نحتاجها ليتزوجها أحد أفراد القرية فيما بعد.. سندعي أنك هربت ولقيت حتفك.. سنختلق لهم قصة مقنعة..

وقبل أن أرد.. وجدت نفسي دون سابق إنذار محاطا بتلك الهالة العجيبة.. لأصبح فجأة روحا بلا جسد مرة أخرى!!.. لحظات قليلة جدا قبل أن أجد نفسي في صحراء نائية تحت الشمس الحارقة!!.. أين أنا؟!.. ماذا يحدث؟!.. ليتني أعرف.. ليتني أفهم!!!.. هل.. هل عدت إلى (الكويت).. هل عدت إلى وطني؟!.. هل عدت إلى النقطة التي توقفت عندها السيارة وأرسلتنا إلى السفينة الفضائية في بداية القصة؟!.. لا أدري!!..

بدأت لا شعوريا أجري منهارا يائسا خائفا.. جريت والشمس الحارة تحرق عقلي نفسه.. فسقطت على الأرض من شدة الإنهاك والخوف والألم.. اللهاث يجعلني أكاد أن أبصق رئتي نفسها من فرط الإجهاد البدني!!.. نظرة سريعة حولي.. لا أجد سوى الصحراء.. لا شيء يوحي بأنني سأجد من ينقذني.. لم تسعفني قواي بعد كل هذا.. فوقعت على الأرض.. وانفصل كياني تماما عن الوجود.

خيل إلي أنني فقدت الوعي دهرا.. قبل أن أشعر بشيء بارد على شفتي له طعم اللبن!!.. هناك من يسقيني اللبن؟ !!.. فتحت عيني بصعوبة بالغة.. وإذا برجل بدوي الملامح ينظر إلي بإشفاق شديد ويمسح وجهي بخرقة بالية.. نطقت بصعوبة:

-أين.. أين أنا؟!..

قال بلهجة بدوية صرفة:

-ماذا تعني يا ولدي؟!.. أنت لا تعرف كيف وصلت إلى الصحراء؟!..

بدأت أستعيد وعيي شيئا فشيئا.. التفت حولي لأجد نفسي في خيمة وسط الصحراء تقف بجانبها سيارة غريبة المنظر لم أشاهد مثلها في حياتي!!!!.. أما البدوي العجوز فيحيط به بعضا من

أبنائه.. لم أعرهم أي اهتمام.. بل نظرت إليه مباشرة وقلت بتوتر شديد:

-في أي بلد أنا؟!..

رد باستغراب:

-أنت في (الكويت).. بالقرب من الحدود (السعودية)!!.. هل أنت بخير يا ولدي؟ ؟!..

قلت له بضراعة وأنا أحاول النهوض:

-أرجوك.. أعدني إلى أهلي.. أرجوك..

نظر إلي باستغراب شديد.. ثم قال:

-وما الذي جاء بك إلى هنا؟!..

-لم آت بإرادتي.. بل أعادني (الشيخ) إلى هنا بعد أن.....

لم أكمل عبارتي.. فلن يصدقني هذا الرجل الطيب.. لن يصدقني أبدا.. فغمغمت بحزن:

-لا عليك يا عمي.. فقط أعدني إلى أهلي!!.. أرجوك..

نهضت أخيرا شاعراً بأنني في حال أفضل.. و..

-سآخذك إلى المدينة.. وهناك يحلها ألف حلال!!..

نظرت إليه مستسلما وهو ينهض ليأتي لي بثياب خفيفة بدلا من تلك الثقيلة التي كنت أرتديها في القرية المزيفة والتي تجثم على روحي وتكاد أن تخنقني بسبب الحرارة الشديدة في هذا المكان.. ثم نهضت بعدها لأركب تلك السيارة الغريبة التي بدت لي متطورة جدا.. وبعد أكثر من ساعة.. بدأت آري العمران.. وصعقت.. صعقت بما رأيت!!!.. ما هذا؟!.. إنني أرى بيوتا ومبان متطورة لم آرَ مثلها في حياتي!!.. ما الذي يعنيه كل هذا؟!.

سألته بدهشة بالغة:

-هل نحن في (الكويت) فعلا؟!..

قال لي:

-أعتقد أنك تعاني من مشكلة ما.. إذ يبدو لي أنك لا تتذكر شيئا.. ربما يجب أن أذهب بك إلى مخفر الشرطة.. لعلهم يساعدونك!!..

-لا.. لا.. أرجوك..

قلتها له برعب لم أفهم أنا نفسي سببه!!.. ماذا عساي أن أخبرهم؟!.. إنني ضائع.. ضائع تماما.. هذا المكان لا يبدو لي جزءا من (الكويت) على الإطلاق.. أرى مبان عديدة متطورة وسيارات لم آرَ مثلها في حياتي.. وكأنني.. وكأنني في عالم آخر!!.. إن كل ما أراه في منتهى الغرابة.. ورغم ثقافتي المحدودة.. إلا أن خاطرا مفزعا قفز إلى عقلي فجأة.. فسألت الرجل:

-في أي عام نحن؟!..

مط شفتيه استغرابا.. ثم قال:

-في عام 1977!!!!.. لماذا تسأل؟؟!!!..

فتحت فمي لا شعوريا.. وشعرت بعمود من الكهرباء يسري في عمودي الفقري.. قبل أن أسأل الرجل وأنا ألهث:

-كيف؟!..

قال لي مستغربا:

-كيف ماذا؟!!

-لقد كنت في فترة الأربعينيات عندما ذهبت مع ذلك البريطاني الوغد إلى الجبل المزيف.. فكيف قفز بنا الزمن بهذه الصورة إلى عام 1977؟!..

لم يفهم كلامي.. فسألني بشكل مباشر وبشيء من الحذر:

-هل أنت مريض؟؟.. هل تعاني من مشكلة في عقلك؟ ؟!..

لم أرد عليه.. بل توسلت إليه أن يتوقف.. أريد أن أنزل.. أريد أن أذهب في حال سبيلي.. توسلت إليه أيضا أن يعطيني بعض المال.. وبالطبع أثبتت تلك النقود كل شيء.. فهي نقود ورقية غريبة جدا.. لكنها تمثل دولة (الكويت) دون شك!!..

نزلت من السيارة بعد أن شكرت العجوز كثيرا وعلامات الاستغراب مازالت مرسومة على وجهه.. نزلت وأنا مصعوق مصدوم تماما من كل ما أراه!!.. كيف قفز بي الزمن بهذه الصورة؟!.. كيف؟!.. إنني ما زلت في الخامسة عشر من عمري.. لا أعرف ما حدث لي.. كنت أمشي كالمجنون وألتفت حولي غير مصدق ما أراه.. دقائق قليلة من المشي قبل أن أرى الحقيقة التي لم أنتبه إليها إلا الآن!!!!.. إنني وحيد تماما.. وغريب في هذا الزمن.. وربما تنتظرني أعواما طويلة من الوحدة!!.. هذا إذا ظللت على قيد الحياة.. ماذا سأفعل؟!.. أين سأعيش؟!.. كيف سأعيش؟!.. كنت على وشك البكاء.. ربما.. ربما أحتاج أن أتحدث إلى شخص متعلم محل ثقة لأخبره بقصتي.. ظللت أفكر طويلا بكيفية إيجادي لشخص كهذا.. فلم أجد مكانا أفضل من المستشفى لألتقي بأحد الأطباء هناك.. لأخبره بقصتي!!.. فالناس في جيلي كانوا يرون الأطباء وكأنهم في أعلى سلم التقدم البشري..

وصلت إلى مستشفى (الصباح) -كما علمت فيما بعد-بعد ساعات طويلة من المشي وسؤال الناس الذي ينظرون إلي بعين يشوبها الشك بسبب منظري القذر ونظراتي الحائرة.. ورائحتي التي تشبه رائحة صراصير المجاري!!.. لكني لم أبالِ بنظراتهم.. فكانت أمور كالنظافة والاستحمام آخر ما أفكر به في ذلك الوقت.

التقيت هناك بطبيب من جنسية عربية عرفت فيما بعد أنه مقيم في (الكويت) منذ فترة الخمسينيات.. فجلست أمامه وبكيت بانهيار حتى شعر بشفقة شديدة تجاهي.. فأقفل باب الغرفة!!.. وجلس على طاولة المكتب بقربي محاولا تهدئتي!!.. وبعد محاولات عديدة للسيطرة على نفسي.. تمكنت أخيرا من الحديث.. فأخبرته بكل ما لدي.. أخبرته بكل شيء وتركت مهمة التصديق من عدمه له.. بالطبع لم يصدق حرفا في البداية!!.. لكنه استغرب كثيرا من ترديدي لمصطلحات كويتية قديمة.. ومن عدم معرفتي لأي مصطلحات حديثة من التي قالها!!.. لكنه لم يصدقني رغم ذلك أيضا.. إلا أنه بدا مهتما لأمري.. فأخذني إلى غرفة بدت وكأنها استراحة الأطباء.. وهناك تحدث عني مع مجموعة من زملائه مستخدما كلمات انجليزية لم أفهم منها حرفا.. قبل أن يصمت الجميع لوهلة وهم ينظرون إلى شكلي البائس ومظهري المزري.. ليقول بعدها أحد زملائه

بانتصار:

-مهلا.. لدي صديق سيهمه أمر هذا الصبي كثيرا.. أنا واثق من هذا..

اتجه إلى الهاتف الموجود في الغرفة.. وطلب رقما ما.. فأخبر من كان على الجانب الآخر أنه سيأتي له بصبي غريب الأطوار له أعماق ما..

أغلق السماعة وطلب مني بلهجة مهذبة للغاية أن أذهب معه.. خرجنا من المستشفى لنذهب إلى مكان ما عرفت فيما بعد أنه منزل في منطقة (العديلية).. حيث يعيش باحث كويتي في عالم ما وراء الطبيعة.. وله العديد من الدراسات الخاصة بعلم النفس.. كما أنه يعيش وحيدا.. إذ وهب حياته لأبحاثه ودراساته!!.. كان هذا الشاب صديقا حميما للدكتور الذي أخذني إليه.. فقد شعر الدكتور بأنني شخص غريب يحوم حولي لغز هائل.. أو ربما مجنون.. لكني -كما يقول أيضا-أثرت انتباهه بالمصطلحات القديمة التي أتحدث بها مع جهلي التام بكل ما يتعلق بالزمن الحالي.. وكأنني.. وكأنني من زمن آخر.. دون أن يعرف إلى أي مدى كان محقا!!!.

ما زلت أذكر ذلك اليوم.. عندما أخذت -ولأول مرة في حياتي-حماما ساخنا جعل أعصابي تسترخي تماما شاعرا بلذة لم أشعر بها من قبل.. لأرتدي بعدها ثيابا نظيفة أعطاني إياها ذلك الباحث مشكورا!!.. وبعد وجبة عشاء التهمتها كالمسعور.. جلسنا نتحدث.. ساعات طويلة تحدثنا فيها عن كل شيء تقريبا.. وأخبرته بدوري بكل ما حدث لي دون إهمال أي تفاصيل.. في البداية لم يصدق حرفا.. ولكن بعد بضعة أيام قضيتها في بيته.. اعترف الباحث أخيرا أنه يصدقني.. فكل الدلائل على حد قوله تشير إلى ذلك.

فأنا أتحدث بلهجة كويتية قديمة نسبيا.. ولا أملك أي أوراق أو إثباتات شخصية.. ولا أعرف التعامل مع أجهزة وتكنولوجيا هذا الزمن التي تفوق عقلي كثيرا دون شك.. وهكذا عشت سنوات عديدة في كنف هذا الرجل الذي أصبح بمثابة والدي.. وعرفت فيما بعد سبب عودتي إلى الأرض في عام 1977 رغم غيابي في الفضاء شهورا قليلة فحسب.. فالزمن في الفضاء يختلف عن الزمن في الأرض ([37]).. ولو سافر أحد إلى الفضاء لمدة سنتان مثلا.. فسيعود إلى الأرض وعمره لم يزد إلا سنتين فقط.. بينما سيكون قد مر ثلاثون عاما مثلا في زمن كوكب الأرض.... إنها حقيقة عرفتها فيما بعد وكشفت اللثام عن كل شيء.

وبالطبع كان استخراج هوية شخصية لي أو حتى جنسية أمرا مستحيلا.. فأنا إنسان المفترض ألا أكون موجودا.. ولن يصدق أحد من السلطات قصتي بطبيعة الحال.. وهذا ما جعلني أسيرا في منزل ذلك الباحث خوفا أن يفتضح أحدهم أمري.. فظللت في بيته حيث علمني القراءة والكتابة وأعطاني العشرات من الكتب لأقرأها وأزيد رصيد اطلاعي الذي كان صفرا دون شك.. إنني مدين لهذا الرجل بكل شيء تقريبا.. بل إن المسكين حاول أن يوصلني في البداية إلى أهلي.. لكنه عجز عن ذلك.. فقد توفي والداي وأعمامي وخوالي.. نحن نتحدث عن ثلاثين عاما منذ هروبي من (الكويت).. لذا فقد انقطع حبل ارتباطي بعائلتي إلى الأبد!!..

لقد حاول ذلك الباحث أن يستخرج لي إثبات شخصية من بلد أجنبي.. لكنه عجز عن ذلك أيضا.. لأنني لا أملك أي أوراق رسمية مسبقة.. إنني باختصار غير موجود.

كما لا تنسوا أنني من المفترض أن أكون في أواخر السبعينيات من العمر كوني من مواليد عام 1930.. لكنني في واقع الأمر في منتصف الأربعينيات!!!.. نعم.. قضية شائكة ومعقدة قد تصيبكم بصداع كما أصابتني به.

و.. لا يوجد ما يذكر في حياتي بعد ذلك.. انعزال تام عن المجتمع.. خروج نادر جدا من البيت..

وبالطبع أصبح الانترنت مع مرور الأيام جزءا مهما في حياتي.. إذ فتح أمامي طنا من العلوم والمعرفة.. وهكذا وصلتني الرسالة الإلكترونية من (لينا).. لقد ظننتها مزحة في البداية.. ولكن مع تواصل الرسائل بيننا شعرت أنها صادقة.. كنت أظن أنك خبيرة في عالم ما وراء الطبيعة يا (لينا).. لكنني فوجئت بأنك طفلة رقيقة تحتاج لمن يحميها.. وأن هذا اللقاء ليس سوى جلسة (فضفضة).. لكني رغم ذلك.. لن أنسى أبدا هذه الليلة.. فقد أتاحت لي الفرصة لألتقي بكما.. إنني أعيش أيامي الحالية مع ذلك الباحث الذي أصبح عجوزا في الستين من العمر دون التفكير بالمستقبل.. أتساءل فقط عن الناس الذين يعتقدون أنهم فهموا كل شيء وخبروا كل شيء.. فكيف لو عرفوا ما حدث لي وما حدث لكما؟!.. أما زوجتي (مريم).. فما زلت أحترق ليلا ونهارا عندما أتذكر أنها تعيش عالما مزيفا لا تعرف شيئا عن حقيقته.. وهذا يقتلني قتلا.. لكن ماذا عساي أن أفعل؟!.. أنسى حبيبتي؟ ؟!.. لقد حاولت نسيانها.. لكن النسيان نفسه يذكرني بها طوال الوقت!!.. هذه هي قصتي.. وآمل ألا أكون قد أطلت عليكما.

وأخيرا.. بما أنني أكبر الموجودين سنا.. فستقتضي العادة أن أسدي إليكما نصيحة صغيرة.. لا أريد أن أكون فيلسوفا.. فالفيلسوف شخص أحمق يشقى طوال حياته ليذكره الناس بعد مماته!!.. أرجوكما تذكرا ألا تكرها أحدا وأن تحبا كل الناس.. فعندما تكره.. سيكون المتضرر هو أنت.. لأن الذين تكرههم إما يجهلون هذا.. أو يعرفون ولا يهتمون.. هذا كل ما لدي.. وأتمنى أخيرا أن تكونا قد استمتعتما بقصتي التي لا تصدق وألا تكونا قد شعرتما بالصداع من التعقيد الذي شهدته أحداثها.

الخاتمة

انتهى السيد (سالم) من قصته.. فساد المكان صمت رهيب لفترة بدت لي طويلة جدا.. قبل أن يقطع (خالد) حاجز الصمت ويقول بهدوء شديد:

-إنني أصدقك يا سيدي ولا أشك بشيء مما قلته.. لم تعد تلك الأمور تثير استغرابي.. لكني بالفعل فوجئت بالنهاية.. لقد ظللت طوال الوقت أحاول أن أخمن المكان الذي قادكما إليه ذلك البريطاني المزيف.. وضعت عشرات الاحتمالات.. لكنها كانت خاطئة!!.. حقا أن قصتك انتهت بمفاجئة قوية جدا لم أتوقعها على الإطلاق.. ولا أعتقد أن (لينا) قد توقعت نهاية بهذه الصورة.. ماذا تقولين يا (لينا)؟!..

عقدت حاجبي بشدة كناية عن التفكير العميق.. قبل أن أحسم أمري وأقول:

-إنني.. إنني أتفق معك تماما يا (خالد).. إنها بلا شك أغرب القصص على الإطلاق.. لكني أصدق كل حرف فيها أيضا.. فلا أعتقد أن رجلا في عمر أبي سيضيع ساعات من وقته مع اثنين في عمر أبنائه ليروي لهما بعض الأكاذيب كما قال بنفسه في البداية.. ثم إن القصة محكمة وشائكة إلى حد بعيد ولا يمكن لأحد أن يختلقها بهذه الدقة.. إلا لو كانت قد حدثت بالفعل!!.. إنني أصدقك يا سيد (سالم).. أصدق كل ما قلته.

نظر إلينا بارتياح شديد وهو يقول:

- وهذا يسعدني كثيرا يا أبنائي.. لأنني بالفعل صادق في كل ما قلته.. هذه القصة غيرت حياتي تماما.. وجعلتني أعيش مع مجتمع كويتي حديث لا أنتمي إليه في واقع الأمر.. لذا فأنا منعزل تماما عن العالم كما عرفتما عني.. ولا أخرج من البيت إلا نادرا خوفا من كشف أمري.. لأنني في واقع الأمر شخص غير موجود في سجلات الحكومة.. فلا أوراق شخصية ولا هوية.. لكني سعيد.. سعيد تماما في حياتي الهادئة.. بالمناسبة.. أكرر شكري لك يا (لينا).. إنها ليلة لن أنساها مدى الحياة.. أشكرك أنت كذلك يا (خالد).. صدقني يا ولدي إنني أشعر بالفخر بوجودي معكما هنا..

نظرنا له بامتنان شديد.. ثم نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط.. ولأول مرة أنتبه إلى أنها الثانية عشر والنصف بعد منتصف الليل!!.. لقد قضينا أكثر من أربع ساعات نتحدث فيها دون أن نشعر بمرور الوقت!!.. حقا أنها ليلة لا تنسى..

قلت بعدها بحزن:

-يؤسفني أنني لن أراكما بعد الآن.. إنني أشعر ولأول مرة في حياتي بأن لدي أسرة هنا.. لكني أعدكما بألا ينقطع الاتصال بيننا على الإطلاق.. سأظل أتواصل معكما عبر البريد الإلكتروني.. أو حتى الهاتف إن كنتما لا تمانعان.. لا يمكن أن أقبل بعدم التواصل معكما بعد رحيلكما.

قال (خالد) بابتسامة يشوبها الأسف:

-صدقيني يا (لينا) هذا هو شعوري تماما.. إنني أرغب بشدة بالتواصل معكما.. وأعتقد أنني سأزور السيد (سالم) كثيرا.. إن كان لا يمانع بالطبع.. وسأتواصل معك عبر البريد الإلكتروني.. أو الهاتف.. لا يمكن أن أقبل الرحيل من هنا دون الاطمئنان بوجود وسائل عديدة للتواصل بيننا..

رد السيد (سالم) مبتسما:

-بالطبع يا ولدي.. سيسعدني كثيرا أن تزورني في منزلي.. بل إنني أرجوك أن تفعل.. فكل منا يعيش وحيدا.. وأعتقد أن هناك الكثير من الأمور التي نستطيع مناقشتها والحديث بشأنها..

سكت قليلا قبل أن يستطرد:

-سأرحل الآن.. فلم أعتد السهر حتى ساعة كهذه..

رد (خالد) بسرعة:

-سأوصلك بنفسي يا سيدي.. وأرجوك لا ترفض.. فأنا أصر على هذا..

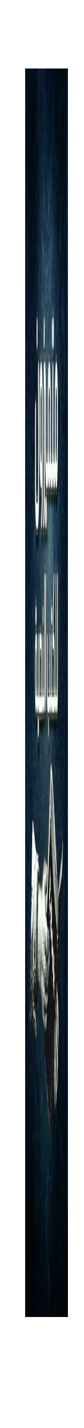
ابتسم السيد (سالم) بتأثر.. وأومأ برأسه موافقا.. فنهض الاثنان وصافحاني بحرارة وهما يشكراني على هذه الليلة التي لن ينساها أي منهما كما يقولان.. لم أتمالك نفسي.. لتنهمر دموعي وتملأ وجهي.. احتضنني السيد (سالم) بحنان بالغ.. و.. لأول مرة في حياتي أشعر بمعنى ضمة الصدر من أب حنون.. نعم.. لقد شعرت أن من يضمني هو أبي.. كان شعورا رائعا لا يوصف.. فانهمرت دموعي أكثر وأكثر.. أما (خالد) فكان ينظر إلينا متأثرا بعينين دامعتين.. لحظات قليلة لا تسمع فيها سوى صوت بكائي.. قبل أن أسيطر على نفسي وأمسح دموعي أخيرا.. ثم قلت:

-سأرحل قريبا إلى (دبي).. وسأتصل بكما من هناك حالما تستقر أموري.. أعدكما بأنني سأتواصل معكما إلى الأبد.. كما أعدكما بزيارات بين الحين والآخر إن كنتما لا تمانعان حتى نقضي معا أمسية عائلية جميلة كهذه..

صافحاني مرة أخرى بحرارة.. وتبادلنا أرقام هواتفنا على وعد باتصال قريب.. وهذا ما سأفعله معهما بكل تأكيد إن شاء الله.

رحل الضيفان أخيرا.. رحلا وتركاني كما أنا دائما وأبدا.. وحيدة!!.. ظللت متوقفة عند باب البيت أرمق سيارة (خالد) تبتعد شيئا فشيئا حتى غابت عن البصر.. لأعود بعدها إلى الفراش وكياني يمتزج بمشاعر وأحاسيس لا أستطيع وصفها.. لكن كل ما فيها يشكر جنوني الذي قادني إلى عائلة جديدة.. إلى أمسية لا تنسى أبدا.. حيث عرفت فيها قصص وحكايات لا تصدق.. قصص من ذلك الجانب المجهول من العالم والذي لا يعرفه أحد.. الجانب المظلم.

(تم الكتاب بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

لينك القنـاة – Link

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(1) (ديكاميرون) هو اسم رواية قديمة جدا لكاتب إيطالي اسمه (جيوفاني بو كاشيو) عاش بين عامي 1313 - 1375 إذ تحدث الكاتب في روايته تلك عن واقعة مرض الطاعون الذي ضرب مدينة (فلورنسا) عام 1348.. فقد خرج من المدينة الموبوءة سبع فتيات وثلاثة فتيان واتجهوا إلى الريف هربا من الإصابة بهذا المرض القاتل.. فبقوا هناك عدة أيام بانتظار زوال موجة الطاعون التي أصابت قريتهم، ولكي يقتلوا الملل ووقت الفراغ.. كان على كل واحد منهم أن يروي قصة واحدة في اليوم.. وكلمة (ديكاميرون) تعني (10 أيام) وتمثل الأيام التي قضاها الفتيان في الريف.

[←2]

(2) كل ما ذكر عن وضع اللقطاء في (الكويت) هو حقائق مع الأسف.

[←3]

(3) يعتقد علماء البحار أن الحوت متطور عن ديناصورات أرضية كانت تسير يوما على قدميها.

[←4]

(4) حقيقة.

[←5]

(5) الميتافيزيقيا: شعبة من فلسفة العلوم الطبيعية، وتعرّف على أنها فلسفة تبحث في أسرار الكون والظواهر الغريبة وجميع الأمور الغيبية التي لم يجد لها العلماء تفسيرا، وكلمة (ميتافيزيقيا) نفسها تعني (ما وراء الطبيعة)، ويعتبر الفيلسوف (أرسطو) أول من كتب في هذا المجال عندما قام بتأليف كتابا يتحدث عن أسرار الكون أطلق عليه اسم (الفلسفة الأولى)، إلا أنه لم يستخدم مصطلح (ميتافيزيقيا) في أي من محاضراته أو كتبه على الإطلاق!! بل جاء هذا المسمى بالصدفة البحتة، فبينما كان تلامذته يصنفون كتبه في مكتبته الخاصة، جاء كتاب (الفلسفة الأولى) مباشرة خلف كتاب (الطبيعة) الشهير -الذي قام بتأليفه (أرسطو) أيضا – فأطلق تلامذته على كتاب (الفلسفة الأولى) اسم:
(ميتافيزيقيا)، أي (الكتاب الذي جاء ترتيبه بعد كتاب الطبيعة)، ومن هنا جاءت تسمية (ما وراء الطبيعة) لكل الظواهر الغريبة والغيبيات.

[←6]

(6) حقيقة.. وهذا الكتاب يمتلئ بالطلاسم والتوافيق المجهولة.. علما بأن عقوبة اقتناء هذا الكتاب تصل إلى حد الإعدام في بعض الدول العربية!!

[←7]

(7) تجربة حقيقية قام بها باحث ياباني.. ولكن العلم الحديث لا يعترف بهذه التجربة ويعتبرها خاطئة جملة وتفصيلا.. فذلك الباحث لم يضع في اعتباره عوامل البخر من الجلد.. وعوامل البخر هي حالة تبخر السوائل الموجودة في جسم الإنسان والتي تبدأ عند الاحتضار.. الأمر الذي يجعل وزن الإنسان أقل من وزنه الطبيعي في تلك اللحظات الأخيرة من حياته.

[←8]

(8) نظرية حقيقية على الرغم من الصورة الهزلية التي قد تتبادر إلى أذهاننا!!.. ويطلق على وعي العقل أثناء النوم اسم (الإسقاط النجمي) (Astral Projection) وتتفرع منه تجارب (الخروج من الجسد) الشهيرة.

[←9]

(9) الهالات (Auras): لقد توصل العلم الحديث إلى أن جميع الكائنات الحية (بما فيها البشر بالطبع) محاطة بهالة كهربائية لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة!!.. وأن تلك الهالات تحمل ألوانا مختلفة.. وتبقى لفترة غير محددة من الزمن إلى أن تزول شيئاً فشيئاً بعد موت الكائن الحي.. وتعتبر هذه الهالات لغز لم يجد له العلم تفسيرا قاطعا رغم النظريات العديدة التي وضعت بشأنه.

[←10]

(10) في عام 1916 وقبل اختراع السماعات التي يستخدمها الأطباء.. ذهبت فتاة إلى الطبيب الفرنسي (رينيه ليناك) لتشكوه من مرض في قلبها، وقد كانت الفتاة متحفظة، فلم تسمح للطبيب بوضع إذنه على صدرها ليسمع دقات قلبها - كما جرت العادة في ذلك الحين - فقام الطبيب بإحضار صحيفة.. ولفها على شكل أسطوانة، ووضع طرفا منها على صدر الفتاة.. والطرف الآخر على إذنه.. فاندهش كثيرا لسماع دقات قلبها بوضوح.. وما أن فرغ من فحص الفتاة حتى اختمرت في رأسه فكرة اختراع السماعة التي يستخدمها الأطباء اليوم في جميع أنحاء العالم.

[←11]

(11) حقيقة.

[←12]

(12) حقيقة.

[←13]

(13) راسبوتين (؟ -1916): راهب روسي مخيف نسبت إليه العديد من القدرات الروحانية الغريبة والخارقة، فقد قام بعشرات الأعمال المذهلة التي مازالت تفجر كل علامات الاستفهام!!.. منها ما فعله مع الأمير الصغير (أليكس) عندما أنقذه من مرض قاتل لا شفاء له بطريقة مجهولة تماما هي أقرب إلى السحر.. فاعتبره قيصر (روسيا) في ذلك الوقت وكأنه ملاك حارس بعثه الله لإنقاذ ابنه من الموت، وحصل (راسبوتين) بسبب ذلك على صلاحيات واسعة جدا منحه إياها القيصر، وأصبح أقرب المقربين للعائلة الحاكمة، لدرجة أن خزينة (روسيا) القيصرية في ذلك الوقت كانت بأكملها تحت تصرفه ينهل من أموالها ما يشاء دون أن يجرؤ أحد على منعه.. وقد حاول بعض أعدائه قتله بالسم.. فوضعوا في النبيذ الذي كان يشربه كمية من سم (السيانيد) تكفي لقتل 6 رجال، ولكن السم لم يؤثر ب. (راسبوتين) إطلاقا!! عدا بعض الصداع البسيط الذي سرعان مازال، ليتصرف بعدها بصورة طبيعية جدا دون أن يشعر أصلا أن هناك من وضع له السم في النبيذ. وقد تحدث المؤلف عن (راسبوتين) بشيء من التفصيل في كتابه (خلف أسوار العلم).

[←14]

(14) حقيقة.

[←15]

(15) هذا أحد التفسيرات المتعلقة بعدم موت (راسبوتين) بالسم الذي وضعه له أعداؤه في الطعام، وأقربها صوابا كما يقول الخبراء.

[←16]

(16) راجع إصدارات المؤلف السابقة.

[←17]

(17) حقيقة.. فهناك أمور يأخذها الإنسان على أنها حقائق واضحة ومنطقية لأنه تعود على سماعها أو رؤيتها منذ الصغر و باستمرار دون أن يعترض عليها أحد.. فعلى سبيل المثال.. جميعنا نعلم أن قارة (استراليا) تقع في الجنوب.. ففي خرائط العالم تكون جهة الشمال في الأعلى والجنوب في الأسفل.. ولكن هذه ليست حقيقة مطلقة في واقع الأمر.. ففي أطلس خرائط العالم الذي يباع في قارة (استراليا) يتم وضع تلك القارة في الشمال.. في حين نجد أمريكا الشمالية في الجنوب!!.. لأن صورة الخريطة التي تباع هناك قد التقطت من الجانب الآخر من الكرة الأرضية.. و لم لا ؟!.. فالكرة الأرضية تسبح في الفضاء الذي لا يوجد فيه شمال أو جنوب.. وكل ما يحدد ما هو شمال أو جنوب هو موقع المتفرج فحسب.

[←18]

(18) أبقراط هو طبيب يوناني اسمه باللغة اليونانية (هيبوكراتوس) وقد اشتهر بلقب (أبو الطب).. فهو الذي نقى الطب من الخرافات والخزعبلات وقام بتصنيفه على أسس علمية بحتة.. فعني بمراقبة المرضى مع تسجيل علامات وأعراض الأمراض.. ثم قام بعد ذلك بوضع قسما لتلامذته.. أطلق عليه فيما بعد اسم (قسم أبقراط).. حيث يحوي الالتزام بكل آداب مهنة الطب.. وما زال الأطباء حديثي التخرج يؤدون هذا القسم إلى يومنا هذا وفي جميع جامعات العالم تقريبا.

[←19]

(19) حقيقة

[←20]

(20) راجع إصدارات المؤلف السابقة (الأبعاد المجهولة) و(الأبعاد المجهولة 2).

[←21]

(21) حقيقة.. وقضية مدعيي النبوة لم تنته مع نهاية (مسيلمة الكذاب) كما قد يظن البعض.. فهناك حالات كثيرة ظهر فيها أناس يدعون النبوة.. منها ما حدث في (سوريا) عام 2(حين قام المدعو (هيثم الأحمد) بادعاء النبوة وهو في السجن.. وقام بوسيلة غير معروفة بإقناع مجموعة من السجناء بذلك.. حتى أنهم اقتنعوا تماما بنبوته المزعومة!!.. فأصبحوا يلتزمون بتوجيهاته ويقومون بكل ما يأمرهم به الى درجة القتل.. ليقوم بعدها بتحريض أتباعه على القيام بثورة ومشاجرات أسفرت عن مقتل خمسة أشخاص وجرح العديد في السجن.. وهناك تقارير أخرى عن مدعي نبوة آخر ظهر في (المغرب).. و(اليمن) و(مصر) بل وحتى في (المملكة العربية السعودية) كما أشارت الصحف السعودية.. حين تم القبض على رجل من جنسية عربية اسمه (منصور ابراهيم) ادعى النبوة في منطقة (جازان).

[←22]

(22) البارانويا هي عقدة الشعور بالاضطهاد.

[←23]

(23) حقيقة مع الأسف.

[←24]

(24) كل ما هو مذكور عن عمليات غسيل المخ حقائق مؤكدة.

[←25]

(25) هذه الطقوس يمارسها عبدة الشيطان بالفعل.

[←26]

(26) قصة حقيقية.

[←27]

(27) حقيقة.

[←28]

(28) حقيقة مع الأسف.

[←29]

(29) حقيقة.. و(الحسن بن الصباح) هو مؤسس طائفة (الحشاشين).. وهي طائفة إسماعيلية نزارية.. انشقت عن الفاطميين لتدعو إلى إمامة (نزار بن المستنصر بالله) ومن جاء من نسله.. وقد تميزت هذه الطائفة باحتراف القتل والاغتيال والمذابح لأهداف سياسية ودينية متعصبة.. حتى إن كلمة (الحشاشين) هي أصل كلمة (Assassin) الإنجليزية والتي أصبحت تعني القاتل المحترف المأجور.. وقد توفي (الحسن بن الصباح) عام 1124م من غير سليل لأنه كان قد أقدم على قتل ولديه أثناء حياته!!.

[←30]

(30) طريقة الإله من الآلة هي طريقة قديمة كان يلجأ لها كتاب المسرح اليوناني.. فحين تتعقد الأمور وتتشابك الشخصيات في مسرحية ما ويعجز الكاتب عن إيجاد نهاية سليمة للأحداث.. عندئذ كان يدخل المسرح ممثل في سلة كبيرة تتدلى من حبل.. هذا الممثل يؤدي دور أحد آلهة اليونان القدامى.. وكان في دقائق يصدر أوامره التي تجعل الأعداء يصطلحون مع بعضهم بعضا.. ويجعل المجرمين يتوبون عن أخطائهم ويندمون.. وهكذا تنتهي عقدة المسرحية في ثوان.. وقد انتهت هذه الوسيلة بتلك الصورة الحرفية.. لكنها مستمرة بصورة أخرى.. فالإفاقة من حلم -على سبيل المثال-حين تتعقد أحداث القصة هي أسلوب آخر من أساليب طريقة (الإله من الآلة).

[←31]

(31) عقار الهلوسة هو مادة كيميائية تؤدي إلى تغيير مؤقت في التركيب الدماغي للمخ.. مما يؤثر بطبيعة الحال على إدراك الإنسان فتجعله يرى ويسمع أشياء لا وجود لها.. وهناك حوادث سابقة لأناس أصيبوا بالجنون أو أقدموا على الانتحار بسبب تعاطيهم لعقاقير الهلوسة ورؤيتهم لأشياء مخيفة تتحدى المنطق أصابتهم بالهلع.. وقد قامت العديد من الدول بسن قوانين صارمة تمنع صناعة وتوزيع وحيازة هذه العقاقير.

[←32]

(32) حقيقة

[←33]

(33) كلمة عامية تطلق على موقد يوضع في داخله الفحم المتوهج.

[←34]

(34) كانت كلمة (الهيس الأربد) شتيمة دارجة جدا.. وما زال بعض الناس يظنها مسبة جارحة.. والواقع أنها ليست كذلك إطلاقا.. ف(الهيس) هو (الأسد).. و(الأربد) تعني الكسول.. فيأتي المعنى (الأسد الكسول).. وعلى سبيل التحذلق أقول أن لهجة أهل الكويت في الماضي كانت مستمدة من لهجات أهالي الجزيرة العربية بطبيعة الحال!!.. قبل أن تدخل عليها مفردات هندية وفارسية وتركية وسواحلية من شرق أفريقيا.. فكلمات مثل (كبت) وتعني (خزانة الثياب) أصلها (كبورد) بالانجليزية.. وكلمة (آجار) وتعني (المخللات) هي كلمة هندية للمعنى نفسه.. وكلمة (فستق) وتعني نوع من أنواع المكسرات هي كلمة فارسية (بستق).. أما (الكفشة) وتعني (الملعقة) فهي كلمة تركية.. وهكذا.

[←35]

(35) الانتقال الآني: مصطلح يطلق على انتقال الجسم المادي عن طريق تفكيك جزيئاته من مكان، بحيث تستقبل ويعاد تجسيدها في مكان آخر، كما يحدث تماما عند إرسال الفاكس.. وقد تحدث المؤلف عن الانتقال الآني بشيء من التفصيل في كتابه (خلف أسوار العلم).

[←36]

(36) كل ما ذكر هو حقائق تاريخية عن كيفية نشأة عبادة الأصنام في تاريخ البشرية.

[←37]

(37) حقيقة.